توني موريسون

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

أكثر العيون زرقة

ترجمة كامل يوسف حسين

رواية

دار الآداب

أكثر العيون زرقة

رواية: توني موريسون

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

twitter @baghdad_library

الطبعة الأولى
١٩٩٥

مقدمة المترجم

الآن وقد هدأ، ربّما إلى حدّ التّراجع والانحسار، كلّ ذلك الغبار، الرّماد، والضّباب، الّذي ثار حول الكاتبة الأمريكيّة توني موريسون، لدى فوزها بجائزة نوبل للأدب، بفعل ذلك الدّفق من الكتابة الصحافيّة، الجاهزة، والمعلّبة، والخالية من الرّوح الّذي ينطلق كعاصفة شرّيرة، في تشرين الأوّل (أكتوبر) من كلّ عام، مع إعلان اسم الفائز بالجائزة العتيدة، ثمّ لا يبقى منه شيء في القلب ولا العقل ولا الرّوح ـ الآن فقط يمكننا أن نملأ رئاتنا بالهواء النّقيّ، ونكتب عن موريسون شيئاً ممّا تستحقّه، بغضّ النّظر عن فوزها بجائزة نوبل.

لكنّني أَعِد القارئ بألاَّ أطيل في الكتابة؛ لأدع له رحابة اللّقاء بهذا الكتاب الرّشيق الّذي كان أوّل ما قدّمته توني موريسون، والّذي استهلّت به مسيرتها الرّوائيّة في العام ١٩٧٠ وهي في الأربعين من عمرها تقريباً.

من أين نبدأ؟ وعبر أيّ المحطّات ستمضي مسيرتنا؟

الّذين قرأوا، بحبّ وتعاطف، ترجمتنا لرواية موريسون الجميلة الّتي أصدرتها دار الآداب أيضاً «جاز» سيدركون، على الفور، أنّنا هنا بإزاء الضّلع الثّالث في المثلّث الّذي يشكّل معرفة القارئ العربي بأدب موريسون. فإلى جوار «جاز» سبق للقارئ العربي أن قرأ لها

twitter @baghdad_library

«محبوبة» من ترجمة الأستاذ الدّكتور أمين العيوطي، وها نحن نلتقي مع «أكثر العيون زرقة» وإن كنت أتمنّى أن يتحوّل هذا المثلّث إلى مستطيل، بإضافة رواية رابعة، هي «أغنية سليمان» على أن يؤطَّر هذا كلّه بإصدار ترجمة عربيّة لكتابها الصّغير الحجم والعظيم القيمة الموسوم «اللّعب في الظّلام: البياض والخيال الأدبي».

وربّما تمكّنا من إلقاء نظرة فاحصة وموجزة معاً على هذا المستطيل والإطار الّذي يحيط به، إذا انطلقت مسيرتنا، على امتداد هذه السّطور، ودونما إسهاب، عبر ثلاث محطّات، هي إطلالة على عالم موريسون الرّوائي، والمكانة الّتي تحتلّها رواية «أكثر العيون زرقة» في إطار هذا العالم، وأخيراً نظرة عجلى على الخيال الأمريكي والبياض فيه، من خلال رؤية موريسون للعلاقة بينهما.

إنّنا نعرف أنّ موريسون قد أصدرت، حتّى كتابة هذه السّطور، ستّ روايات هي على التّوالي: أكثر العيون زرقة (١٩٧٠)، سولا (١٩٧٤)، أغنية سليمان (١٩٧٧)، طفل القطران (١٩٨١)، محبوبة (١٩٨٧)، جاز (١٩٩٢)، بالإضافة إلى مسرحيّتها «أميت الحالمة» الّتي كتبتها في العام ١٩٨٦، إلى جوار كتابيْ: «اللّعب في الظّلام»، «سباق العدالة وخلق القوّة: أبحاث حول بناء الواقع الاجتماعي لدى أنيتا هيل وكلارنس توماس وغيرهما». وهما صادران في العام ١٩٩٢

وإذا كانت اللّجنة الملكيّة السويديّة، الّتي منحت موريسون جائزة نوبل، تقول في جانب من حيثيّات حكمها إنّها منحتها للروائيّة الأمريكيّة «لأنّها في رواياتها المتميّزة بقوّة الخيال وشاعريّة المحتوى

منحت الحياة لجانب هام من الواقع الأمريكي» فإنّ موريسون نفسها لم تنطلق إلى عالم الرّواية لتحقّق هذا الهدف، وإنّما، كما تقول هي نفسها في حوار معها: «أعتقد أنّني كنت مهتمّة بقراءة كتاب معيّن لم أستطع أن أجده. لم أنظر إلى الأمر بهذا الشّكل في البداية، لكن أصبح مثيراً جدّاً أن أكتبه ثمّ اقرأه. وأدركتُ وأنا أكتبه أنّني قد أخطأته، لقد فاتتني حقيقة أنّه لم يكن موجوداً من قبل بطريقةٍ ما يمكن قراءته بها. كنت قانعة حتّى ذلك الوقت لأنّني كنت أظنّ أنّ كلّ ما كنت أريد أنْ أقرأه قد كُتِب، وأنّني سأجده، لكن ذلك لم يكن صحيحاً».

الآن هل نحن بإزاء صياغة أخرى لما ذكره الرّوائي الكولومبي الفائز بجائزة نوبل للأدب أيضاً جابرييل جارسيا ماركيز من أنّ الكاتب يظلّ طوال عمره يطارد كتاباً واحداً يحاول أن ينجزه؟

ليس تماماً؛ فموريسون تدهشنا بأنّ كلّ عمل من أعمالها هو كتاب جديد تماماً ومختلف كلّ الاختلاف، رغم استمراريّة الهموم، وربّما الأجواء، وروح الشّخوص.

ربّما لهذا، بالضبط، لم يتردّد مارتن سيمور سميث في «دليل الأدب العالمي» من القول بأنّ موريسون هي أهمّ روائيّة سوداء في أميركا منذ رالف إليسون الّذي اشتهر ـ بالمناسبة ـ بأنّ إحدى قدميه في موسيقى الجاز والأخرى في دنيا الرّواية الّتي اكتسحها برائعته اليتيمة «الرّجل الخفيّ».

لسوف نعود في محطّتنا التالية للقاء مع «أكثر العيون زرقة» الّتي

twitter @baghdad_library

تشكّل نقطة البداية في عالم موريسون الرّوائي. وإذا تابعنا جوانب من هذا العالم فإنّنا سنجد أنفسنا أمام عدد من الملاحظات المهمّة:

* أبرز ملامح عبقرية موريسون هو أنّ رؤيتها نابعة من خيالها. حقّاً أنّنا قد نلمح تأثير فوكنر هنا، وبصمة بعض كتّاب الواقعيّة السحريّة هناك، لكنّنا دائماً أمام خيال موريسون نفسها، حيال نسيجها الرّوائي، بل وحيال أخطائها الخاصّة، وفي مقدّمتها استخدام الرّمزيّة التعسّفي أحياناً إلى حدّ الغِلَظ الجافي. وفي روايتها الثّانية «سولا» ستتردّد في أسماعنا ونحن نقرأ هذه الرّواية القاتمة أصداء فوكنر، بل قد تطبق على أنفاسنا القبضة القاهرة لليأس الفوكنري شبه العدمي، خاصّة ونحن نتابع تعقيدات العلاقة بين البطلة وجدّتها. وسولا مخلوقة أنانيّة، ومتمحورة حول ذاتها، وينتهي بها الحال إلى أن تغدو ساحرة رهيبة تصدمنا كأشدّ ما تكون الصّدمة. ولكنّها تجعلنا نفيق على علامة الاستفهام الصحيحة: من أين ينبع هذا كلّه؟

* في «أغنية سليمان» ـ وربّما كان هناك كثير ممّن يختلفون معي في الرّأي ـ نحن أمام أعلى قمّة وصل إليها فنّ الرّواية كما تكتبه موريسون. فهنا النّضج الكامل، والبنّاء الصرحيّ، والاتّساع الرّحب في النّسيج الرّوائي، حيث نلتقي مع عائلة سوداء تدعى «ديد» ـ والاسم لا يخلو قطّ من دلالة عند موريسون ـ والمدهش هنا أنّنا سنتابع البطل، ميلكمان ديد، وقد أصبح اسماً على مسمّى، فهو ميّت بالفعل، ورحلتنا معه هي رحلة عودته إلى فرجينيا لإعادة اكتشاف الحياة. ويلفت نظرنا أنّ صديقه «جيتار» يُعَدّ من أروع الدّراسات في الموقف العنصري الأسود الّذي يردّ على عنصريّة البيض بمثلها.

* «طفل القطران» عمل يتميّز من بين كلّ أعمال موريسون باقتحام الشّخصيّات البيضاء لعالمها الرّوائي، ربّما للمرّة الأولى، وربّما بسبب هذا الاقتحام، على وجه التّحديد، يبرز الاستخدام التعسّفي من جانب موريسون للرمزيّة.

* من خلال «محبوبة» سنعرف حقّاً لماذا تُرجمت أعمال موريسون إلى ٢٨ لغة، وحقّقت هذا الانتشار الكبير. وهي نفسها تفسّر ذلك الافتتان على امتداد العالم بهذه الرّواية بشكل خاص حين تقول في المقابلة المشار إليها ردّاً على سؤال عمّا ألهمها هذا العمل: «كنت أفكّر في النّساء على وجه الخصوص، وهذا الشيء اللّطيف الّذي نقوم به ويسمّى بالتغذية، وكم نحن ملائمات بشكل متقن لذلك، ولكن كيف يمكن أن يُطْلَق زمامه، ويصبح الطّريقة الّتي نمحو بها أنفسنا، ونخرّبها بها، ونجعل من ذواتنا شهيدات. ومن ناحية أخرى لا تريد الواحدة منّا أن تستغني عنه، النرجسيّة قويّة للغاية، وعندما يتمكّن هذا الاهتمام منك فإنّك تصبحين شيئاً بغيضاً. كانت تلك هي الأفكار العامّة الّتي كنت أفكّر فيها، ثمّ بدأتُ أفكّر فيما تعنيه الهويّة بالنسبة لامرأة، وما هي الذّات، وفكّرت في أن أبدأ بالأمومة، ثمّ تذكّرت هذه القصّة عن مارجريت جارنر، الجارية الّتي هربت، ثمّ قبض عليها، وحاولت قتل أطفالها ونفسها. وقد أراد دعاة إلغاء الرقّ أن تحاكم جارنر بتهمة القتل حتّى يمكنهم أن يقولوا إنّه كانت لها علاقة بأطفالها، وأنّ الأمّهات من الرّقيق كان لهنّ أطفال وكنَّ مسؤولات عنهم، لكنَّها لم تحاكم بهذه التّهمة، وإنّما حوكمت بتهمة السّرقة وسرقة الممتلكات: هي نفسها وأطفالها»

* لقد قيل الكثير لدى فوز موريسون بجائزة نوبل عن أنّ رواية

twitter @baghdad_library

«جاز» قد كتبت بنزعة غنائيّة قويّة ومحكومة، وأنّها تقلّد التنويعات الحرّة لموسيقى الجاز، وتقدّم لنا جوهر هذه التنويعات، أي التّعبير عن المشاعر والذّكريات. لكنّني أعتقد أنّ هذا الفهم، بل والتّعبير ذاته، قد نقل عن كتّاب مقالات عُروض الكتب، الّذين لم يقرأوا الرّواية، وإنّما تصفّحوا كلمة النّاشر، في أسوأ الفروض، أو نجم عن فهم مسطّح للعمل، في أحسنها. فهذه الرّواية ليست تقليداً لتنويعات الجاز، وإنّما هي غوص في نبع الثّيمات والموضوعات الّتي تأتي تنويعات الجاز توسيعاً لها، وكتابة على هوامشها. بل إنّني أخشى أن تجسّد هذه الرّؤية سوء فهم حقيقي لموسيقي الجاز الأمريكيّة، وأتمنّى ألاّ أتّهم بالمبالغة، أو التّبسيط المُخِلّ معاً، إذا طرحت المسألة على هذا النّحو: من أين نبعت موسيقى الجاز الأمريكيّة أصلاً؟ الإجابة بوضوح هي أنّها نبعت من مصادر وينابيع لا حصر لها، لكنّ أقواها هي الموسيقى الّتي جلبها الأفارقة معهم إلى أمريكا والتقاط الفكر الكنسي الأمريكي لهذه الموسيقى كقناة حوار معهم. وهكذا فإنّ هذه الموسيقى الّتي امتزجت بدم ودموع تجربة الأفارقة الأمريكيّين في الدّنيا الجديدة، تعبّر عن حبّ عارم للحياة، عن شهوة مترعة بالدّم إلى تجلّياتها الإنسانيّة، وعن نجوى الرّوح في مواجهة الموت والقهر المتصدّي لهذا الفرح بالحياة. وهذا هو بالضبط ما تعبّر عنه «جاز» موريسون. ولهذا فإنّ الفصول المتتالية في الرّواية ليست تنويعات متتابعة، وإنّما هي صورة خياليّة تتوالد من رحم أخرى، حتّى لتشكّل امتداداً لها والتقاطاً لمفرداتها.

إذا انتقلنا إلى المحطّة الثانية، وتحدّثنا عن رواية «أكثر العيون زرقة» فإنّني أبادر إلى الاعتراف للقارئ بأنّ هذه الرّواية تثير قلقي

بشدّة، ولأكثر من سبب، وتدعوني إلى التأمّل وإمعان النّظر فيها، دون أن يفسد عليَّ هذا كلّه استمتاعي بقراءتها. وربّما كانت تلك سمة كلّ أدب إنساني أصيل، وهذا القلق يضرب جذوره في النقاط التالية:

١ ـ لقد جئت إلى ترجمة «أكثر العيون زرقة» أحمل على كاهلي خبرة ترجمة أربعين كتاباً، الكثير منها لا ينقصه الصّعوبة ولا التّعقيد، ولكنّني مع الإطلالة الأولى على الرّواية وجدت نفسي في مواجهة الصيحة الشهيرة «اتركوا السكّين عند المدخل!» فكان عليَّ أن أدع خبرتي جانباً وأترجم الرّواية وكأنّها عملي الأوّل؛ لأنّها بالفعل نسيج وحدها، وهي تطرح تحدّيات لا يمكن تجاهلها. فاللّغة عند موريسون بعامّة، وفي هذا العمل بشكل خاص، كهف أسرار، حافل بالجواهر وبالأشراك القاتلة معاً. وقد كانت موريسون نفسها هي الّتي قالت: «إنّ ما يفعله السّود بصوت اللّغة، بخواصّها النّغميّة شيء فاتن، حتّى إنّك لا تحتاج إلى الاعتماد على المعجم، ويمكنك أن يكون لديك معجم محدود جدّاً. إنّ موسيقيّة اللّغة تتأكّد في كلام السّود. معارضة الكلمات وخلق أنواع معيّنة من الصّور في اللّغة شاعريّة أيضاً، وأشكال القلب ممتعة، قلب اللّغة لتعني نقيضها. إنّها إحدى وسائل التمكّن من اللّغة». ولعلّه ليس من قبيل الصّدفة أن تكون موريسون قد خصّصت كلمتها في حفل استلام جائزة نوبل للحديث عن «نهب اللّغة». ودعني أضرب مثالاً محدّداً هنا لنأخذ، على سبيل المثال، شخصيّة السيّدة بريدلوف. إنّها امرأة سوداء بسيطة، لم تدرس إلاّ سنوات قلائل انتقلت بعدها لرعاية شؤون عائلتها، ثمّ للعمل بالخدمة في البيوت، وهي تعيش حياة مترعة

twitter @baghdad_library

بالإحباط، والقهر، وبالاغتراب الكامل. كيف يمكن امرأةً كهذه أن تتكلّم؟ كيف تعبّر عن أشواقها وعذاباتها؟ الإجابة بالطبع هي: بلغتها الخاصّة. وقد اجترحت موريسون هذه المعجزة بشكل لا يمكن إلاَّ أن يستوقف النّظر. ولكن كيف يمكنك أنت أن تنقل كلامها إلى اللّغة العربيّة وعبر أيّ نسيج ومن خلال أيّ المفردات؟ لقد حاولت الإجابة بدوري على هذا السّؤال، وأتمنّى أن يرضى القارئ عن الصيغة الّتي وصلت إليها. لكنّنا هنا أمام موقف يبرّر ما قلته مراراً وتكراراً من أنّ المكافأة الحقيقيّة الّتي يتوّج بها أيّ مترجم جهده هي ألاَّ يُوَجَّه إليه اللّوم وألاَّ يُكال له الانتقاد.

٢ ـ في اعتقادي أنّ الرّواية الماثلة بين يدي القارئ تنتهي في السّطر الأخير من الحوار بين الصديقتين، في الصّفحات الأخيرة من الكتاب. ولكن موريسون تمضي بنا عدّة صفحات بعد هذه النهاية المنطقيّة تماماً والمُحْكَمة. قد يقول قائل إنّ موريسون في هذه الصّفحات الّتي أراها «زائدة» تحدّثنا عن تفاصيل مهمّة وتطلعنا على المصير الختاميّ للشخوص، وغير ذلك، ولكنّني أتصوّر أنّ هذا كلّه تناهى إلينا بشكل أو بآخر في مطالع العمل وتضاعيفه، وإذا جاز لي التّشبيه فإنّ كلّ ما بعد نهاية الحوار في هذه الرّواية يشبه نوبة إغماء تصيب بعض المشاهدات، بعد أن ينتهي عرض مسرحيّة تراجيديّة في ملعب إغريقيّ.

٣ ـ كتب الكثير عن الواقعيّة السحريّة عند موريسون، ولكننا سنعاني في هذا العمل من مصدرين للصعوبة في تلمُّس هذا البعد:

أ ـ المصدر الأوّل: أنّنا هنا بإزاء تجلّيات أولى لهذا الاتّجاه عند

موريسون. فقد نلمحه مثلاً في صورة الفتاة الّتي تحملها الرّياح العاصفة بينما هي واقفة على حالها كما في مستهلّ اللّقاء معها، ولكنّنا لن نجده نسيجاً ممتدّاً نراه ونلمسه ونحسّه كخطوط منتصف الطّريق.

ب ـ المصدر الثّاني: أنّنا تعوّدنا أن نفهم ونفسّر ونتحدّث عن الواقعيّة السحريّة على نحو ما كُتبت في أمريكا اللاّتينيّة، وبالتحديد على نحو ما كتبها جابرييل جارسيا ماركيز. والحال أنّ هذا الشّكل ليس الوحيد الّذي كُتبت به الواقعيّة السحريّة، وربّما ليس الأكثر قدرة على استقطابنا والاقتراب منّا، وإن كان الأكثر شهرة.

٤ ـ ربّما كان أهمّ ما في العمل الماثل بين أيدينا هو ذلك المناخ الكابوسي، ذلك الفقر المادّي والمعنويّ الّذي يستحيل إلى سقف ضاغط على الرّؤوس والأرواح معاً، ذلك القهر الآخذ بالأعناق، والعجز المطلق عن الانعتاق من قبضة الوحشيّة. وما يثير الاهتمام هنا هو أنّ هذا المناخ الّذي يستحيل فيه الحبّ إلى اغتصاب، والتمنّي إلى جنون، هو أقرب إلى نسيج الحياة في عالمنا العربي ممّا نتصوَّر. إنّه الشّبح الرّهيب الّذي نخشاه بعيداً عند الأفق، فإذا بنا نلمسه لمس اليد.

٥ ـ ربّما كان الزّمن عند موريسون بعامّة، وفي «جاز» و«أكثر العيون زرقة» بخاصّة، من الأبعاد الجديرة بالاهتمام والدّراسة، في ضوء الطّبيعة المراوغة والمتقلّبة والمدهشة؛ فأنت أمام سلاسل من «الفلاش باك» تتداخل، وتتعقّد بلا حدود. يلتبس الآن بالماضي، ويكتسي المستقبل بوشاح الغموض. ومن المؤكّد أنّه ليس من قبيل

twitter @baghdad_library

الصدفة أن تكون موريسون نفسها هي الّتي قالت: «لا أستطيع تغيير المستقبل، إلاّ أنّني أستطيع أن أغيّر الماضي».

٦ ـ هذا الإلحاح الشديد على القبح، وعلى استسلام الأبطال له، وتأكيد أنّ قبح البدن ترك ليغزو الرّوح، من خلال الاستسلام له، ومن خلال القبول بالأسطورة السّائدة عن الجمال. ويصل ذلك كلّه إلى منعطفات بالغة الخطورة، عندما تسقط إحدى أسنان السيّدة بريدلوف، مثلاً، فيسقط معها حلمها بحياة إنسانيّة، ويصل إلى القمّة مع أمنية بيكولا الرّاحلة إلى الجنون بأن تحلّق إلى سماء العينين الزّرقاوين. ولا تتردّد موريسون في تشبيه القبح بعباءات أعطيت لآل بريدلوف ليرتدوها، فأذعنوا، دونما تساؤل، وتصرّفوا جميعاً انطلاقاً من هذا الاقتناع بالقبح، وإن اختلفت سُبُلهم. والسّؤال الكبير هو: لماذا؟

إنّ علامة الاستفهام هذه هي الّتي ستقودنا بالذّات إلى محطّتنا الثّالثة والأخيرة هنا، والمتعلّقة بالبياض والخيال الأدبي الأمريكي على نحو ما تتصوّر توني موريسون العلاقة بينهما.

تلفت موريسون نظرنا في كتابها «اللّعب في الظّلام: البياض والخيال الأدبي» إلى أنّه حتّى وقت قريب للغاية، وبغضّ النّظر عن الانتماء العرقي للمؤلّف، فإنّ قرّاء الأدب الرّوائي الأمريكي بأسره قد نُظر إليهم على أنّهم من البيض، والمرء يعرف أنّ البطل، في هذه الرّواية أو تلك، من البيض لأنّه ما من أحد يقول ذلك، وكأنّه أمر بديهي لا يُقال.

ربّما لهذا، بالضبط، تعترض موريسون على «الإيماءة الرّشيقة،

بل الكريمة المتحرِّرة المتمثِّلة في تجاهل العرق». والطّريف أنّها لا تقول بالطّبع شيئاً صريحاً عن العرق الّذي ينتمي إليه قرّاء أعمالها، ولكن ذلك شيء مختلف عن التّجاهل.

والمشكلة في طرح موريسون لهذا الموضوع لا تتمثّل، كما يشير البعض، في أنّه جزئيّ، ومتّسم بالحنق والغضب، وإنّما في أنّه شديد العموميّة، إلى حدّ الابتعاد عن التعيُّن، فضلاً عن أنّ الكثير من مواضعه يعكس التّفكير بالتمنّي بأكثر ممّا يجسّد التّحليل العميق.

تقول موريسون في ختام كتابها: «إنّنا جميعاً يُحجب عنّا الكثير، ونحرم منه، عندما يظلّ النّقد أكثر تهذيباً، أو أشدّ خوفاً، من أن يلاحظ الظّلام المثير للقلق أمام عينيه».

وربّما كانت المأساة الحقيقيّة أنّ هذا الظّلام أوسع نطاقاً، وأشدّ إيغالاً، وأكثر عمقاً، ممّا يتصوّر الكثيرون.

وبعد فهذا كتاب رشيق في صفحاته، عاصف في مضمونه، يقطع بنا شوطاً بعيداً في الإطلال على آفاق أدبيّة رحبة، جديرة بأن نعرفها عن قرب أكبر، وبعمق أشدّ، وبنظرة قادرة على الرّصد والتّحليل والفهم. ولعلّه لا يكون اللّقاء الأخير للقارئ العربي مع مؤلّفته.

twitter @baghdad_library

ها هي الدّار، خضراء وبيضاء، ولها باب أحمر، وجميلة للغاية. ها هي الأسرة. الأمّ، والأب الّذي يُدعى ديك، وجين يقيمون في الدّار. إنّهم سعداء للغاية. انظروا إلى جين! إنّها ترتدي ثوباً أحمر، وهي تريد أن تلعب. من سيلعب مع جين؟ انظروا إلى القطّة. إنّها تنطلق في المواء. تعالي والعبي! تعالي والعبي مع جين! القطيطة لن تلعب. انظروا إلى الأم! إنّها لطيفة للغاية. هل ستلعب الأم مع جين؟ إنّها تضحك. تضحك. الأمّ، تضحك. انظروا إلى الأب! إنّه ضخم وقويّ. هل سيلعب الأب مع جين؟ إنّه يبتسم. انظروا إلى الكلب! إنّه ينطلق بالنّباح. أتريد اللّعب مع جين؟ انظروا إلى الكلب وهو يعدو! انطلقْ عَدْواً، أيّها الكلب! انطلقْ! انظروا! انظروا! ها هي صديقةٌ تُقْبِل. لسوف تلعب مع جين. لسوف تلعبان لعبة لطيفة. العبي، يا جين، العبي!

ها هي الدّار، خضراء وبيضاء، ولها باب أحمر، وجميلة للغاية. ها هي الأسرة. الأمّ، والأب الّذي يُدعى ديك، وجين يقيمون في الدّار. إنّهم سعداء للغاية. انظروا إلى جين! إنّها ترتدي ثوباً أحمر، وهي تريد أن تلعب. من سيلعب مع جين؟ انظروا إلى القطّة. إنّها تنطلق في المواء. تعالي والعبي! تعالي والعبي مع جين! القطيطة لن تلعب. انظروا إلى الأم! إنّها لطيفة للغاية. هل ستلعب الأم مع جين؟ إنّها تضحك. تضحك. الأمّ، تضحك. انظروا إلى الأب! إنّه ضخم

twitter @baghdad_library

وقويّ. هل سيلعب الأب مع جين؟ إنّه يبتسم. انظروا إلى الكلب! إنّه ينطلق بالنّباح. أتريد اللّعب مع جين؟ انظروا إلى الكلب وهو يعدو! انطلقْ عَدْواً، أيّها الكلب! انطلقْ! انظروا! انظروا! ها هي صديقةٌ تُقْبِل. لسوف تلعب مع جين. لسوف تلعبان لعبة لطيفة. العبي، يا جين، العبي!

ها هي الدّار خضراء وبيضاء ولها بابأحمر وجميلتللغايتها هي الأسرتالأمّوالأبالّذييُدعيديكو جينيقيمونفي الدّار. إنَّهم سعداء والأ بالذبيد عيديكوجدينقيمونفي الدار إنهمسعداء للغايتانظروا إليجينإنها ترتديثوباً أحمر وهيتنطلقفي الموار تعاليوالعبيتعاليتعالي تعاليوالعبيمعجينا القطيطة لنتلعبانظروا اليلأمتضحكانظروا إليالأبا نهضخموقويهلسيلعبالأ بمعجينانظروا إليالكلب وهو يعدو انطلقعدواأيها الكلبانطلقانظروانظروا ها هيصديقة لهالسوفتلعبمعجينلسوفتلعبانلعبت لطيفتالعبيياجينالعبي(*)

على الرّغم من إبقاء الأمر طيّ الكتمان، إلاَّ أنّه لم تكن هناك نباتات قطيفة في خريف العام ١٩٤١ وقد حسبنا أنّ نباتات القطيفة لم تَنْمُ لأنّ بيكولا كانت حاملاً لجنين من صلب أبيها. وكان من شأن قليل من الفحص وقدر أقلّ كثيراً من الكآبة أن يبرهنا لنا على أنّ بذورنا لم تكن البذور الوحيدة الّتي لم تنبت، فلم تبنت بذور أحد، بل إنّ الحدائق المطلّة على البحيرة لم تنبت فيها نباتات القطيفة في ذلك العام. ولكنّنا كنّا شديدي الاهتمام بصحة وليد بيكولا وولادته بسلام، بحيث لم يكن بمقدورنا التّفكير في شيء إلاَّ في سحرنا: لو

(*) كذا في الأصل.

أنّنا غرسنا البذور، وقلنا الكلمات المناسبة فوقها، لبرعمت، ولغدا كلّ شيء على ما يرام.

وقد مرّ وقت طويل قبل أن أعترف وأختي لنفسينا بأنّه ما من خضرة ستنبت من بذورنا. وما إن عرفنا حتّى لم يعد يخفِّف من شعورنا بالذنب إلاَّ المشاجرات وتبادل الاتّهامات حول من يقع على كاهله اللّوم. وعلى امتداد سنوات حسبت أنّ أختي على حقّ، وأنّ الخطأ من صنعي. كنت قد غرستها على عمق أكبر ممّا ينبغي في التّربة. ولم يخطر لأيّ منّا أنّ التّربة نفسها ربّما كانت مجدبة. كنّا قد أسقطنا بذورنا في بقعتنا الصّغيرة من التّربة السّوداء، كما أسقط والد بيكولا بذاره في بقعته من التّربة السّوداء. ولم يكن براءتنا وإيماننا أكثر إخصاباً من شهوته ويأسه. أمَّا ما هو واضح الآن فهو أنّه من كلّ ذلك الأمل والخوف والشّهوة والحبّ والحزن لم تبقَ إلاَّ بيكولا والتّربة المجدبة. لقد مات تشوللّي بريدلوف، وكذلك براءتنا. وذَوَت البذور وماتت، وكذلك وليدها أيضاً.

ليس هناك حقّاً المزيد ممّا يُقال، باستثناء «لماذا؟». ولكن بما أنّه من الصّعب التّعامل مع «لماذا؟»، فإنّ على المرء أن يلوذ بـ «كيف»؟

twitter @baghdad_library

الخـريفـ

twitter @baghdad_library

تمضي الرّاهبات عابراتٍ بهدوء كالشهوة، ويغنّي السّكارى والعيون الّتي نفضت عنها السكر في بهو فندق «جريك». وتجلس روزماري ڤيلانوتشي، صديقتنا وجارتنا الّتي تقيم فوق مقهى أبيها، في سيّارة من طراز بويك ١٩٣٩ وهي تأكل الخبز المدهون بالزّبد. وتخفض زجاج النّافذة لتخبرني وأختي فريدا أنّه ليس بمقدورنا الرّكوب معها. نحدّق فيها، وقد أردنا التهام خبزها، ولكنّنا أردنا على نحو يتجاوز ذلك أن ننتزع الصّلف من عينيها، وأن نسحق الكبرياء النّابعة من الامتلاك الّذي يصعّر خدّها الّذي تكوّر الطّعام تحته. عندما تترجّل من السيّارة سنوسعها ضرباً، ونترك آثاراً حمراء على بشرتها البيضاء، وسوف تبكي، وتسألنا عمّا إذا كنّا نرغب في أن تجتذب سروالها إلى أسفل. وسوف نقول إنّنا لا نريد ذلك؛ فلسنا ندري ما الّذي يتعيّن علينا أن نشعر به، أو نفعله، إذا ما قامت بذلك، ولكنّها عندما تسألنا نعرف أنّها تعرض علينا شيئاً ثميناً، وأنّ كبرياءنا ينبغي تأكيدها برفض قبول ما تعرضه.

بدأت الدّراسة وحصلتُ وفريدا على جوارب بنّيّة وزيت كبد الحوت. يتحدّث الكبار، بأصوات متعبة ومتوتّرة، عن شركة زيك للفحم، ويصحبوننا في المساء إلى قضبان السّكك الحديديّة، حيث نملأ غرارات من الخيش بقطع الفحم الصّغيرة المتناثرة. وفي وقت لاحق نسير إلى الدّار، متطلّعين إلى الخلف لمشاهدة شحنات الخَبَث، الّتي تنقلها الشّاحنات، وهي تُلقى وقد احمرّت لشدّة

twitter @baghdad_library

حرارتها، والدّخان يتصاعد منها، في الوادي الصّغير الضيّق، عند حافات مصنع الصّلب. تضيء النّارُ المحتضرةُ السّماءَ بوهج برتقاليّ كابي اللّون. أتلكّأ مع فريدا وراء الجميع، ونحن نحدّق في البقعة اللّونيّة الّتي يحيطها السّواد. ومن المستحيل ألاَّ نشعر بالرّجفة تهزّنا عندما تغادر أقدامنا الطّريق الحصبائي، وتغوص في العشب المجرّد من الحياة في الحقل.

دارنا عتيقة، وباردة، وخضراء اللّون. وفي اللّيل يضيء مصباح كيروسين غرفة واحدة رحبة، أمَّا الغرف الأخرى فيحكم الظّلام قبضته عليها، وتسكنها الصّراصير والفئران. والكبار لا يحادثوننا، وإنّما يصدرون لنا التّوجيهات، يصدرون الأوامر دون تقديم المعلومات. وعندما تزلّ أقدامنا، ونتعثّر، فإنّهم يلقون علينا نظرة عجلى، وإذا ما تسبّبنا في حدوث جروح أو كدمات لأنفسنا فإنّهم يسألوننا عمَّا إذا كنا من المجانين. وعندما نصاب بنوبات البرد فإنّهم يهزّون رؤوسهم باشمئزاز من افتقارنا لحسن تقدير الأمور. ويسألوننا: كيف تتوقّعون من أحد أن ينجز أي شيء إذا كنتم جميعاً مرضى؟ وليس بمقدورنا الردّ عليهم. ويتمّ علاج مرضنا بالازدراء، وبالجرعة السّوداء الفاسدة، وبزيت القندس الّذي يصيب أذهاننا بالتبلّد.

وذات يوم، بعد رحلة لجمع الفحم، وعندما سعلت بصوتٍ عالٍ من شعيبات هوائيّة امتلأت بالبلغم بالفعل، قطّبت أمّي جبينها:

ـ يا ليسوع العظيم! ارقدي في ذلك الفراش! كم مرّة يتعيّن عليَّ أن أخبرك بضرورة اعتمار شيء يحمي رأسك؟ لابدّ أنّك أكبر حمقاء

في هذه المدينة. فريدا؟ احضري بعض الخرق وسدّي ثغرات تلك النّافذة!

تعيد فريدا دسّ الخرق في ثغرات النّافذة، وأمضي متعثّرة إلى الفراش وقد غمرني شعور بالذنب والرّثاء للذات. أرقد في الفراش مرتدية ملابسي التحتيّة. يؤلم المعدن الموجود في رافعتيْ جواربي السّوداوين ساقيّ، ولكنّي لا أنزعهما، فالجوّ أكثر برداً من أن يسمح لي بالرقاد بلا جوارب. وما إن أفلح في توليد ظلٍّ من الدّفء حتّى تعوزني الجرأة على الحركة؛ إذ ثمّة مكان بارد على بعد نصف بوصة في كلّ الاتجاهات. ما من أحد يحادثني أو يسأل عن حالتي. وفي غضون ساعة أو ساعتين تُقبِل أمّي. يداها كبيرتان وخشنتان، وعندما تدهن صدري بمرهم ڤيكس فإنّني أتصلّب بفعل الألم، تستخرج ملء إصبعين منه في كلّ مرّة، وتدلّك صدري إلى أن يصيبني الدُّوار، وعندما أحدّث نفسي بأنّني سأفرغ سخطي في صرخة، تستخرج قليلاً من المرهم بسبابتها وتضعه في فمي، محدِّثة إيّاي بأنّ عليَّ ابتلاعه، وتلفّ قطعة من قماش الفلانيلة الدّافئ حول عنقي وصدري، وتتمّ تغطيتي بإحكام بألحفة ثقيلة، ويصدر لي أمر بأن أتعرّق، وهو ما يحدث على وجه السّرعة.

تصيبني، في وقت لاحق، نوبة قيء. وتقول أمّي:

ـ لِمَ تقيّأتِ على أغطية الفراش؟ أليس لديك ما يكفي من الإحساس لإبعاد رأسك عن الفراش؟ الآن، انظري ما الّذي جنيته! أتحسبين أنّني ليس لديّ وقت إلاّ لغسل ما تقيّأتِه.

ينزلق القيء من الوسادة إلى الملاءة جامعاً بين اللّونين الأخضر

twitter @baghdad_library

والرّمادي، مع نقاط من اللّون البرتقالي، ويتحرّك مثل دواخل بيضة لم تُسْلَق، متشبّثاً في عناد بكتلته، رافضاً التفرُّق والزّوال. وإنّني لأتساءل كيف يمكن أن يكون مرتّباً للغاية وكريهاً جدّاً في الوقت نفسه؟

يتواصل صوت أمّي على نحو رتيب. إنّها تحادث القيء، لكنّها تدعوه باسمي: كلوديا. تجفّفه على أفضل نحو تستطيعه، وتضع منشفة خشنة فوق الموضع الكبير المبتلّ. أعود للرقاد مجدَّداً. تسقط الخرق من صدع النّافذة؛ والهواء بارد، لا تواتيني الجرأة لمناداتها ويساورني التردّد في مغادرة موضعي الدّافئ من الفراش. يُشعرني غضب أمّي بالإذلال، وكلماتها تفرك وجنتيّ، وأنخرط في البكاء، فلست أدري أنّها ليست غاضبة عليَّ، وإنّما على مرضي، وأحسب أنّها تحتقر ضعفي؛ إذ تركت المرض «يغلبني». وشيئاً فشيئاً لن أمرض، سأرفض السّقوط مريضة. ولكنَّني في الوقت الحالي أبكي؛ إنّني أعرف أنّني أفرز المزيد من المخاط، ولكنّني لا أستطيع التوقّف.

تُقبل أختي، وعيناها مترعتان حزناً. تغنّي لي: «عندما يحلّ الأرجوان العميق على أسوار حدائقي النّاعسة، سيفكّر أحدهم فيَّ. .» تأخذني سِنَةٌ من النّوم، وأنا أفكّر في أشجار البرقوق، والأسوار، و«أحدهم».

ولكن هل كان الأمر على ذلك النّحو حقّاً؟ هل كان مؤلماً على نحو ما أتذكّره؟ كان مؤلماً بصورة خفيفة فحسب، أو بالأحرى كان ألماً مثمراً ومخصباً الحبّ، غليظ القوام وقاتماً كشراب «ألاجا»

العلاجي، وقد انهلّ إلى تلك النّافذة المتصدِّعة. كان بمقدوري شمّه ـ تذوّقه ـ حلواً، لاذعاً، وفي تركيبه الأساسي نبتة شاي كندا ـ كلّ شيء في تلك الدّار. لقد التصق، مع لساني، بقواعد النّوافذ المتجمِّدة، غطّى صدري مع المرهم، وعندما انفصل قماش الفلانيلة عنّي خلال نومي، حدّدت منحنيات الهواء الصّافية الحادّة الخطوط الخارجيّة لوجوده على زوري. وفي اللّيل، عندما كان سعالي جافّاً وخشناً، شقّت قدمان طريقهما على مهل إلى الغرفة، وثبّتت يدان قماش الفلانيلة مجدَّداً، وأعادتا ترتيب اللّحاف، واستقرّتا لحظةً على جبيني، ولذا فإنّني عندما أفكّر في الخريف، يحملني خاطري إلى شخص له هاتان اليدان لا يريد لي الموت.

كان الخريف يضرب أطنابه كذلك عندما أقبل السيّد هنري. مستأجر الغرفة بدارنا. مستأجر الغرفة بدارنا. انطلقت هذه الكلمات كالبالونات من الشّفاه، وحوّمت حول رؤوسنا ـ صامتة، منفصلة، وغامضة على نحو بهيج. كانت أمّي تفيض ارتياحاً ورضاً وهي تناقش أمر مجيئه.

قالت لصديقاتها:

ـ إنّه معروف لكن، فقد كان يقطن هنالك عند ديلّلا جونز في الشّارع الثّالث عشر. ولكنّها الآن أكثر تشوّشاً من أن تواصل مهامّها؛ ولذا فإنّه يبحث عن مكان آخر.

لم تُخْفِ صديقاتها فضولهنّ:

ـ آه، نعم.

ـ كنت أتساءل إلى متى يقيم هنالك عندها. ويقولون إنّها في حالة

twitter @baghdad_library

سيّئة. فهي لا تدري نصفَ الوقت من عساه يكون، وما من أحد غيره كذلك لا ينطبق عليه هذا الوضع.

ـ طيِّب، ذلك الزّنجي العجوز المجنون زوجها لم يساعد رأسها على الاتّزان البتّة.

ـ أسمعتنَّ بما حدّث به النّاس عندما تركها؟

ـ أوه، أوه. ماذا؟

ـ طيّب، لقد هرب مع بيجي التّافهة تلك، من إليريا، كما تعرفنَ.

ـ أليست واحدة من فتيات العجوز سلاك بيسي؟

ـ بعينها. طيّب. سأله أحدهم لماذا هجر امرأة لطيفة من المتردِّدات على الكنيسة، مثل ديلّلا، من أجل تلك البقرة الصّغيرة. وكما تعرفنَ فإنّ ديلّلا ترعى شؤون بيتها على الدّوام. فقال إنّ الإجابة الحقيقيّة، الّتي أقسم على صحّتها، هي أنّه لم يعد بمقدوره تحمّل المزيد من ماء كولونيا البنفسج الّذي تستخدمه ديلّلا جونز. وقال إنّه يريد من المرأة أن تكون رائحتها كالنّساء. وقال إنّ ديلّلا أنظف ممّا ينبغي بالنسبة إليه.

ـ يا للكلب العجوز! أليس ذلك شيئاً كريهاً!

ـ أتقولين ذلك لي! أيّ نوع من المنطق المقلوب ذلك الّذي يقول به؟

ـ إنّه ليس بالمنطق، وكلّ ما هنالك أنّ بعض الرّجال كلاب.

ـ هل ذلك هو ما أصابها بالسكتة؟

ـ لابدّ أنّه كان له دخل في الأمر. ولكن، كما تعرفنَ، لم تكن أيّ من هؤلاء السيّدات على شيء من اللّماحية. هل تتذكّرنَ هاتني الباسمة تلك؟ إنّها لم تكن قطّ على ما يرام ذهنيّاً. وعمتهن جوليا

ماتزال تضرب جيئة وذهاباً في الشّارع السّادس عشر، وهي تحدّث نفسها.

ـ ألم يُودِعوها مصحّة؟

ـ كلّا. فالمقاطعة رفضت إدخالها، وقالوا إنّها لا تُلْحِق أذىً بأحد.

ـ طيّب. إنّها تُلْحِق الأذى بي. هل تُرِدْنَ شيئاً يُدخل الرّعب في نفوسكنّ. عليكنّ، إذن، بالاستيقاظ في الخامسة والنّصف، مثلي، ورؤية تلك العجوز الشّمطاء وهي تنطلق مسرعة معتمرة قبّعتها تلك. الرّحمة!

وينطلقنَ بالضحك.

أقوم وفريدا بغسل جِرار مايسون(*) لا تتناهى إلينا كلماتهنّ، ولكنّنا في حالة الكبار نُصغي إلى أصواتهم ونترقّبها.

ـ طيّب، آمل ألّا يدعني أحد أضرب ضائعة على ذلك النّحو عندما أوغِل في العمر، يا للعار!

ـ ما الّذي سيفعلونه بشأن ديلّلا؟ أليس لها أهل؟

ـ ستأتي أخت لها من نورث كارولينا للعناية بها وأتوقّع أنّها تريد أن تضع يدها على دار ديلّلا.

ـ آه، رويدك، تلك خاطرة شريرة، بقدر ما يمكن للشرّ أن يكون.

ـ ما الّذي تريدين المراهنة به؟ لقد قال هنري واشنطن إنّ تلك الأخت لم تَرَ ديلّلا منذ خمسة عشر عاماً.

ـ خطر ببالي أنّ هنري سيتزوّجها ذات يوم.

(*) جرار مايسون: أوعية زجاجيّة منزليّة كاتمة للهواء. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

ـ تلك المرأة العجوز؟

ـ طيّب، ليس هنري بابن البارحة.

ـ ليس كذلك، ولكنّه ليس بالأحمق أيضاً.

ـ هل سبق أن تزوّج على الإطلاق؟

ـ لا

ـ كيف ذلك؟ هل بترت إحداهنّ عضوه؟

ـ كلّ ما هنالك أنّه صعب الإرضاء؟

ـ إنّه ليس صعب الإرضاء. هل ترين حولك ظلّ امرأة يمكنه الزّواج منها؟

ـ طيّب. لا

ـ كلّ ما في الأمر أنّه عاقل. عامل دؤوب، هادئ الطّباع. آمل أن يمضي كلّ شيء على ما يرام.

ـ سيمضي على هذا النّحو. كم تتقاضين؟

ـ خمسة دولارات كلّ أسبوعين.

ـ سيكون ذلك عوناً كبيراً لك.

ـ سأوافقك على ذلك.

يبدو حوارهنّ كرقصة خبيثة، هادئة الإيقاع: الصّوت يلتقي بالصوت، وكذا انحناءات التّوقير، وهزّات الأوراك والأكتاف، والتّراجعات. يدخل صوتٌ الحلبةَ، ولكنّ صوتاً آخر يعلو عليه، يدور كلّ منهما حول الآخر ويتوقّف. وفي بعض الأحيان تتحرّك كلماتهنّ في دوائر لولبيّة متشامخة، وتتقافز في أحيان أخرى قفزات عملاقة، ويرقّشها جميعها ضحك دافئ النّبض مثل نبض قلب مصنوع من الهلام، وتبدو على الدّوام واضحة بالنسبة لي ولفريدا حافةُ

انفعالاتهنّ وانعطافتها واندفاعة توغّلها. ولسنا نعرف معاني كلّ كلماتهنّ، فليس ذلك بمقدورنا، فنحن في التّاسعة والعاشرة من العمر؛ ولذا فإنّنا نرقب وجوههنّ وأيديهنّ وأقدامهنّ ونصغي لسماع الحقيقة في جرس أصواتهنّ.

ولذا فإنّه عندما وصل السيّد هنري ذات ليلة سبت رحنا نتشمّمه، وقد بدت رائحته رائعة، تشبه رائحة الأشجار وكريم اللّيمون المتطاير وزيت شعر «نونايل» وذرّات من حلوى السّين ـ سين.

ابتسم كثيراً، مفترّاً عن أسنان صغيرة متماثلة مع وجود هوّة وَدودة في الوسط. ولم يتمّ تقديمي وفريدا له، إذ جرت الإشارة إلينا فحسب، كالقول: ها هنا الحمّام وخزانة الملابس وهاتان طفلتاي، فريدا وكلوديا، واحذرْ هذه النّافذة، فهي لا تفتح على كامل اتّساعها.

اختلسنا النّظر إليه، دون أن نتفوّه بكلمة، ولم نتوقّع منه أن يقول شيئاً، وإنّما مجرّد إيماءة، على نحو ما فعل لدى الإشارة إلى خزانة الثّياب، بما يفيد بعلمه بأمر وجودنا. ولدهشتنا فقد بادر بمحادثتنا:

ـ مرحباً! لابدّ أنّك جريتا جاربو، وأنت من المحتّم أنّك جنجر روجرز.

قهقهنا عالياً، بل إنّ أبي فوجئ، إلى حدٍّ دفعه للابتسام.

ـ أتريدان سنتاً؟

قالها السيّد هنري ممسكاً لنا بقطعة معدنيّة متألّقة. حَنَتْ فريدا رأسها، وقد غلبها سرور حال دون ردّها. مددت يدي للحصول على السّنت. فرقع بإصبعيه السبابة والإبهام، واختفى السّنت. زُركشت

twitter @baghdad_library

دهشتنا بالبهجة، ورحنا نفتّشه، دافعتين بأصابعنا في جواربه، مطلّتين داخل ظهر معطفه. وإذا كانت السّعادة هي التوقّع مع التيقّن فإنّنا كنّا سعيدتين، وبينما رحنا ننتظر أن يعاود السّنت الظهور، كنّا نعرف أنّنا مصدر تسلية لأمّي وأبي، فقد كان أبي يبتسم، وارتسمت الرقّة في عيني أمّي، وهما تتابعان أيدينا، وهي تتجوّل فوق جسم السيّد هنري.

أحببناه، حتّى بعد الّذي حدث عقب ذلك، ولم تكن هناك مرارة في ذكرياتنا عنه.

رقدت في الفراش معنا. رقدت فريدا على الجانب الخارجي، لأنّها شجاعة، ولم يخطر ببالها قطّ أنّها إذا تدلّت يدها خلال نومها عبر حافة الفراش فإنّ «شيئاً» سيزحف من تحته، ويقضم أصابعها. أمّا أنا فإنّني أرقد قرب الحائط لأنّ هذه الفكرة قد خطرت ببالي. ومن هنا فقد اضطرت بيكولا للرقاد في الوسط.

كانت أمّي قد أبلغتنا، قبل يومين، أنّ هناك «حالة» على وشك المجيء، بنت ليس لها مكان تلجأ إليه. وقد أودعتها سلطات المقاطعة في دارنا لعدّة أيام إلى أن يكون بوسعها تقرير ما يمكن القيام به، أو على نحو أكثر دقّة إلى أن يلتئم شمل الأسرة مجدّداً. وكان علينا أن نكون لطيفتين وألاّ نتشاجر معها. قالت أمّي إنّها لا تدري «ما الّذي أصاب النّاس» ولكن ذلك الكلب العجوز بريدلوف قد أحرق داره وتصادم مع زوجته، وبسبب ذلك تشرّد الجميع.

كان التشرّد، كما كنّا نعرف، هو مصدر الرّعب الحقيقي في الحياة. وقد طفا على السّطح بصورة متكرّرة في تلك الأيّام خطر

التشرّد، وقضى على كلّ احتمال للتزيّد والتجاوز. فإذا أكل أحدهم أكثر ممّا ينبغي فإنّ الأمر يمكن أن ينتهي به إلى التشرّد. وإذا استخدم أحدهم أكثر ممّا ينبغي من الفحم فإنّ مآله قد يكون التشرّد. وبمقدور النّاس المقامرة إلى أن ينتهي بهم الحال إلى التشرّد، أو السّكر حتّى التشرّد. وفي بعض الأحيان تدفع الأمّهات أبناءهم إلى التشرّد، وعندما كان ذلك يحدث، فإنّ التّعاطف يصبح من نصيب الابن بغضّ النّظر عمّا جناه. التشرّد من نصيبه، وهو ما جنته يداه. والطّرد على يد المالك هو أمر تعس، ولكنّه جانب من الحياة لا سيطرة لك عليه، لأنّه ليس بمقدورك السّيطرة على دخلك. ولكن أن تكون من الإهمال بحيث تصل بنفسك إلى التشرّد، أو تكون من غلاظة القلب بحيث تشرّد أقاربك فذلك أمر يصل إلى حدّ الإجرام.

وهناك فارق بين أن يُطرد المرء وأن يُشرّد، فإذا ما طُردتَ فإنّ بمقدورك الذّهاب إلى مكان آخر، أمَّا إذا كنت مشرَّداً فما من مكان يمكنك الذّهاب إليه. وقد كان التّمييز بين الأمرين دقيقاً ولكنّه نهائي. كان التشرّد نهاية شيء ما، وحقيقة عضويّة لا سبيل إلى نقضها، تحدّد وضعنا الميتافيزيقي وتكمله. ولمّا كنّا أقلّية في كلّ من العِرْق والطّبقة فقد تحرّكنا، على أيّة حال، على حافة الحياة، مكافحين من أجل شدّ أرز ضعفنا والاستمرار، أو الزّحف فرادى صُعُداً إلى الطيّات العليا في الثّوب. غير أنّ وجودنا الهامشيّ كان شيئاً تعلّمنا التّعامل معه، ربّما لأنّه كان عبثيّاً. ولكنّ تعيُّن الوجود في رحاب التشرّد كان شيئاً آخر، كالفارق بين مفهوم الموت وبين أن يكون المرء ميتاً في حقيقة الأمر. الميت لا يتغيّر، والتشرّد حين يحلّ فإنّه لا يَريم.

twitter @baghdad_library

وقد ولّدت معرفتنا بوجود شيء يُدعى التشرّد جوعاً في أعماقنا إلى الملكيّة، إلى الاقتناء. الامتلاك الثّابت لفناء، لرواق، لكرمة. والمُلاّك من السّود ينفقون كلّ طاقاتهم، وكلّ حبّهم على أعشاشهم. وشأن الطّيور المتوتّرة اليائسة يبالغون في تزيين كلّ شيء، ويُخدثون ضجيجاً واضطراباً بشأن بيوتهم الّتي كدّوا لامتلاكها، ويعكفون على التّعليب والتّحويل إلى هلام والحفظ طوال الصّيف لملء الخزائن والرّفوف، وهم يقومون بالطلاء ويعكفون على البحث والتّنقيب في كلّ ركن من أركان دُورهم، وهذه الدُّور تتألّق مثل زهور عبّاد الشّمس المزروعة في صوبة زجاجيّة وسط صفوف من الأعشاب هي الدُّور المستأجَرة. ويلقي السّود الّذين يسكنون في بيوت مستأجَرة نظراتٍ مختلسةً على تلك الأفنية والأروقة المملوكة، ويعاهدون أنفسهم على نحو أقوى بأن يشتروا لأنفسهم «مكاناً قديماً، صغيراً، لطيفاً». وفي غضون ذلك يكونون قد وفّروا، واقتنوا وراكموا في أكواخهم المستأجَرة ما يستطيعونه، متطلّعين إلى يوم الملكيّة.

كان تشولّلي بريدلوف، وهو آنذاك من السّود المقيمين في دار مستأجَرة، وبعد أن أسلم أسرته للتشرّد، قد أسلم نفسه إلى ما يتجاوز الاعتبار الإنساني، ولحق بالحيوانات، وكان حقّاً كلباً عجوزاً، ثعباناً، زنجيّاً خسيساً. وكانت السيّدة بريدلوف تقيم مع المرأة الّتي تعمل لديها. وأمّا الفتى، سامي، فيقيم مع عائلة أخرى. وقد تقرّر أن تقيم بيكولا معنا، بينما كان تشولّلي في السجن.

لم تأتِ حاملةً شيئاً معها، لا كيساً ورقيّاً صغيراً يضمّ الثّوب الآخر، أو منامة، أو طقمين من الملابس القطنيّة المبيّضة المزدوجة. وإنّما أقبلت مع امرأة بيضاء، وجلست.

قضينا وقتاً ممتعاً في تلك الأيّام القليلة الّتي مكثتها بيكولا معنا. توقّفتُ وفريدا عن العراك إحدانا مع الأخرى، وركّزنا على ضيفتنا، باذلتين قصارى جهدنا للحيلولة دون شعورها بالتشرّد.

وعندما اكتشفنا أنّها لا تريد على نحوٍ جليّ أن تسيطر علينا، أحببناها، وكانت تضحك عندما نهرّج لإسعادها، وتبتسم. وتتقبّل برشاقة هدايا الأطعمة الّتي كانت أختي تقدّمها لها.

ـ هل تحبّين تناول بعض بسكويت جراهام الجافّ؟

ـ لابأس.

أحضرت لها فريدا أربع بسكويتات جراهام على طبق صغير وبعض الحليب في قدح يحمل صورة شيرلي تمبل باللّونين الأزرق والأبيض. أمضت وقتاً طويلاً في ارتشاف الحليب، وحدّقت بشغف في صورة وجه شيرلي تمبل ذي الغمّازتين، وامتدّ حوارٍ وَدود بينها وبين فريدا عن مدى ظرف شيرلي تمبل. ولم يكنْ بمقدوري المشاركة في ولعهما بها لأنّني أكرهها، لا لأنّها ظريفة، وإنّما لأنّها كانت تراقص بوجانجلز الّذي كان صديقي، وعمّي، وأبي، والّذي كان ينبغي أن يأخذ ذلك في الاعتبار وينهمك في حديث ضاحك معي، وبدلاً من ذلك كان يستمتع ويشارك وينهمك في رقصة جميلة مع إحدى تلك الفتيات البيضاوات الصّغيرات اللّواتي لا تنزلق جواربهنّ قطّ إلى كواحلهنّ. ولذا قلت:

ـ إنّني أحبّ جين ويزرس.

رمقتاني بنظرة ملؤها الحيرة، ووصلتا إلى أنّني مخلوق يستعصي فهمه، وواصلتا حديثهما الشيّق عن شيرلي تمبل العجوز الحولاء.

twitter @baghdad_library

كنت أصغر من فريدا وبيكولا كلتيهما، ولم أكن قد وصلت بعد في نموّي النّفسي إلى نقطة التحوّل الّتي من شأنها أن تسمح لي بحبّ شيرلي تمبل. وكان ما استشعرته في ذلك الوقت كراهيةً لا سبيل إلى التّخفيف من حدّتها، ولكنَّني قبل ذلك شعرت بشيء أكثر غرابة وأدعى للخوف من كراهية كلّ من يُماثلنَ شيرلي تمبل في العالم بأسره.

كان الأمر قد بدأ بعيد الميلاد وهدايا الدّمى. كانت الهديّة الكبيرة والخاصّة والمترعة بالحبّ هي على الدّوام دمية تمثّل طفلة كبيرة الحجم زرقاء العينين. ومن أصوات الكبار الشّبيهة بالقَرْق علمت أنّ الدّمية قد مثّلت ما حسبوا أنّه أعزّ أمنياتي. بدا لي الشيء ذاته بمظهره الخاصّ شيئاً طريفاً. ما الّذي كان يفترض أن أفعله بالدمية؟ أتظاهر بأنّني أمّها؟ لم يكن لي اهتمام بالأطفال الصّغار أو بمفهوم الأمومة، وإنّما كنت مهتمّة بالبشر ممّن هم في مثل عمري وحجمي فحسب، ولم أستطع توليد أيّ حماس لاحتمال كوني أمّاً؛ فالأمومة هي الإيغال في العمر واحتمالات بعيدة أخرى. غير أنّني تعلّمت سريعاً ما كان يتوقّع منّي أن أقوم به حيال الدّمية: أن أُهَدْهِدَها، وأختلق مواقف في هيئة قصص تُروى عنها، بل وأنام معها. فقد كانت الكتب المصوَّرة مليئة بالبنات الصّغيرات الرّاقدات مع دماهنّ. وعادةً ما تكون دمى شعثاء الشّعر ممّا يطلق عليه اسم «آن»، ولكنّها كانت مُستبعَدة تماماً؛ فقد أثارت اشمئزازي على الصعيد العضوي، وأخافتني في قرارة نفسي هاتان العينان البلهاوان المستديرتان والوجه الّذي يشبه الفطيرة والشّعر الّذي يحاكي ديداناً برتقاليّة اللّون.

وكان يفترض أن تُدْخِل الدّمى الأخرى سروراً هائلاً على نفسي،

وقد أفلحتْ في إحداث العكس تماماً، وعندما مضيت بها إلى الفراش قاومتْ أطرافها الصّلبة، الّتي لا تلين، لحمي، وأحدثت أطراف الأصابع المستدقّة الممتدّة من تلك الأيدي ذات النّقرات خدوشاً. ولدى تقلّبي كان الرّأس البارد كالعظام يرتطم برأسي. كانت رفيق الرّقاد الأكثر إزعاجاً ووضوحاً في العدوانيّة. ولم يعد إمساكها شيئاً طريفاً؛ فالشّاش أو القماش المخرّم المنسدل على الثّوب القطني كان من شأنه مضايقة كلّ من يحتضنها. ولم تكن لديّ إلاَّ رغبة واحدة، هي أن أمزّقها تمزيقاً، وأن أتبيّن ممّ صُنعت، وأن أكتشف الجاذبيّة، وأن أعثر على الجمال، مصدر كونها مرغوباً فيها، هذا المصدر الّذي أفلت منّي، ولكنّه أفلت منّي وحدي، فيما يبدو، فقد أجمع الكبار، والبنات الأكبر سناً، والمتاجر، والمجلّات، والصّحف، ولافتات واجهات العرض، والعالم كلّه على أنّ الدّمية الزّرقاء العينين الشّقراء الشّعر الورديّة البشرة هي ما تَعُدُّه كلّ بنت كنزاً. يقولون: «انظري هاهنا. هذه جميلة، وإذا كنتِ في ذلك اليوم جديرة بها فسوف تحصلين عليها». رحت أتلمّس بأصابعي الوجه، مندهشة من الحاجبين المرسومين بضربة فرشاة واحدة، وتلمّست الأسنان اللّؤلؤيّة الملتصقة كمفتاحيْ بيانو بين الشّفتين الحمراوين المقوّستين. تتبّعت الأنف الشّامخ، دفعت للداخل العينين الزّجاجيّتين الزّرقاوين، ولويت الشّعر الأشقر. لم أستطع أن أحبّ الدّمية، ولكنّني كان بمقدوري فحصها لتبيُّن ما قال العالم كلّه إنّه جدير بالحبّ. أحطّم الأصابع الصغيرة، أثني القدم المسطّحة، أفكّ الشّعر، ألوي الرأس ليّاً، فيصدر عن الشيء صوت واحد ـ صوت قالوا إنّه صيحة «ماما» العذبة الحزينة ولكنّها بدت لي شبيهة بثُغاء

twitter @baghdad_library

حَمَل يُحتضَر، أو على نحو أكثر دقّة شبيهة بصوت ثلاّجتنا وهي تنفتح على مفصّلات صدئة في شهر تمّوز (يوليو). أنزع العين الباردة البلهاء، وتظلّ تثغو «آه ه ه ه ه». أنزع الرّأس، وأهزّ نشارة الخشب، ألطم الظّهر على حاجز السّرير النّحاسي، ويتواصل الثُّغاء. ينشقّ الظهر الشّاشي، وأتمكّن من رؤية القرص ذي الثّقوب الستّة، وهو السرّ الكامن وراء الصّوت، مجرّد كتلة معدنيّة دائريّة.

قطّب الكبار. وقلبوا الدّنيا: «ليس ـ بمقدورك ـ المحافظة ـ على ـ أيّ ـ شيء ـ لم ـ يسبق ـ أن ـ كانت ـ لي ـ في ـ حياتي ـ بأسرها ـ دمية ـ على ـ شكل ـ طفلة ـ واعتدتِ ـ البكاء ـ من ـ أجلها ـ والآن ـ حصلتِ ـ على ـ دمية ـ جميلة ـ فإذا ـ بكِ ـ تمزّقينها ـ ماذا ـ دهاكِ؟».

ما كان أشدّ حنقهم! هدّدت الدّموع بإزالة تحفّظ سلطتهم. تردّد انفعالُ سنواتٍ من الحنين الّذي لم يُقَدَّر له التحقُّق في أصواتهم. ولم أدرِ السرّ في قيامي بإتلاف تلك الدّمى. ولكنّني عرفت أنّ أحداً لم يسألني عمّا أريده كهديّة في عيد الميلاد. ولو أنّ أحد الكبار ممّن يملكون سلطة تحقيق رغباتي قد حملني على محمل الجدّ، وسألني عمّا أريده، لعرفوا أنّني لم أرد امتلاك أو اقتناء أيّ شيء، وإنّما أردت بالأحرى أن أشعر بشيء في يوم عيد الميلاد. وكان حريّاً بالسؤال الحقيقي أن يكون: «عزيزتي كلوديا، ما هي التجربة الّتي تحبّينها في يوم عيد الميلاد؟» وكان حريّاً بي أن أتحدّث على النّحو التالي: «إنّني أودّ الجلوس على المقعد المنخفض في مطبخ ماما الكبيرة، وحِجْري مملوء بزهور اللّيلك، والإصغاء لبابا الكبير وهو يعزف على الكمان لي وحدي». انخفاض الكرسي المصنوع ليناسب جسمي، الأمان

والدّفء المشعّان من مطبخ ماما الكبيرة، رائحة زهور اللّيلك، صوت الموسيقى، وبما أنّه سيكون أمراً طيّباً أن يتمّ شَغْلُ الحواسّ كلّها، فربّما تمّ الاستمتاع بمذاق الخوخ فيما بعد.

وبدلاً من ذلك تذوّقت، وشممت، الطّعم اللّاذع للأطباق والأكواب المصنوعة من الصّفيح والمخصّصة لحفلات الشّاي الّتي أثارت ضجري. بدلاً من ذلك تطلّعت كارهة إلى الملابس الجديدة الّتي تقتضي حمّاماً كريهاً في حوض من الزّنك المجلفن، دون أن يتاح وقت للعبث أو المكوث في الماء، لأنّه يبرد بسرعة بالغة، وما من وقت للاستمتاع بعُري المرء، فالوقت الوحيد المتاح هو وقت لجعل ستائر من الماء المثقل بالصابون تنزلق منظّفة ما بين السّاقين، ثمّ المناشف الّتي تخدش الجلد والغياب الفظيع والباعث على الشّعور بالمذلّة للقذارة، والنّظافة المضجّرة الّتي لا تُعقل، وزوال آثار الحبر على السّيقان والوجه، وتبدُّد كلّ إبداعاتي وما راكمته طوال اليوم لتحلّ محلّها قشعريرة باردة.

لقد هشّمت الدّمى الّتي تشبه أطفالاً صغاراً من البِيض.

ولكن تفكيك الدّمى إلى قطع متناثرة لم يكن الرّعب الحقيقي؛ فقد كان الشيء المرعب بصورة حقيقيّة هو تحويل هذه الدّوافع نفسها إلى بنات صغيرات بيضاوات. ولم تهزّ اللّامبالاة الّتي كان بمقدوري القيام بها بتقطيع أوصالهنّ إلاّ رغبتي في إنجاز ذلك، اكتشاف ما راوغني: سرّ السّحر الّذي ينسجن شباكه على الآخرين، ما الّذي يجعل النّاس يتطلّعون إليهنّ ويقولون: «آووووو» ولكنّهم لا يتطلّعون إليّ؟ العين تنزلق عن النّساء السّود فيما هنّ يقتربن منهم في الشّارع والرّقّة الاستحواذيّة للمستهم فيما هم يلاطفنهنّ.

twitter @baghdad_library

ولو أنّني ضغطتُ عليهنّ بصورة موجهة لأغمضنَ عيونهنّ ألماً على خلاف البريق المجنون في عيون الدّمى المصنوعة على شكل أطفال صغار ـ ولن تكون صيحتهنّ شبيهة بصوت باب ثلاّجة، وإنّما صيحة ألم تخلب اللّب. وعندما تعلّمت كم هو مثير للاشمئزاز هذا العنف المجرّد من الاهتمام، وأنّه مثير للاشمئزاز لأنّه يخلو من الاهتمام، تخبّط شعوري بالعار باحثاً عن ملاذ. وكان الحبّ هو خير ملاذ. وهكذا جاء التحوّل من الساديّة الأصليّة إلى الكراهية المصطنعة إلى الحبّ المخاتل. كانت خطوة قصيرة للوصول إلى شيرلي تمبل، وقد تعلّمت بعد ذلك بوقت طويل أن أحبّها إلى حدّ العبادة، تماماً كما تعلّمت الابتهاج بالنّظافة، وعرفت، حتّى في غمرة تعلّمي، أنّ التغيّر هو أن يتكيّف المرء دون أن يتحسّن.

ـ ثلاثة أرباع جالون من الحليب. ذلك هو ما كان في تلك الثلاّجة بالأمس، ثلاثة أرباع جالون بكاملها. أمّا الآن فليس هناك شيء منها، ولا قطرة واحدة. لست أهتمّ بأن يجيء ناس ويحصلوا على ما يريدونه، ولكن ثلاثة أرباع جالون من الحليب! ما الّذي يحتاج أيّ شخص بحقّ الشّيطان ثلاثة أرباع جالون من الحليب من أجله؟

لم يكن «النّاس» الّذين أشارت أمّي إليهم بقولها هذا إلاّ بيكولا وقد أصغى ثلاثتنا، أنا وبيكولا وفريدا، إليها وهي تصخب في المطبخ بالطّابق الأرضي بشأن كمّيّة الحليب الّتي شربتها بيكولا وقد علمنا أنّها كانت مولعة بالقدح الّذي يحمل صورة شيرلي تمبل، وانتهزت كلّ فرصة تتاح لها لشرب الحليب منه، لمجرّد أن تلمس وجه شيرلي الجميلة وتراه. وكانت أمّي تعرف أنّني وفريدا نكره الحليب، وافترضت أنّ بيكولا قد شربته بدافع الشَّرَه. ولم يكن علينا

يقيناً أن «نعارضها» فيما ذهبت إليه، فنحن لم نكن نملك المبادرة بالحديث مع الكبار وإنّما كنا نردّ على الأسئلة الموجّهة إلينا.

وإذ خجلنا من الإهانات الّتي كانت تُهال على صديقتنا، فقد اكتفينا بالجلوس هنالك. رحت أقلّب أصابع قدمي، وعكفت فريدا على تنظيف أظافرها بأسنانها، وانطلقت بيكولا تتلمّس بإصبعها آثار جراح على ركبتها، وقد أمالت رأسها إلى جانبها. كانت مناجاة أمّي لنفسها الحافلة بالضجيج تثير على الدّوام ضيقنا وشعورنا بالكآبة؛ فقد كانت متطاولة إلى حدّ السّأم، وحافلة بالإهانات. وعلى الرّغم من أنّها كانت غير مباشرة (لم تأتِ أمّي قطّ على ذكر أيّ اسم، وإنّما تحدّثت فقط عن ناس أو بعض النّاس) إلاّ أنّها كانت مؤلمة إلى أبعد حدّ في اندفاعها، فقد كانت أمّي تستمرّ على ذلك النّحو ساعات تربط خلالها هجوماً بآخر إلى أن تفيض خارجة منها كلّ الأمور الّتي تثير أشجانها، ثمّ بعد أن تتحدّث عن الجميع وعن كلّ شيء تنطلق بالغناء وتظلّ تغنّي باقي اليوم. ولكن وقتاً طويلاً ينقضي قبل أن يحلّ الجزء الخاصّ بالغناء. وفي غضون ذلك تتقلقل معداتنا وتتّقد رقابنا، ونروح نصغي متجنّباتٍ تلاقي عيوننا، ونعبث بأطراف أصابع أقدامنا أو ما إلى ذلك.

ـ لست أدري ما الّذي يُفترض أنّني أُديره هنا، مبرّة خيريّة، فيما أظنّ. لقد حان الوقت بالنسبة إليّ للخروج من طابور العطاء ودخول طابور الأخذ. أحسب أنّني يُفترض ألاّ يكون لديّ شيء. يفترض أنّني سينتهي بي الأمر إلى ملجأ للمساكين. ويبدو أنّه ما من شيء أقوم به سيبعدني عن هناك، فالنّاس يقضون كلّ وقتهم في محاولة التوصّل إلى وسائل لإرسالي إلى ملجأ للمساكين. وما لديّ

twitter @baghdad_library

لأطعم منه فماً آخر هو مثل ما لدى القطّة من جيوب جانبيّة، كأنّما ليس لديّ ما يكفيني من عناء في محاولة إطعام أطفالي والابتعاد عن ملجأ المساكين، فالآن لديّ شيء آخر هنا سيدفعني عن طريق الشّرب إلى ذلك الملجأ. طيّب. لا، لن تدفعني إلى هناك شرباً مادام في جسمي بقيّة من قوّة ومادام لساني في فمي. هناك حدود لكلّ شيء، وليس لديّ ما ألقي به بعيداً. ما من أحد يحتاج إلى ثلاثة أرباع جالون من الحليب. هنري فورد لا يحتاج إلى ثلاثة أرباع جالون من الحليب. تلك خطيئة جليّة. إنّني على استعداد للقيام بما أستطيعه من أجل النّاس. ولا يستطيع أحد القول بأنّني لست كذلك. ولكن هذا يتعيّن أن يتوقّف، وأنا من ستوقفه. يقول الإنجيل ترقّب وصَلِّ أيضاً. النّاس يلقون عليك أطفالهم فحسب، ويمضون لشأنهم. ألا يطلّ أحد هنا لمجرّد أن يرى ما إذا كان لتلك الطّفلة رغيف خبز أم لا؟ يبدو أنّهم سيطّلعون لمجرّد رؤية ما إذا كان لديّ رغيف خبز لأعطيه لها. ولكن لا، فتلك الفكرة لا تخطر لهم على بال. وذلك العجوز التّافه تشولّلي خرج من السّجن منذ يومين كاملين، ولم يحضر إلى هنا ليتبيّن ما إذا كانت طفلته حيّة أم ميتة. وهو لا يكترث بما إذا كانت ميتة أم لا، والأمر نفسه ينطبق على تلك الماما، أيّ نوع من الأمور العجيبة ذلك الّذي يجري؟

عندما أتت أمّي على ذكر هنري فورد وكلّ أولئك النّاس الّذين لا يكترثون بما إذا كان لديها رغيف خبز أو لا، كان وقت ذهابنا قد حان، فقد رغبنا في أن يفوتنا الجزء الّذي يدور حول روزفلت ومعسكرات فيالق رعاية المدنيّين.

نهضت فريدا، وشرعت في نزول الدّرج، فحذوت وبيكولا

حذوها، وانطلقنا على هيئة قوس واسع لتجنّب مدخل المطبخ، وجلسنا على درجات الرّواق، حيث لم يكن من الممكن أن تصلنا كلمات أمّي إلاَّ في اندفاعات فجائيّة.

كان يوم سبت موحشاً يفوح برائحة مشتقّات النّفط ورائحة طهي الخُضَر بالخردل. كانت أيّام السّبت موحشة، ومليئة بالضوضاء، وزلقة، لا تسبقها في البؤس إلاَّ أيّام الأحد المقيَّدة، المنشّاة، المليئة بأقراص معالجة السّعال والمترعة بالنواهي وبأوامر الجلوس.

وإذا كانت أمّي في حالة مزاجيّة توافق الغناء فإنّ الأمر لم يكن بالسيّىء، ولسوف تغنّي عن الأوقات الصّعبة، والأوقات السّيِّئة، والأوقات الّتي فعل بي أحدهم كذا، أو مضى، أو غادرني. ولكن صوتها كان بالغ العذوبة وعينيها المغرّدتين تغيمان بالدمع حتّى إنّني وجدت نفسي يستبدّ بها الحنين إلى تلك الأيّام الصّعبة، التوق إلى أن أكبر دونما «هوان على النّاس». تطلّعت إلى الزّمن الشهيّ الّذي سيغادرني فيه «رجلي»، عندما «أكره أن أرى شمس ذلك المساء تغرب. .» لأنّني عند ذلك سأعرف أنّ «رجلي غادر هذه البلدة». انتزع البؤس الملوّن بالألوان الخضراء والزّرقاء في صوت أمّي كلّ الحزن من الكلمات وتركني مقتنعة بأنّ الألم ليس من الممكن احتماله فحسب، وإنّما هو عذب أيضاً.

ولكن دونما أغنية فإنّ أمسيات السّبت تلك جثمت على رأسي، مثل دلوِ حَمْلِ الفحم. وإذ كانت أمّي تحدث ضجيجاً على نحو ما هو الحال الآن، فإنّ الأمر بدا كما لو أنّ أحدهم يُلقي الأحجار في ذلك الدّلو.

ـ وها أنا فقيرة مثل طبق خاوٍ؟ من عساهم يظنّونني؟

twitter @baghdad_library

بابانويل؟ طيّب. بمقدورهم أن ينزلوا جواربهم لأنّ الوقت ليس وقت عيد الميلاد.

رحنا نتململ بقلق.

قالت فريدا

ـ فلنقم بشيءٍ ما!

سألتها:

ـ ما الّذي تريدين القيام به؟

ـ لا أدري. لا شيء.

حدّقت فريدا في أعالي الأشجار، ونظرت بيكولا إلى قدميها.

ـ أتريدين الصّعود إلى غرفة السيّد هنري والتفرّج على مجلاّته النّسائيّة.

قلبت فريدا ملامحها وقالت إنّها لا تحبّ التفرّج على الصّور القذرة. قلت مواصلة الحديث:

ـ بمقدورنا التفرّج على إنجيله. ذلك جميل.

بلّلت فريدا أسنانها بلسانها، وأحدثت بشفتيها صوتاً يشبه «فت».

ـ ليكن، إذن، بمقدورنا الذّهاب لوضع الخيوط في سَمِّ الخِياط للسيّدة شبه العمياء، ولسوف تعطينا سنتاً.

أطلقت فريدا صوتاً معبّراً عن الرّفض والازدراء، وقالت:

ـ عيناها تبدوان كالمخاط، ولست أشعر بالميل إلى النّظر إليهما، ما الّذي تريدين القيام به يا بيكولا؟!

قالت:

ـ الأمر لا يعنيني، أيّ شيء تريدينه.

خطرت لي فكرة أخرى.

ـ نستطيع المُضيّ في الزّقاق ورؤية ما في صفائح النّفاية.

ـ الجو أبرد من أن يسمح بهذا.

قالتها فريدا، وقد استبدّ بها الضّجر والضّيق.

ـ أعلم ذلك. بمقدورنا إعداد بعض حلوى الفُدْج.

ـ أتمزحين؟ نفعل هذا مع وجود ماما هناك وهي تقلب الدّنيا؟ عندما تبدأ بإحداث الضّجيج في مواجهة الجدران، فإنّك تعرفين أنّها ستعكف على ذلك طوال اليوم، وهي لن تسمح لنا حتّى بدخول المطبخ.

ـ طيّب، دعونا نذهب إلى فندق جريك ونستمع إلى الزّبائن وهم يتبادلون اللّعنات.

ـ أوه. ومن هي الّتي تريد القيام بذلك؟ وفضلاً عن ذلك، فإنّهم يقولون الكلمات القديمة ذاتها طوال الوقت.

نفد مخزوني من الأفكار، وبدأت بالتركيز على البقع البيضاء على أظافري. وكان معنى إجماليٍّ عددها هو عدد الأصدقاء من الفتيان الّذين سأحظى بهم: سبعة.

انزلقت مناجاة أمّي لنفسها إلى رحاب الصّمت:

ـ يقول الإنجيل أطعموا الجوعى. وذلك أمر طيّب، ذلك لابأس به، ولكنّني لا أطعم فيلة. وكلّ من يحتاج ثلاثة أرباع الجالون من الحليب لكي يعيش ينبغي عليه أن يخرج من هنا، فهو ليس في المكان المناسب. ما هذا؟ نوع من مزارع منتجات الألبان؟

انبعثت بيكولا واقفة على حين غِرّة، وقد اتّسعت حدقتاها ذعراً، وندّ عنها صوت كالصهيل.

twitter @baghdad_library

وقفت فريدا بدورها، وقالت:

ـ ماذا دهاك؟

عندئذٍ نظرنا كلانا إلى حيث كانت بيكولا تحدّق. كان الدّم ينساب على ساقيها. وسقطت بعض القطرات على الدّرج. وثبتُّ في موضعي:

ـ هل جرحت نفسك؟ انظري! الدّم منتشر على ثوبك كلّه!

خضّبت لطخة حمراء، تميل إلى اللّون البنّيّ، مؤخّرة ثوبها. واصلت إصدار الصوت الّذي يشبه الصهيل، وهي تقف مباعدة ما بين ساقيها.

قالت فريدا:

ـ أوه. يا إلَهي! إنّني أعرف الأمر، أعرف ما هذا.

ـ ماذا؟

قالتها بيكولا، وقد ارتفعت أصابعها إلى فمها.

ـ ذلك هو الطّمث.

ـ وما هو؟

ـ إنّك تعرفينه.

تساءلت:

ـ هل أنا بسبيلي إلى الموت؟

ـ لا لن تموتي، إنّه يعني أنّه يمكن أن يكون لك طفل.

ـ ماذا؟

ساورني شعور بالسأم والضّجر من معرفة فريدا لكلّ شيء.

ـ كيف تعرفين ذلك؟

ـ أبلغتني به ملدريد وماما أيضاً.

ـ لا أصدّق ذلك.

ـ ليس عليك أن تصدّقيه، يا بلهاء! انظري! عليك بالانتظار هاهنا! اجلسي، يا بيكولا، في موضعك هذا!

امتلأت فريدا بشعور السّلطة والحماس، وقالت لي:

ـ وأنت، اذهبي لإحضار بعض الماء!

ـ الماء؟

ـ نعم، يا غبيّة، ماء، والزمي الهدوء وإلاّ فإنّ ماما ستسمعك!

جلست بيكولا مجدّداً، وقد ارتسم قدر من الخوف أقلّ قليلاً من السّابق في عينيها. أمّا أنا فقد انطلقت إلى المطبخ.

كانت أمّي تشطف السّتائر في الحوض الخاصّ بالمغسلة، قالت:

ـ ماذا تريدين يا فتاة؟!

ـ بعض الماء، يا سيّدتي!

ـ من حيث أعمل، بالطبع، طيّب، احضري كوباً! ولا وجود لكوب نظيف أيضاً. استخدمي تلك الجرّة!

أحضرت إحدى جرار مايسون، وملأتها بالماء من الصنبور، وبدا أنّ عمليّة ملئها قد استغرقت وقتاً طويلاً.

ـ لا يبدو على أحد أنّه يريد شيئاً قطّ، إلاّ بعد أن يروني عند المغسلة، وعندئذٍ يرغب الجميع في شرب الماء.

عندما امتلأت الجرّة، شرعت في التحرّك مغادرة المكان.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ إلى خارج الدّار.

ـ اشربي ذلك الماء هنا!

twitter @baghdad_library

ـ لن أكسر شيئاً.
ـ إنّك لا تعرفين ما ستفعلينه.
ـ نعم، يا سيّدتي. إنّني أعرف. دعيني آخذها إلى خارج الدّار، لن أسكب شيئاً.
ـ خير لك ألاَّ تفعلي ذلك.

وصلت إلى الرّواق، ووقفت هناك ممسكة بجرّة مايسون المليئة بالماء. كانت بيكولا تبكي.
ـ ممَّ تبكين؟ هل الأمر مؤلم؟
هزّت رأسها سلباً.
ـ إذن كُفّي عن إسالة المخاط!

فتحت فريدا الباب الخلفي، كان لديها شيء دسّته في بلوزتها. تطلّعت إليّ بدهشة، وأشارت إلى الجرّة:

ـ ما الّذي يفترض القيام به باستخدام هذه؟
ـ قلت لي عنها. قلت لي احضري بعض الماء.

ـ ليس جرّة قديمة صغيرة مليئة بالماء، وإنّما الكثير منه، لغسل الدّرج به، أيّتها البلهاء!

ـ ومن أين لي أن أعرف ذلك؟
ـ نعم، من أين لك؟ هلمّي!
اجتذبت بيكولا من يدها لتنهضها، وقالت:
ـ فلنذهب إلى هناك!

انطلقتا إلى جانب الدّار، الّذي تزداد كثافة الأشجار عنده.
ـ ماذا عنّي؟ إنّني أريد الذّهاب معكما.

همست فريدا بلهجة مسرحيّة:

ـ اخرسي! سوف تسمعك ماما. عليك بمسح الدّرج!

اختفتا وراء ركن الدّار.

كنت بسبيلي إلى أن يفوتني شيء، مرّة أخرى. هاهنا أمر مهمّ، وقد تعيّن عليّ المكوث وعدم رؤية أيّ شيء منه. سكبت الماء على الدّرج، ودفعته بحذائي، وانطلقت عدواً للّحاق بهما.

كانت فريدا جاثية على ركبتيها، ومستطيل أبيض من القطن على الأرض بقربها، وراحت تنزع عن بيكولا سروالها، قائلة:

ـ هلمّي، انزعيه!

وأفلحت في إنزال السّروال الملوَّث، وألقت به ناحيتي قائلة:

ـ إليك هذا!

ـ ما الّذي يُفتَرض أن أفعله به؟

ـ ادفنيه، يا بلهاء!

أمرت فريدا بيكولا بأن تمسك بالشيء القطني بين ساقيها.

قلت متسائلة:

ـ كيف ستسير وهي على ذلك النّحو؟

لم تُحِر فريدا ردّاً، وإنّما التقطت دبوسين من دبابيس الأمان من طرف تنّورتها وشرعت في تثبيت أطراف الفوطة بثوب بيكولا

قمت بالتقاط السّروال بإصبعين، وشرعت في البحث عن شيء أحفر به حفرة. أفزعني صوت حفيف من الشجيرات، فالتفتّ نحو مصدر الصّوت، ورأيت عينين مفتونتين في وجه أبيض يشبه الكعكة. كانت روزماري تراقبنا. دفعت يدي بقوّة نحو وجهها وأفلحت في خدش أنفها. صرخت وارتدّت منقلبة على عقبيها.

twitter @baghdad_library

صرخت روزماري:

ـ يا سيّدة ماكتير! يا سيّدة ماكتير! فريدا وكلوديا بالخارج هنا تلعبان لعبة قبيحة، يا سيّدة ماكتير!

فتحت أمّي النّافذة، وأطلّت علينا:

ـ ماذا!

ـ إنّهما تلعبان لعبة قبيحة، يا سيّدة ماكتير، انظري، وكلوديا لطمتني؛ لأنّني رأيتهما.

أوصدت أمّي النّافذة بعنف، وأقبلت تعدو، خارجة من الباب الخلفيّ للدار.

ـ ما الّذي تفعلنه جميعكنّ؟ أوه. آه ـ هه. لعبة قبيحة هه؟

مدّت يدها إلى الشجيرات وانتزعت غصناً، وهي تقول: خير لي أن أربّي خنازير من تربية بعض الفتيات القبيحات. على الأقلّ بمقدوري ذبح الخنازير.

شرعنا في الصّراخ:

ـ لا، يا ماما، لا، يا سيّدتي! لم نكن نلعب ألعاباً قبيحة. إنّها كاذبة. لا، يا سيّدتي! يا ماما!

أمسكت أمّي فريدا من كتفها بعنف، وجعلتها تلتفت إلى ناحيتها، ووجّهت إليها ثلاث ضربات قاسية على ساقيها.

ـ ستلعبين ألعاباً قذرة، هه؟ لا، لن تفعلي هذا!

نظرت أمّي إلى بيكولا، وقالت:

ـ وأنت أيضاً! سواء كنت ابنتي أم لا

أمسكت بيكولا بعنف، وجعلتها تدور حول نفسها. أنفك مشبك الأمان عند أحد طرفي الفوطة، ورأتها أمّي، وهي تقع من تحت

ثوبها. تردّدت العصا في الهواء، فيما طرفت عينا أمّي:

ـ ما الّذي يجري هنا بحقّ الشّيطان؟

انخرطت فريدا في البكاء، وشرعت، باعتباري التالية لها في إيضاح الأمر:

ـ كانت تنزف، وكلّ ما هنالك أنّنا حاولنا وقف الدّم!

تطلّعت أمّي إلى فريدا، انتظاراً للتحقّق من صحّة ما قلت، فأومأت هذه برأسها، مقرّة ما قلته:

ـ إنّها تعاني من الدّورة الشهريّة، وكنّا نحاول مساعدتها فحسب.

أطلقت أمّي بيكولا، ووقفت متطلّعة إليها، ثمّ جذبتهما معاً نحوها، فغدا رأساهما بإزاء بطنها، وامتلأت عيناها أسى:

ـ طيّب. طيّب. الآن كُفّا عن البكاء! لم أكن أعلم بالأمر. هلمّا، الآن، ادخلا الدّار، امضي إلى بيتك، يا روزماري؛ فقد انتهى الاستعراض.

مضينا إلى الدّار، إحدانا عقب الأخرى، بيكولا تجرّ ذيلاً أبيض، وأنا أحمل سروال بنت صغيرة دخلت عالم الأنوثة.

مضت بنا أمّي إلى الحمّام. وحثّت بيكولا على الدّخول، وأخذت منّي السّروال، وأمرتنا بالبقاء خارج الحمّام.

كان بمقدورنا سماع صوت انسكاب الماء في حوض الاستحمام.

ـ هل تظنّين أنّها ستغرقها؟

ـ أوه، يا كلوديا، إنّك غبيّة للغاية. لسوف تغسل لها ملابسها وكلّ شيء، لا أكثر من ذلك.

ـ هل ينبغي علينا ضرب روزماري؟

twitter @baghdad_library

ـ لا، دعيها وشأنها.

اندفع الماء متدفّقاً، وفوق صوت اندفاعه كان بمقدورنا سماع موسيقى ضحك أمّي.

في تلك اللّيلة رقدنا ثلاثتنا في الفراش، وقد هيمن علينا السّكون، امتلأنا بالتوقير والاحترام لبيكولا كان الرّقاد بجوار إنسانة حقيقيّة تعاودها الدّورة الشهريّة حقّاً أمراً مقدّساً على نحو من الأنحاء. الآن غدت مختلفة عنّا، وتشبه الكبار. وقد أحسّت هي أيضاً بالنأي عنّا، ولكنَّها رفضت التّباهي بالأمر على حسابنا.

بعد فترة امتدّت طويلاً تحدّثت بصوت بالغ الرّقة:

ـ أصحيح أنّه يمكن أن يكون لي طفل الآن؟

قالت فريدا على نحو يوحي بنعاسها:

ـ بالتأكيد، بالتأكيد يمكنك ذلك.

قالت، وقد بدا صوتها أجوف بفعل الدّهشة:

ـ ولكن. كيف؟

قالت فريدا:

ـ أوه، لابدّ لأحدهم من أن يحبّك.

ـ أوه!

ساد صمت طويل، رحت وبيكولا نقلّب هذه الخاطرة في ذهنينا. وقد افترضت أنّ الأمر لابدّ أن يكون متضمّناً لـ «رجلي» الّذي سيحبّني، قبل أن يهجرني. ولكن لم يكن هناك أيّ أطفال حديثي العهد بالولادة في الأغنيات الّتي كانت أمّي تغنّيها، وربّما كان هذا

هو السرّ في أنّ النّساء كنّ حزانى: الرّجال رحلوا قبل أن يتمكّنوا من إنجاب وليد.

ثمّ طرحت بيكولا سؤالاً لم يخطر لي قطّ على بال:

ـ كيف تفعلين ذلك؟ أعني كيف تجعلين أحدهم يحبّك؟

لكن فريدا كانت تغطّ في النّوم، ولم يكن لي علم بالأمر.

twitter @baghdad_library

هاهيالدار خضراء وبيضاء ولها بابأحمر
وجميلتللغايتجميلتللغايتجميلتللغاية[1]

هناك حانوت مهجور عند المنعطف الجنوبي الشّرقي لبرودواي والشّارع الخامس والثّلاثين في لورين بولاية أوهايو. وهو لا ينفسح متراجعاً ومرتدّاً إلى خلفيّته المؤلّفة من سماء رصاصيّة اللّون، ولا يتناسق مع الدُّور الرّماديّة الّتي تشكّل إطاراً له وأعمدة الهاتف السّوداء من حوله، وإنّما يفرض نفسه على عين المارّ به على نحو يثير الضّيق والكآبة معاً. ويتساءل الزوّار الّذين يصلون بالسيّارة إلى هذه المدينة عن السرّ في أنّه لم يتمّ هدمه. بينما المارّة، وهم من المقيمين في الحيّ، يشيحون عنه عندما يمرّون به.

وفي وقت من الأوقات، عندما كان المبنى يضمّ محلاًّ لبيع البيتزا، لم يكن النّاس يرون إلاّ صِبْية متكاسلين في سنّ المراهقة وقد التفّوا معاً عند المنعطف. كان هؤلاء الفتية يلتقون هناك، لتدخين السّجائر وللتخطيط لمشاريع جريئة وإن لم تَخْلُ من اعتدال. وكانوا يستنشقون بعمق الدّخان المنبعث من سجائرهم، ويجبرونه على أن يملأ رئاتهم وأفئدتهم وأفخاذهم وأن يبعد الرّعشة، طاقة صباهم. كانوا يتحرّكون على مهل، ويضحكون على مهل، ولكنّهم ينفضون

(١) كذا في الأصل، والأمر كذلك حيثما ورد هذا الشّكل في رسم الكلام على امتداد الرّواية. (هـ.م.).

الرّماد عن سجائرهم بأسرع ممّا ينبغي ولمرّات تفوق ما يحتاجه الأمر. ويكشفون عن أعضائهم، لمن يهمّهم ذلك كمستجدّين في ممارسة العادة السرّيّة. ولكن قبل وقت طويل من تهافتهم ومشهد تأنّقهم، تمّ تأجير المبنى إلى خبّاز مَجَريّ نال شهرة متواضعة بما يُعِدّ من خبز مُحلّى وأقراص ببذور الخشخاش. وفي وقت سابق على ذلك، كان هناك مكتب للعقارات، وحتّى قبل ذلك استخدمه بعض الغجر منطلقاً لعمليّاتهم. ومنحت العائلة الغجريّة للنافذة الّتي تشبه زجاجها أطباقاً كبيرة أقصى ما قُدِّر لها أن تعرفه من تميّز وطابع خاصّ. وكانت فتيات العائلة يتناوبن الجلوس بين أمتار من الأجواخ والسّجاجيد الشرقيّة المدلّاة عند النّوافذ، وكنّ يطللن ويبتسمن بين الفينة والأخرى، أو يغمزن، أو يومئن ـ بين الفينة والأخرى فحسب. وغالباً ما كنّ يطللن، وتحجب العُريَ المتوهّجَ في عيونهنّ أثوابٌ مطرّزة ذات أكمام ضافية وتنّورات منسدلة.

وكان السّكان في تلك المنطقة على قدر كبير من الميل إلى الاستقرار والرّحيل بالسهولة نفسها، بحيث أنّه ربّما لم يُقَدَّر لأحد أن يتذكّر، قبل وقت أطول، أطول من ذلك بكثير، قبل عهد الغجر، وعهد المراهقين، ذلك الوقت الّذي كان «آل بريدلوف» يقيمون خلاله هناك، ويتجمّعون في مقدّمة المتجر متقيّحين معاً في أطلال نزوة سمسار عقاريّ. كانوا ينزلقون داخلين وخارجين من هذه العلبة الرّماديّة المتقشّرة دون أن يختلج لهم جفن أحدٍ من الجيران، ودون أن يكون لهم صوت في قوّة العمل، ودون أن يحدثوا موجةً في مكتب العمدة. كلّ فرد من أفراد العائلة في زنزانة وعيه الخاصّة، كلّ منهم يصنع لحاف الواقعيّة المرقّع الخاصّ به، ململماً نثارات من

twitter @baghdad_library

التّجربة من هنا وجزيئات من المعلومات من هناك. وقد خلقوا من انطباعات محدودة يكوّنها أحدهم عن الآخر شعوراً بالانتماء، وحاولوا الاكتفاء بالنحو الّذي يجد أحدهم الآخر عليه.

كان مخطّط أماكن المعيشة مجرّداً من الخيال بقدر ما يستطيع مالك عقاري يوناني من الجيل الأوّل من المهاجرين أن يجعله كذلك. فمنطقة «الحانوت» الكبيرة قسّمت بحواجز إلى غرفتين، وذلك باستخدام ألواح لا ترتفع إلى السّقف. كانت هناك غرفة جلوس، وكانت العائلة تدعوها بالغرفة الأماميّة، وغرفة النّوم، حيث كانت كلّ أنشطة المعيشة تجري. وكانت هناك أريكتان في الغرفة الأماميّة، وبيانو مرتفع وشجرة عيد ميلاد اصطناعيّة صغيرة استقرّت هناك طوال عامين وقد زُيِّنت وناءت بحملها من الغبار. وضمّت غرفة النّوم ثلاثة أسرّة، سريراً حديديّاً ضيِّقاً لسامي، وهو في الرّابعة عشرة من عمره، وآخر لبيكولا وهي في الحادية عشرة من عمرها، وسرير مزدوج لتشولّلي والسيّدة بريدلوف. وفي وسط الغرفة، ومن أجل التّوزيع المتوازن لْلدفء، انتصب فرن يعمل بالفحم. وبإزاء الجدران وضعت حقائب كبيرة ومقاعد ومنضدة حمراء صغيرة وخزانة من ورق مقوّى على هيئة «دولاب ملابس». وكان المطبخ في مؤخّرة هذه الشّقة في صورة غرفة منفصلة. ولم تكن هناك تسهيلات للاستحمام، وإنّما مرحاض لا تصل إليه عين المستأجرين، وإن لم يبعد صوته عن آذانهم.

ليس هناك ما يتجاوز هذا ممّا يمكن أن يُقال عن الأثاث. فقد كان مستعصياً على الوصف، بعد أن تمّ تصميمه وتصنيعه وشحنه وبيعه في حالات عديدة من غياب الذّهن والطّمع واللّامبالاة. وتقادم العهد

به دون أن يُقدَّر له أن يكون مألوفاً قطّ. لقد امتلكه النّاس ولكنّهم لم يعرفوه قطّ. ولم يُقدَّر لأحد أن يفقد سنتاً أو مشبكاً للزينة تحت وسائد أيّ من الأريكتين ويتذكّر موضع الفقدان أو العثور ووقته. لم يطرقع أحد أصابعه ولم يقل: «لكنّه كان معي منذ لحظة. كنت هنالك أتحدّث مع. .» أو «ها هو! لابدّ أنّه انزلق بينما كنت أرضع الوليد!». لم تلد امرأة في أيّ من الأسرّة، أو تتذكّر بشغف البقع الّتي تقشّر طلاؤها، لأنّ الطّلاء هو ما اعتاد الطّفل، عند تعلُّم الزّحف، القيام بتقشيره. لم يلصق طفل مُسْرِف قطعة من العلكة تحت المنضدة. ولم يقم سكّير سعيد ـ صديق للعائلة، غليظ العنق، عَزَب، ولكن ما أفظع طريقة التهامه للطعام! ـ لم يقم بالجلوس إلى البيانو ولم يعزف عليه أنغام أغنية «أنت إشراقة شمس». وما من فتاة شابّة حدّقت في شجرة عيد الميلاد الصّغيرة وتذكّرت يوم قامت بتزيينها، وتساءلت عمّا إذا كانت تلك الكُرة الزّرقاء ستصمد أو ما إذا كان «هو» سيعود يوماً ليراها.

لم تكن هناك ذكريات وسط قطع الأثاث تلك، وبالتأكيد لا وجود للذكريات الأثيرة، وبين الحين والآخر كانت إحدى القطع تثير ردّ فعل عضوي: زيادة في الإفراز الحمضي في الجزء العلوي من الأمعاء الدّقيقة، تدافع خفيف للعرق منحدراً عن القفا، لدى تذكّر الظّروف الّتي أحاطت بقطعة الأثاث. وهناك الأريكة، على سبيل المثال، فقد تمّ شراؤها وهي جديدة ولكن القماش كان قد انشقّ شقّاً طوليّاً على امتداد الظّهر لدى توصيلها، ورفض المتجر تحمُّل المسؤوليّة.

تتدافع الكلمات ممزوجة بدخان سجائر لاكي سترايك:

twitter @baghdad_library

ـ انظر هاهنا، يا رجل، كانت على ما يرام عندما وضعتها في الشّاحنة. والمتجر لا يستطيع القيام بأيّ شيء بعد وضعها في الشّاحنة.

عنيان ضارعتان وخُصية متشنّجة:

ـ لكنّني لا أريد أريكة ممزّقة إذا كنت قد اشتريتها جديدة.

ـ خراء ناشف، يا رجل، أنت لست إلاَّ خراءً ناشفاً.

بمقدورك، بالطبع، أن تمقت أريكة، ذلك إذا كان بوسعك أن تكنّ مثل هذا الشّعور لأريكة، ولكن لا أهمّية لذلك، فمازال عليك أن تدخّر ٤,٨٠ دولاراً شهريّاً. وإذا ما اضطررت إلى دفع ٤,٨٠ دولاراً شهريّاً في أريكة بدأت مشوارها معه ممزّقة وسيّئة وباعثة على الشّعور بالإذلال، فلن يكون بمقدورك الشّعور بالابتهاج لامتلاكها. وغياب الشّعور بالبهجة تنبعث منه رائحة كريهة تغزو كلّ شيء. وتمنعك هذه الرّائحة الكريهة من طلاء الجدران الخشبيّة الفاصلة، ومن الحصول على قماش يناسب الأريكة للمقعد، وحتّى من حياكة القماش الممزّق الّذي يتحوّل تمزّقه إلى شقّ غائر، يغدو انقساماً غائراً يكشف الإطار الرّخيص وموادّ التّنجيد الرّخيصة. ويؤدّي هذا إلى ذبول الانتعاش النّابع من غفوة تُنال على الأريكة، ويفرض طابعاً مختلساً على الغرام الّذي يُطارح فوقها. وشأن إحدى الأسنان الموجوعة الّتي لا تقنع بأن تنبض ألماً في عزلة عن غيرها وإنّما لابدّ لها من أن تنقل ألمها إلى أجزاء أخرى من الجسم، فتجعل التّنفُّس صعباً، والرّؤية محدودة، والأعصاب مضطربة، كذلك الحال بالنسبة لقطعة الأثاث المكروهة، فهي تفرز ضيقاً مزعجاً يؤكّد ذاته على امتداد الدّار، ويقيّد بهجة الأشياء، ولا يتواصل معها.

كان الشيء الّذي يتوهّج بالحياة في دار آل بريدلوف هو الموقد الّذي يعمل بالفحم. وقد عاش مستقلاً عن الجميع وعن كلّ شيء، فناره تنطلق «خارطة» أو «مائلة بصورة جانبيّة» أو «متصاعدة» باتجاهها الخاصّ، على الرّغم من أنّ الأسرة تغذّي الموقد بالفحم وتعرف كلّ تفاصيل نظامه؛ انثر الفحم، لا تراكم الرّماد عليه، ليس أكثر ممّا ينبغي. . . بدا أنّ النّار تحيا وتخفت أو تموت بحسب مشروعها الخاصّ. غير أنّها في الصّباح ترى دائماً أنّه من المناسب أن تموت.

ها هي الأسرتالأموالأبالذييدعيديكو

جينيقيمونفي الدّارإنهمس

لم تكن عائلة بريدلوف تقيم في مقدّمة المتجر لأنّها تعاني من صعوبة عابرة في التّوافق مع عمليّات الاستغناء عن العمّال التي تمّت في المصنع، وإنّما كانت تقيم هناك لأنّها عائلة من الفقراء السّود، وقد بقي أفرادها هناك لأنّهم اعتقدوا أنّ منظرهم قبيح. وعلى الرّغم من أنّ فقرهم كان تقليديّاً وباعثاً على الشّعور بالإحباط، إلاّ أنّه لم يكن فريداً في نوعه، لكنّ قبحهم كان فريداً. وما كان بمقدور أحد إقناعهم بأنّهم ليسوا قبيحي الهيئة على نحو عدواني ولا هوادة فيه. وفيما عدا الأب، تشولّلي، الّذي كان قبحه (النّاجم عن اليأس والإفراط في السّكر، والعنف الموجّه نحو الأشياء الصّغيرة وضعاف النّاس) سلوكاً، فإنّ باقي أفراد العائلة ـ السيّدة بريدلوف، سامي بريدلوف، وبيكولا بريدلوف ـ كانوا يسبغون عليهم قبحهم، يرتدونه، إن جاز القول، على الرّغم من أنّه لا ينتمي إليهم. العيون، العيون الصّغيرة، المستقرّة على نحو متقارب في محاجرها، تحت جباه ضيّقة، منابت الشّعر الخفيضة، غير المنتظمة، الّتي تبدو أكثر

twitter @baghdad_library

إغراقاً في عدم الانتظام بالمقارنة بالحواجب الثّقيلة المستقيمة الّتي تلتقي أطرافها على وجه التّقريب. أنوف قويّة لكنّها معقوفة وذات خياشيم وَقِحة، لهم عظام وجنات عالية، وآذانهم مقلوبة إلى الأمام. شفاه حسنة الشّكل تجتذب الانتباه لا إلى ذاتها، وإنّما إلى باقي الوجه. كنت تنظر إليهم، وتروح تتساءل عن السرّ في أنّهم على هذه الدّرجة من القبح البالغ، ثمّ تنظر إليهم عن كثب ولا تستطيع العثور على المصدر، ثمّ تدرك أنّه منبعث من الاقتناع، اقتناعهم. كان الأمر كما لو أنّ سيّداً غامضاً يعلم كلّ شيء، قد منح كلاًّ منهم عباءة من قبح ليسبغها على نفسه، وقد قبلها كلّ منهم دونما سؤال. قال السيّد: «أنتم أناس ذوو هيئة قبيحة». ونظروا بعضهم إلى بعض ولم يروا شيئاً يناقض هذا القول، رأوا، في حقيقة الأمر، تأييداً له يطلّ عليهم من كلّ لوحة إعلانات، كلّ فيلم، كلّ نظرة. قالوا: «نعم، إنّك على حقّ». والتقطوا القبح بأيديهم، وألقوه على أنفسهم كالوشاح، وانطلقوا به في الدّنيا، وتعامل معه كلّ منهم بطريقته الخاصّة. فقد تعاملت السيّدة بريدلوف مع قبحها على نحو ما يتعامل الممثّل مع عنصر من العناصر المساعدة في التّمثيل والإخراج، من أجل تقمّص شخصيّة، ودعم دور تصوّرت في غالب الأوقات أنّه دورها ـ دور الاستشهاد. واستخدم سامي قبحه كسلاح يُحدِث به ألماً في نفوس الآخرين، وحقّق توافقاً لسلوكه مع قبحه، واختار رفاقه على أساسه، اختارهم أناساً يمكن أن يفتتنوا به وأن يوقع الرّعب في نفوسهم. وبيكولا لقد اختبأت وراء قبحها. اختفت، تقنّعت، خسفت نفسها، ولم تطلّ من وراء هذا الوقاء إلاّ نادراً، ثمّ لا لشيء إلاّ لتحنّ للعودة إلى قناعها.

بدأت هذه الأسرة، في صبيحة يوم سبت من أيّام شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) بالاستيقاظ منسلّة من أحلامها بالوفرة والانتقام منتقلة إلى بؤس مقدّمة متجرهم غير المحدّد الهويّة.

انزلقت السيّدة بريدلوف خارجة من فراشها، دون أن تُحْدِث صوتاً، وارتدت كنزة فوق منامتها (الّتي كانت ثوباً نهاريّاً تقادم العهد به) وسارت نحو المطبخ. أحدثت قدمها الوحيدة الّتي كانت في حالة طيّبة صوتاً حادّاً يشبه صوت العظام، أمّا القدم الملتوية فأحدثت صوتاً يشبه الهمس باحتكاكها بمشمّع الأرضيّة. وفي المطبخ أحدثت ضوضاء في تعاملها مع الأبواب والصّنابير والمقالي. كانت الضّجة جوفاء، لكنّ التهديدات المتضمّنة فيها لم تكن كذلك. فتحت بيكولا عينيها، ورقدت محدِّقة في فرن الفحم الجاثم بلا حياة. دمدم تشولّلي، متقلّباً في الفراش للحظة، ثمّ ران عليه السّكون.

وحتّى من الموضع الّذي رقدت فيه بيكولا، كان بمقدورها أن تشمّ رائحة الويسكي المنبعثة من تشولّلي. غدت الأصوات الصّادرة عن المطبخ أعلى على نحو أكبر وجوفاء على نحوٍ أقلّ من ذي قبل. كانت حركات السيّدة بريدلوف تشي بتوجّه وغرض لا علاقة لهما بإعداد طعام الإفطار. وهذا الإدراك الّذي دعمه دليل مناسب من الماضي، دفع بيكولا إلى تقليص عضلات بطنها والتنفّس بحذر تحسّباً وتوقّعاً.

كان تشولّلي قد عاد إلى الدّار وقد تعتعه السّكر، ومن سوء الطّالع أنّه كان أكثر إيغالاً في السّكر من أن يتشاجر، وهكذا فإنّ الشّجار بأسره كان لابدّ أن ينشب في صبيحة هذا اليوم، ولأنّه لم يقع على

twitter @baghdad_library

الفور فإنّ الشّجار الوشيك كان من شأنه أن يفتقر إلى العفويّة، وأن يكون محسوباً، ومجرّداً من عنصر الإلهام، ومميتاً.

أقبلت السيّدة بريدلوف مسرعة إلى الغرفة، ووقفت عند أدنى السّرير الّذي رقد عليه تشولّلي.

ـ إنّني أحتاج إلى بعض الفحم في هذه الدّار.

لم تصدر حركة عن تشولّلي.

لطمت السيّدة بريدلوف قدمي تشولّلي:

ـ هل تسمعني؟

فتح تشولّلي عينيه على مهل، كانتا حمراوين، ومنذرتين بشرّ مستطير، وكانت عيناه هما العينان الأشدّ وضاعة في المدينة بأسرها، دونما استثناء.

ـ آووو، يا للمرأة!

ـ قلت إنّني بحاجة إلى بعض الفحم، فالجوّ بارد في هذه الدّار برودة حلمة إحدى السّاحرات، ومؤخّرتك المخمورة بالويسكي لن تحسّ حتّى بنار الجحيم، لكنّني أشعر بالبرد، ويتعيّن عليّ القيام بأمور كثيرة، لكن التجمّد برداً ليس من بينها.

ـ دعيني وشأني!

ـ ليس قبل أن تحضر لي بعض الفحم. إذا لم يكن العمل كالبغلة لا يمنحني الحقّ في الدّفء فلماذا أقوم به؟ ومن المؤكّد أنّك لن تجلب شيئاً، وإذا ترك لك الأمر فإنّ الموت سيطوينا جميعاً.

بدا صوتها وكأنّه ألم أُذُن يتردّد صداه في المخّ. أضافت:

ـ إذا كنت تحسب أنّني سأخرج في البرد، وأحضره بنفسي، فإنّ من الخير لك أن تفكّر في الأمر مجدّداً.

انفجرت فقاعة من العنف في حلقه، وهو يقول:

ـ لا يعنيني، ولو بما يعادل بعض الخراء، كيف ستحصلين على الفحم؟

ـ أتعتزم حمل سكرك معك والنّهوض من ذلك الفراش وجلب بعض الفحم لي أم لا؟

ساد الصّمت.

ـ تشولّلي!

ساد الصّمت.

ـ لا تستفزّني هذا الصّباح، يا رجل، كلمة واحدة وأفلق رأسك!

ساد الصّمت.

ـ ليكن، ليكن، ولكن إذا عطست مرّة، مرّة واحدة، فليساعدك الربّ.

استيقظ سامي بدوره، ولكنّه تظاهر بالنوم. كانت بيكولا ماتزال على تقلّص عضلات بطنها وعلى التنفّس بحذر. كانوا جميعاً يعرفون أنّ السيّدة بريدلوف كان بمقدورها أن تحصل على الفحم من السّقيفة، وأنّها ستحصل عليه من هناك، وقد سبق لها القيام بذلك، أو أنّ سامي أو بيكولا يمكن إصدار التعليماتٌ لهما بالحصول عليه، ولكن المساء الّذي لم يشهد الشّجار ضرب أطنابه وكأنّه النّغمة الأولى من لحن حزين في جوٍّ مترع بالتوقّع على نحو كئيب. والهرب من خلال السّكر، مهما كان روتينيّاً، كان يحظى بختامه الاحتفالي. والأيّام الهزيلة المتماثلة الّتي عاشتها السيّدة بريدلوف توحّدت

twitter @baghdad_library

وتجمّعت وتمّ تصنيفها من خلال هذه المشاجرات، فقد منحت قواماً للدقائق والسّاعات الّتي كانت لولاها ستغدو معتمة وتنزلق من الذّاكرة، فقد كانت تخفّف من وقر الفقر، وتضفي الجلال على الغرف الميّتة. وكان بمقدور السيّدة بريدلوف في هذه الانكسارات العنيفة في الرّوتين، الّتي كانت روتيناً بذاتها، أن تظهر أسلوب ما كانت تعتقد أنّه ذاتها الحقيقيّة، وخيال تلك الذّات. وكان حرمانها من هذه المشاجرات حرماناً لها من كلّ نشوة الحياة ومعقوليّتها. وأتاح تشولّلي، من خلال سكره المعتاد وطبعه العنيد، لهما معاً المادة الّتي مسّت حاجتهما إليها لجعل حياتيهما شيئاً يمكن احتماله. وكانت السيّدة بريدلوف تعتبر نفسها امرأة مسيحيّة، متديِّنة، ومستقيمة الأخلاق، أُلقي على كاهلها رجل هامشيٌّ شاء الله لها أن تعاقبه. (لم يكن هناك سبيل، بالطبع، لخلاص تشولّلي. ولم يكن الخلاص جوهرَ الأمر إلاَّ على وجه التّقريب؛ فالسيّدة بريدلوف لم تكن مهتمّة بالمسيح المخلّص، وإنّما بالمسيح القاضي العادل). وغالباً ما كان يمكن سماعها وهي منهمكة في حديث متوهِّم مع المسيح عن تشولّلي، متضرِّعة إليه أن يساعدها «لضرب الوغد وتخليصه من غروره». وذات مرّة عندما دفعت عثرة سكر بتشولّلي بقوّة إلى الموقد المتوهّج النّار، صرخت: «اقضِ عليه، يا يسوع، اقضِ عليه!» ولو أنّ تشولّلي كان قد أقلع عن الشّراب لما سامحت يسوع على ذلك قطّ. فقد كانت تحتاج بصورة يائسة إلى خطايا تشولّلي، وكلّما ازداد تردّيه وتفاقمت وحشيّته وافتقاره للمسؤوليّة، غدت هي ومهمّتها أكثر روعة، باسم يسوع.

ولم يكن تشولّلي أقلّ احتياجاً إليها، فقد كانت بين أمور قليلة

منافية له بحيث يستطيع أن يمسّها، وبالتالي أن يلحق الأذى بها، وقد صبّ عليها جام سخطه المندلع ورغباته المحبطة. وإذ كرهها فقد كان بمقدوره أن يدع نفسه دون أن يمسّها. وعندما كان في سنٍّ جدّ مبكّرة داهمه رجلان من البيض وسط بعض الأشجار بينما كان عاكفاً لتوّه ولكن بلهفة على انتزاع النّشوة الجنسيّة من فتاة ريفيّة صغيرة. وأطلق الرّجلان أشعّة مصباح نقّال على مؤخّرته، فكفّ عمّا هو بصدده مرتعباً، ضحك الرّجلان ساخرين، ولم تتحرّك أشعّة المصباح النقّال. قالا: «استمرّ! استمرّ وأَنْهِ ما أنت بصدده! واحرص، أيّها الزّنجيّ، على أن تنجز الأمر جيِّداً!» لم تتحرّك أشعّة المصباح. ولأمر ما لم يكره تشولّلي الرّجلين الأبيضين، وإنّما كره الفتاة وازدراها. وحتّى مجرّد شبه تذكّر لهذه الحادثة، جنباً إلى جنب مع حشد هائل آخر من عمليّات الإذلال والهزائم والنّكوص عن الرّجولة كان يمكن أن يدفعه إلى نوبات من الفسوق أثارت دهشته، دهشته وحده. وعلى نحوٍ من الأنحاء لم يكن بمقدوره أن يثير ذهول أحد، وإنّما كان يمكن أن يتعرّض لإثارة ذهوله فحسب، وهكذا تخلّى عن ذلك الأمر بدوره.

كان تشولّلي والسيّدة بريدلوف يتشاجران بطريقة وحشيّة على نحوٍ مظلم، لا يعادلها إلاَّ تضاجعهما، وقد عقدا اتفاقاً ضمنيّاً على ألاَّ يقتل أحدهما الآخر. كان يتشاجر معها على النّحو الّذي يتشاجر به جبان مع رجل ـ بالقدمين، براحتيْ يديه، بأسنانه. وقد تشاجرت معه بدورها بطريقة أنثويّة صرفة، أي بالمقالي وقضبان إذكاء النّار، وبين حين وآخر تنطلق مكواة مسطّحة في الطّريق إلى رأسه، وخلال تبادلهما للضربات لم يكن يصدر عنهما حديث أو أنين أو لعنة، فلم

twitter @baghdad_library

يكن هناك إلاَّ الصّوت المكتوم الّذي يحدثه سقوط الأشياء، وارتماء اللّحم على اللّحم الّذي لا تعتريه الدّهشة.

كان هناك اختلاف في ردّ فعل الأطفال على هذه المعارك، فقد كان سامي يُطلق اللّعنات لبعض الوقت أو يغادر الدّار، أو يلقي بنفسه في غمار الشّجار. ولدى بلوغه الرّابعة عشرة من عمره عرف بأنّه هرب ما لا يقلّ عن سبع وعشرين مرّة من الدّار، وفي إحدى المرّات وصل إلى بوفالو، ومكث هناك ثلاثة أشهر، وكانت رجعاته، سواء رغماً عنه أو بحكم الظّروف، كئيبة. ومن ناحية أخرى فإنّ بيكولا الّتي قيّدها جنسها وحداثة سنّها جرّبت سبلاً للاحتمال، وعلى الرّغم من أنّ السّبل قد تنوّعت إلاَّ أنّ الألم كان دائباً مثلما كان عميقاً، وتخبّطت بين رغبة جارفة في أن يقتل أحدهما الآخر، وأمنية عميقة بأن تلقى، هي نفسها، حتفها. والآن، ها هي تهمس لنفسها: «لا تتشاجري، يا سيّدة بريدلوف، لا تتشاجري!». وكانت بيكولا، شأن سامي وتشولّلي، تدعو أمّها باسم السيّدة بريدلوف.

ـ لا تتشاجري، يا سيّدة بريدلوف، لا تتشاجري!

ولكن السيّدة بريدلوف تشاجرت.

وبلطف، لاشكّ في أنّه إلَهيّ، عطست السيّدة بريدلوف عطسة واحدة، لا غيرها.

انطلقت عَدْواً إلى غرفة النّوم، حاملة مقلاة عميقة مليئة بالماء البارد، وألقتها على وجه تشولّلي. نهض مختنقاً، وبصق. وثب عارياً ومربدّ الوجه من الفراش، وبانقضاضة أقرب إلى الطّيران قبض على خصر امرأته، وارتميا على الأرض. التقطها تشولّلي، وبظهر كفّه لطمها، فألقاها أرضاً. سقطت في وضع الجلوس، وقد استند

ظهرها إلى فراش سامي. لم تكن قد تخلّت عن المقلاة العميقة، وشرعت في لطم فخذيْ تشولّلي وأسفل خاصرته بها. رفس صدرها بقدمه فأسقط المقلاة منها. جثم على ركبتيه، ولطمها على وجهها عدّة لطمات، وكان يمكن أن تنهار في وقت مبكّر لولا أنّه لطم بيده إطار السّرير المعدنيّ عندما تجنّبت زوجته إحدى ضرباته. وانتهزت فرصة التوقّف المؤقّت في الضربات وانزلقت مبتعدة عن مطاله. بدأ سامي، الّذي كان يرقب شجارهما صامتاً، بضرب أبيه على حين غِرّة حول الرّأس بقبضتيه كلتيهما، صارخاً: «أنت، أيّها الأير العاري!» ومضى يضربه مراراً وتكراراً. بعد أن اجتذبت السيّدة بريدلوف غطاء الموقد المستدير، المسطّح، انطلقت عَدْواً على أطراف أصابعها نحو تشولّلي فيما كان يوشك على النّهوض مستنداً إلى ركبتيه، ولطمته لطمتين فهوت به إلى الغيبوبة، الّتي استفزّته، فأخرجته منها. راحت تلهث، وألقت لحافاً عليه، وتركته لرقاده.

صرخ سامي:

ـ اقتليه! اقتليه!

تطلعت السيّدة بريدلوف إلى سامي بدهشة، وقالت:

ـ كفّ عن إحداث هذه الضّجة يا ولد!

أعادت غطاء الموقد إلى موضعه، ومضت نحو المطبخ. وعند الباب توقّفت ما يكفي من الوقت لتقول لابنها:

ـ انهض من هناك، على أيّ حال، فأنا بحاجة إلى بعض الفحم!

تركت بيكولا لنفسها المجال، الآن، للتنفُّس بارتياح، وغطّت رأسها باللّحاف. على الرّغم من حذرها عاودها سريعاً ذلك الشّعور بالغثيان الّذي حاولت الحيلولة دونه بتلقيص معدتها، فقد انداحت

twitter @baghdad_library

فيها الرّغبة في التقيّؤ، ولكنَّها، كما كان الحال دائماً، كانت تعرف أنّها لن تتقيّأ.

همست في مواجهة راحة يدها: «أرجوك، يا إلَهي، اجعلني أختفي!». أغمضت عينيها بقوّة إلى حدّ الاعتصار. راحت أجزاء صغيرة من جسمها تتلاشى. على مهل حيناً، وعلى عجل حيناً آخر، ثمّ على مهل من جديد. مضت أصابعها، أحدها إثر الآخر، ثمّ اختفت ذراعاها حتّى المرفق. الآن حان الدّور على قدميها. نعم، ذلك أمر جيِّد. مضت السّاقان في الحال، وكان الأمر الأكثر صعوبة متعلِّقاً بما فوق الفخذين، لكنَّها كان عليها أن تظلّ حقيقيّة وتستمرّ. قاومت معدتها الاختفاء، ولكنّها مضت بعيداً بدورها في نهاية المطاف، ثمّ صدرها، وعنقها. كان الوجه متعذّراً كذلك، لكنّه اختفى على وجه التّقريب، تقريباً، ولم تبقَ إلاَّ عيناها المغمضتان بقوّة، بقوّة. فهما تبقيان على الدّوام.

وأيّاً كانت محاولاتها فلم يحدث قطّ أن وفّقت في جعل عينيها تختفيان. وعليه فما جدوى الأمر كلّه؟ لقد كانتا كلّ شيء. كلّ شيء كان هنالك، فيهما. كلّ تلك الصّور، كلّ هاتيك الوجوه. لقد تخلّت منذ وقت طويل عن فكرة الهرب بعيداً لرؤية صور جديدة ووجوه جديدة على نحو ما فعل سامي مرّات عديدة. ولم يصحبها معه قطّ، ولم يفكّر في الذّهاب مسبّقاً قبل أن يفعل ذلك، وما كان للتدبير أن يُكلَّل بالنجاح على أيّ حال. ومادامت على نحو ما تبدو عليه، مادامت قبيحة المنظر، فإنّ عليها أن تمكث مع هؤلاء النّاس، فهي تنتمي إليهم على نحو من الأنحاء. كانت تتطلّع في المرآة على امتداد ساعات طويلة، محاولة اكتشاف سرّ القبح، القبح الّذي جعلها

موضع تجاهل أو ازدراء في المدرسة، من قِبَل المدرّسين وزملاء الصفّ على السّواء. كانت الوحيدة في الصفّ الّتي تجلس بمفردها علي قِمَطْر مزدوج. وقد أجبرها الحرف الأوّل من لقبها على الجلوس في مقدّمة الصّف على الدّوام. ولكن ماذا عن ماري أبوللينير؟ كانت ماري تجلس أمامها، ولكنَّها كانت تتقاسم قِمَطْراً مع لوك أنجيلينو. وقد عاملها مدرّسوها بهذه الطّريقة على الدّوام. ولم يحاولوا قطّ إلقاء نظرة عجلى عليها، ولم يلتفتوا إليها إلاَّ عندما يقتضي الأمر استجابة من الجميع. وقد عرفت كذلك أنّه عندما تريد إحدى الفتيات أن تكيل الإهانات لفتى، أو أن تحظى باستجابة فوريّة منه فإنّها تقول: «بوبي يحبّ بيكولا بريدلوف! بوبي يحبّ بيكولا بريدلوف!» ولم يحدث قطّ أنّها لم تنتزع سلسلة من الضّحكات من أولئك الّذين تناهى الأمر إلى سمعهم، وغضباً مفتعلاً من جانب من وُجِّهت إليه التّهمة.

وقد خطر ببال بيكولا، منذ بعض الوقت، أنّه إذا كانت عيناها، هاتان العينان اللّتان تشاهدان الصّور، وتعرفان المشاهد ـ إذا كانت عيناها هاتان مختلفتين، أي إذا كانتا جميلتين، فإنّها هي نفسها ستكون مختلفة. كانت أسنانها جيّدة، ولم يكن أنفها، على الأقلّ، كبيراً وأفطس، مثل أنوف بعض من كان يسود الاعتقاد بأنهنّ ظريفات للغاية. ولو أنّها بدت مختلفة، وجميلة، فلربّما سيكون تشوللّي مختلفاً، والسيّدة بريدلوف كذلك. ربّما سيقولان: «انظروا إلى بيكولا النّجلاء! لا ينبغي أن نأتي أموراً سيِّئة أمام هاتين العينين النّجلاوين».

عينان نجلاوان، عينان نجلاوان زرقاوان. عينان كبيرتان زرقاوان

twitter @baghdad_library

نجلاوان. إجرِ، يا جيب، إجرِ! يجري جيب، تجري أليس. لأليس عينان زرقاوان. لجيري عينان زرقاوان. يجري جيري، تجري أليس. يجريان بعيونهما الزّرقاء. أربع عيون زرقاء. أربع عيون نجلاء زرقاء. عيون في زُرقة السّماء. زرقاء كعيني السيّدة فورست الزّرقاوين. عيون زرقاء في بهاء الضّحى. عيون أليس وجيري الزّرقاء الّتي تبدو مطلّة من كتاب حكايات.

في كلّ ليلة، دونما انقطاع، كانت تبتهل من أجل عينين زرقاوين. ابتهلت بحرارة بالغة على امتداد عام. وعلى الرّغم من فتور عزمها بعض الشيء إلاَّ أنّها لم تفقد الأمل؛ فحدوث شيء رائع كهذا من شأنه أن يستغرق وقتاً طويلاً، طويلاً.

وإذ أُلقي بها على هذا النَّحو إلى الاقتناع الجازم بأنَّ معجزة وحدها هي الّتي يمكن أن تخفّف الوقر عنها، فإنّها لن ترى جمالها أبداً، لن ترى إلاَّ ما يُتاح رؤيته فحسب: عيون الآخرين.

تمضي في جاردن أفنيو إلى محلّ بقالة صغير يبيع حلوى رخيصة. هناك ثلاثة بنسات في حذائها ـ تنزلق جيئة وذهاباً بين الجورب والبطانة الدّاخليّة للحذاء. ومع كلّ خطوة تحسّ بضغط القطع النّقديّة المؤلم على قدميها. إثارة عذبة، ومتطاولة، وأثيرة حافلة بالوعد والأمان الحاني. هناك الكثير من الوقت للتفكير خلاله فيما سيتمّ شراؤه. غير أنّها الآن تمضي في جادة تحفل بالصّور المألوفة ومن ثمّ المحبوبة. الهندباء البرّيّة النّامية عند قاعدة عمود الهاتف. إنّها لتتساءل: ترى ما السرّ في أنّ النّاس يسمّونها بالأعشاب؟ كانت تظنّ أنّها جميلة، لكنّ الكبار يقولون: «الآنسة دونيون تُبقي فناءها جميلاً

للغاية، ولا وجود للهندباء البرّيّة في أيّ موضع منها». وتمضي النّساء البولنديّات[1] وقد اعتمرن مناديل سوداء مثلّثة إلى الحقول ومعهنَّ السّلال لانتزاعها، ولكنهنَّ لا يُرِدْنَ الرّؤوس الصّفراء، وإنّما الأوراق الخشنة وحدها، ويستخدمنها لإعداد حساء الهندباء البرّيّة، ونبيذها. وما من أحد يحبّ رأس الهندباء البرّيّة، ربّما لأنّها كثيرة للغاية، وقويّة، وتنمو سريعاً.

كان هناك صدع الرّصيف الّذي يأخذ شكل حرف Y والصّدع الآخر الّذي رفع الأسمنت عن مستوى الأرض الترابيّة. وغالباً ما كان خطوها المتواني يجعلها تمضي فوق ذلك الصّدع. ومن شأن المزلجات المثبتة بنعل الأحذية أن تنزلق بشكل جيّد فوق هذا الرّصيف، فقد كان عتيقاً وناعماً، وجعل العجلات تنزلق بصورة متوازنة محدثة أزيزاً معتدلاً كانت الأرصفة الممهَّدة حديثاً كثيرة المطبّات وغير مريحة، وكان صوت عجلات المزلجات على الأرصفة الجديدة يثير الشّعور بالضيق.

هذه الأشياء، وغيرها من الأشياء المفتقرة للحيويّة الّتي رأتها وعايشتها، كانت حقيقيّة بالنسبة إليها. كانت تعرفها. كانت رموزاً ومِحكّات للعالم، قادرة على التّرجمة والاستحواذ. لقد امتلكت الصّدع الّذي جعلها تتعثّر. وامتلكت مجموعات الهندباء البرّيّة الّتي أطاحت برؤوسها في الخريف الماضي، أمّا في هذا الخريف فإنّها

---

(١) في الأصل Hunkie Women والهونكي أصلاً اسم يطلق على البولنديّين الّذين كانوا يعملون في أفنية الماشية في شيكاغو، لكنّه أصبح يطلق، بأوسع المعاني، على الأشخاص البيض في العاميّة الأميركيّة، وخاصة الّتي يتداولها السّود. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

تحدّق في رؤوسها الصّفراء، وقد جعلها امتلاكها جزءاً من العالم، وجعل العالم جزءاً منها.

تصعد أربع درجات خشبيّة لتصل إلى باب متجر ياكوبوفسكي للخُضَر واللّحم وخلافهما. يرنّ جرس صغير فيما هي تفتح الباب. تقف أمام النّضد، وتتطلّع إلى حشد أنواع الحلوى المرتّبة. تقرّر أن تشتري بالبنسات الثّلاثة جميعها حلوى ماري جين الّتي تباع كلّ ثلاث قطع منها بسنت واحد. الحلاوة الّتي تقاوم الالتهام تنفتح أخيراً لتسلّم ما بداخلها من زُبْد الفول السّوداني، والزّيت والملح، الّتي تكمل جاذبيّة حلوى الكرميلّة. وتضطرب معدتها بفعل دفق من التوقّع.

تنزع فردة حذائها، وتستخرج البنسات الثّلاثة. يُطلّ رأس السيّد ياكوبوفسكي الرّماديّ عالياً فوق النّضد. يستحثّ عينيه للخروج من الأفكار الّتي كانت هائمة فيها وملاقاة عينيها. عينان زرقاوان، نال الوهن من حدّة نظرهما. وشأن صيف متوهّج ينتقل على مهل وبصورة غير ملموسة نحو الخريف، ينظر نحوها. وفي موضع ما بين القرنيّة والموضوع، بين الرّؤية والمشهد، تنسحب عيناه، تتردّدان، تحوِّمان. عند نقطة ثابتة في الزّمان والمكان يحسّ بأنّه ليس بحاجة إلى إهدار الجهد المبذول في النّظرة العجلى. إنّه لا يراها؛ لأنّه ليس هناك ما يُرى بالنسبة إليه. كيف يمكن لصاحب حانوت من المهاجرين البيض بلغ الثّانية والخمسين من العمر، واستقرّ طعم البطاطا والجعة في فمه، وتاق ذهنه إلى مريم العذراء النّجلاء العينين، وتراجع مضاء مداركه بفعل الوعي الدّائم بالخسارة ـ كيف يمكنه أن يرى فتاة سوداء صغيرة؟ لم يكن هناك في حياته ما يومئ

مجرَّد إيماء إلى أنّ هذه الأعجوبة ممكنة، دع جانباً أنّها مرغوب فيها وضروريّة.

ـ نعم؟

ترفع ناظريها إليه، وترى الخواء حيث كان يجب أن يكمن الفضول، وترى ما هو أكثر من ذلك. الغياب التّام للإدراك الإنساني ـ الانفصال المتوهّج. إنّها لا تعرف ما الّذي يبقي نظرته العجلى معلّقة، ربّما لأنّه من الكبار، أو لأنّه رجل وهي فتاة صغيرة. لكنَّها رأت الاهتمام، والازدراء، بل وحتّى الغضب في عيون الذّكور من الكبار. غير أنّ هذا الخواء ليس بالأمر الجديد بالنسبة إليها. إنّ له حافّة قاطعة، في مكانٍ ما من الجفن الأسفل يكمن النّفور. ولقد رأته قابعاً في عيون كلّ البيض. وهكذا فإنّ النّفور لابدّ أن يكون نفوراً منها، من سوادها. كلّ الأشياء الّتي فيها هي تدفّق وتوقّع، لكن سوادها سكون وخشية. والسّواد هو الّذي يبرّر، الّذي يخلق، الخواء المحفوف بالنّفور في عيون البيض.

تشير بإصبعها إلى حلوى ماري جين ـ إصبع صغير، أسود، أسطواني، طرفه مضغوط على واجهة عرض الحلوى، تأكيد غير عدوانيّ، على نحو هادئ، لمحاولة الطّفلة السّوداء التّواصل مع رجل أبيض بالغ.

ـ هذه!

تندّ عنها الكلمة تنهيدةً أكثر ممّا هي معنى.

ـ ماذا؟ تلك؟ تلك؟

يتداخل البلغم ونفاد الصّبر في صوته.

تهزّ رأسها، وطرف إصبعها مثبّت على البقعة الّتي تتطابق، من

twitter @baghdad_library

منظورها على أيّ حال، مع حلوى ماري جين. ليس بمقدوره أن يرى ما يقع عليه بصرها ـ فزاوية رؤيته وميل إصبعها يجعلان الأمر مستعصياً على الفهم بالنسبة إليه. تتخبّط يده الحمراء اللحيمة في صندوق العرض الزّجاجي شأن الرأس المنتفض لدجاجة اهتاجت مع القيام بذبحها.

ـ يا للمسيح. ألا يمكنك الكلام؟!

تمسّ أصابعه حلوى مارى جين.

تومئ برأسها، علامة الموافقة والتأكيد.

ـ طيّب. لِمَ لا تقولين هذا؟ واحدة؟ كم؟

تفتح بيكولا قبضتها المطويّة، مبرزة البنسات الثّلاثة. يدفع نحوها مسرعاً بثلاثة من الماري جين ـ ثلاثة مستطيلات صفراء في كلّ لفّة. تمدّ النّقود نحوه. يتردّد، إذ لا يريد لمس يدها. وهي لا تعرف كيف تحرّك إصبع يدها اليمنى من نضد العرض أو كيف تستخرج القطع النّقدية من يدها اليسرى. وفي نهاية المطاف يمدّ يده ويأخذ القطع النّقديّة من يدها اليسرى. وتحتكّ أظافره براحتها الرّطبة.

في الخارج، تحسّ بيكولا بالخجل المستعصي على التّفسير وهو ينحسر عنها.

الهندباء البرّيّة. ينطلق سهم من المحبّة منها إلى تلك النّباتات. ولكن الهندباء البرّيّة لا تنظر إليها ولا تردّ المحبّة بمثلها. تحادث نفسها: «إنّها قبيحة. أعشاب برّيّة». وإذ تنشغل بذلك الإدراك فإنّها تخطو متجاوزة صدع الرّصيف. يتقلقل الغضب ويتحرّك في أعماقها، يفتح فمه، وشأن جرو متّقد الفم يلعق بقايا الخجل.

الخجل أفضل، فهناك معنى في الشّعور بالغضب. واقع وحضور. إدراك للجدارة. إنّه انبعاث جميل. تعود خواطرها إلى عينيِ السيّد ياكوبوفسكي، وصوته المثقل بأثر البلغم. لن يصمد الغضب؛ فالجرو ينخم بسهولة، وظمأه يروى سريعاً، فيغفو، يتصاعد الخجل من جديد، وتنساب نهيراته المثقلة بالطمي إلى عينيها. ماذا تفعل قبل أن تنهلّ الدّموع. تتذكّر حلوى ماري جينز.

هناك صورة على كلّ غلاف أصفر شاحب. صورة لماري جين الصّغيرة الّتي منحت الحلوى اسمها. وجه أبيض باسم، شعر أشقر له تسريحة لطيفة، عينان زرقاوان تنظران إليها من عالم من الرّاحة الموشّاة بالنظافة. العينان فظّتان خبيثتان. وهما من منظور بيكولا جميلتان لا غير. تلتهم الحلوى، ويبدو مذاقها طيّباً. والتهام الحلوى هو على نحو من الأنحاء التهام للعينين، التهام لماري جين. أحبّي ماري جين. كوني ماري جين.

جلبتْ ثلاثةُ بنسات لها تسعَ مرّات من بلوغ ذروة النّشوة مع ماري جين، الّتي منحت اسمها للحلوى.

كانت ثلاث عاهرات يقمن في الشّقة الّتي تعلو مقدّمة المتجر الّتي تقطنها عائلة بريدلوف. هنّ تشاينا، وبولاند، والآنسة ماري. وكانت بيكولا تحبّهنّ. وتزورهنّ، وتقضي لهنَّ حوائجهنَّ الصّغيرة، وبدورهنَّ لم يشعرن نحوها بالازدراء.

ذات صباح من شهر تشرين الأوّل (أكتوبر)، صباح الانتصار الّذي تمّ إحرازه بغطاء الموقد، صعدت بيكولا الدّرج إلى شقّتهن.
وكان بوسعها، حتّى قبل فتح الباب استجابة لطرقها، سماع بولاند

twitter @baghdad_library

وهي تغنّي، وتردّد صوتها حلواً وصلباً، كثمار الفراولة الطّازجة:

تسلّلت الأغنيات الحزينة إلى طعامي،
تصاعدت إلى الرفّ،
تسلّلت الأغنيات الحزينة إلى طعامي،
تصاعدت إلى الرفّ،
انسلّت إلى مخدعي؛
لأنّني أرقد وحيدة.

ـ مرحباً، يا زلابية، أين جوربك؟

نادراً ما كانت ماري تدعو بيكولا بلقب التّدليل الواحد مرّتين. ولكن في كلّ الأحوال، كانت ألقابها كلمات تحبُّبٍ مختارة من قوائم الطّعام والأطباق الّتي تحتلّ الصّدارة في ذهنها بلا انتهاء.

ـ مرحباً، يا آنسة ماري، مرحباً يا آنسة تشاينا، مرحباً يا آنسة بولاند!

ـ لقد سمعتني. أين جوربك؟ إنّك حافية مثل كلب الفِناء.

ـ لم أستطع العثور على أيّ جورب.

ـ لم تستطيعي العثور على أيّ جورب؟ لابدّ أنّ هناك شيئاً في داركم يحبّ الجوارب!

ضحكت تشاينا ساخرة؛ فقد كانت ماري، عندما يُفْقَد شيء، تعزو اختفاءه إلى «شيء في الدّار يحبّه». وتقول منزعجة: «هناك شيء في هذه الدّار يحبّ مشدّات الصّدر!».

عكفت بولاند وتشاينا على الاستعداد للمساء. وكانت بولاند تعكف بلا انتهاء على كيّ الملابس، وعلى الغناء. وتعكف تشاينا بلا

انتهاء، وهي جالسة على مقعد مطبخ شاحب الخضرة على تجعيد شعرها. أمّا ماري فلم يُقدَّر لها قطّ أن تستكمل استعدادها.

كانت النّسوة ودودات، لكنهنَّ بطيئات في بدء الحديث. وكانت بيكولا تأخذ بزمام المبادرة دائماً مع ماري الّتي ما إن يلهمها أحد البدء حتّى يكون من الصّعب إيقافها.

ـ من أين لك بكلّ هؤلاء الفتية الأصدقاء يا آنسة ماري؟

ـ فتية أصدقاء؟ فتية أصدقاء. إنّني، يا سُجْقة، لم أرَ فتى منذ العام ألف وتسعمائة وسبعة وعشرين.

ـ لم تري أحداً منهم إذن.

قالتها تشاينا، ودفعت أدوات تجعيد الشّعر السّاخنة في وعاء زيت تلميع الشّعر من طراز «نونايل» فأصدر الزّيت هسيساً لدى ملامسة المعدن السّاخن له.

قالت بيكولا ملحّة:

ـ من أين لك بهم، يا آنسة تشاينا؟!

ـ من أين لي ماذا؟ من أين لي أنّني لم أرَ فتية منذ العام ألف وتسعمائة وسبعة وعشرين؟ لأنّه منذ ذلك الحين لم يعودوا فتية. لقد توقّفوا في ذلك الحين، وشرع النّاس يولدون كبار السنّ.

قالت تشاينا:

ـ تقصدين أنّ ذلك هو الوقت الّذي غدوت فيه كبيرة السنّ.

ـ لم يحدث قطّ أنّني تقدّمت في السنّ، كلّ ما هنالك أنّني بدينة.

ـ إنّهما شيء واحد.

ـ أتحسبين أنَّ النّاس يحسبونك شابّة لمجرَّد أنَّك عجفاء؟ وأنت تبدين

twitter @baghdad_library

كالجانب الشّمالي من بغلة متّجهة جنوباً.

ـ كلّ ما أعرفه هو أنّ كلّ ساق صغيرة الحجم ومتقوّسة الشّكل من ساقيك هي في مثل عمر ساقي تماماً.

ـ لا تقلقي على ساقيّ المتقوّستيِ الشّكل؛ فذلك هو أوّل شيء يُنحّونه جانباً.

ضحكت النّسوة الثّلاث جميعاً، ومالت ماري برأسها إلى الوراء. ومن أعماقها انطلقت ضحكتها مثل هدير أنهار عديدة متدفّقة المياه، عميقة الانديا‌ح، مثقلة بالطّمي، مندفعة إلى رحاب بحر مفتوح. وضحكت تشاينا على نحو متشنّج، وبدا كلّ لهاث كما لو كانت تنتزعه منها يد خفيّة تجتذب خيطاً حجب عن العيان. وضحكت بولاند، الّتي نادراً ما تتحدّث إلاّ بتأثير السُّكْر، ضحكة مكتومة. وعندما تضيق من تأثير الشّراب غالباً ما تدندن لحناً أو تغنّي أغنيات حزينة، وكانت تعرف الكثير من هذا النّوع من الأغاني.

تلمّست بيكولا بأصابعها حافة خمار موضوع على ظهر الأريكة، وقالت:

ـ لم يسبق لي أن رأيت أحداً له مثل هذا العدد الكبير من الفتية الأصدقاء الّذين تصادقينهم، يا آنسة ماري. كيف حدث أنّهم يحبّونك جميعاً؟

فتحت ماري علبة بيرة جذور، وقالت:

ـ وماذا غير ذلك عساهم يفعلون؟ إنّهم يعلمون أنّني غنيّة وجذّابة، وهم يريدون أن يدسّوا أصابع أقدامهم في شعري المجعّد ويضعوا يدهم على مالي.

ـ أنت غنيّة يا آنسة ماري؟

ـ لديّ مال، يا حلوى البودنج!

ـ من أين حصلت عليه؟ إنّك لا تؤدّين عملاً.

قالت تشاينا:

ـ نعم، من أين حصلت عليه؟

ـ أعطانيه هوفر[1] فقد أسديت إليه صنيعاً ذات مرّة، أسديته لمكتب التّحقيقات الفيدرالي.

ـ ماذا فعلت؟

ـ أسديت إليه صنيعاً. فقد أرادوا إلقاء القبض على هذا المحتال الّذي يدعى جوني، وكان وضيعاً أشدّ الوضاعة.

رتّبت تشاينا تجعيدة إحدى خصلات شعرها وقالت:

ـ إنّنا نعرف ذلك.

ـ أراد مكتب التحقيقات الفيدرالي إلقاء القبض عليه بأيّ وسيلة، فقد قتل من النّاس أكثر ممّا أردى السلّ. وإذا ما أغضبته؟ هواه، يا يسوع! لسوف يظلّ يطاردك مادامت هناك أرض تسعك. طيّب، كنت رشيقة وظريفة في ذلك الحين. ولم يكن وزني يزيد على تسعين رطلاً. كنت «أُطيِّر العقل».

ـ لم يحدث قطّ أنّك كنت «تُطيِّرين العقل».

---

(١) المراد چي. إدجار هوفر الّذي تولّى منصب مدير مكتب التّحقيقات الفيدرالي في العام ١٩٢٤ للقضاء على ما في هذا الجهاز من فساد، وشغل هذا المنصب حتّى وفاته، حيث تكشّفت أسرار رهيبة عن سيطرته الخفيّة المذهلة على الحياة الأمريكيّة العامّة. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

ـ طيّب. لم تكوني منفّرة أبداً. اخرسي! دعيني أحدّثك، يا حلوى، أحدّثك بالحقيقة. كنت الوحيدة الّتي تستطيع معالجة أمره. كان يخرج ويسطو على مصرف أو يقتل بعض النّاس، وأقول له برقّة بالغة: «جوني، ما كان ينبغي أن تقوم بذلك» فيقول لي إنّ كلّ ما أراده هو أن يُحضر لي بعض الأشياء الجميلة. سراويل تحتانيّة مزيّنة بالمخرّمات وكلّ شيء. وفي كلّ يوم سبت كنّا نحصل على صندوق جعة، ونقوم بقلي بعض السّمك. كنّا نقليه في مخيض من الجريش والبيض، وعندما يغدو بنّيّاً وهشّاً، ودون أن يتصلّب، نقوم بفتح الجعة الباردة.

لانت عينا ماري عندما عبرت ذهنها ذكرى مثل هذه الوجبة الّتي تناولتها في وقت ما في موضع بعينه. وكانت كلّ القصص الّتي ترويها عرضة للتردّي إلى عمليات وصف للطعام. وتراءت لبيكولا أسنان ماري وهي تنغرس في ظهر سمكة ذئب بحر طريّة، تراءت لها الأصابع اللّحيمة وهي تعيد إلى فمها شرائح صغيرة من اللّحم الأبيض السّاخن، أفلتت من شفتيها، تناهت إلى فرقعة نزع غطاء زجاجة البيرة، اشتمّت الرّائحة القويّة لدفق البخار الأوّل، استشعرت صدمة لُذوعة الجعة الباردة للسان، وفرغت من حلم اليقظة هذا قبل وقت طويل من فراغ ماري منه.

تساءلت:

ـ ولكن ماذا عن المال؟

صاحت تشاينا ساخرة:

ـ إنّها تتحدّث كما لو كانت ذات الرّداء الأحمر، الّتي وَشَتْ

بدلنجر[1]، الّذي ما كان ليقترب منك إلاَّ إذا كان بسبيله للصيد في إفريقيا، وأطلق النّار عليك بعد أن حسبك فرس نهر.

ـ طيّب، فرس النّهر هذا استمتع بحفلة راقصة في شيكاغو، هواه، يا يسوع! يا للعام ألف وتسعمائة وتسعة!

أرادت بيكولا منذ وقت طويل أن تعرف الردّ على هذا السّؤال:

ـ لماذا تقولين على الدّوام: هواه، يا يسوع، وتأتين على ذكر رقم؟

ـ لأنّ أمّي علّمتني ألاَّ أوجّه سباباً أو لعنة أبداً.

تساءلت تشاينا:

ـ وهل علّمتك ألاَّ تُسقطي سراويلك التحتانيّة؟

قالت ماري:

ـ لم يكن لديّ أيّ منها. ولم يحدث قطّ أن رأيتها إلى أن بلغت الخامسة عشرة من العمر، عندما غادرتُ مدينة جاكسون وقمت بعمل نهاري في سنسناتي. منحتني مخدومتي البيضاء زوجاً من سراويلها التحتانيّة القديمة، فحسبت أنّها نوع من غطاء الرّأس يُتَّخذ من جوارب، ووضعتها على رأسي عندما كنت أقوم بتنظيف الغبار. وعندما رأتني، تمنّت أن تستلقي من فرط ما ضحكت.

---

(١) المقصود جون دلنجر، الذي ارتكب سلسلة مدوية من الجرائم من بينها القتل والسّطو وقطع الطّريق في ولايات أنديانا وأوهايو ومينسوتا وميتشجان وإلينوي، ورغم رصد مكافأة قدرها ١٥ ألف دولار مقابل رأسه حيّاً أو ميتاً فإنّ الشّرطة المحلّية لم تفلح في التصدّي له، وقُتل في نهاية المطاف على يد رجال مكتب التّحقيقات الفيدرالي. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

أشعلت تشاينا سيجارة وقامت بتبريد أدوات تجعيد الشّعر. وقالت:

ـ لابدّ أنّك كنت من مشاهير الأغبياء.

توقّفت ماري قائلة:

ـ ومن أين لي أن أعرف؟ وما جدوى ارتداء شيء يتعيّن عليك خلعه طوال الوقت؟ لم يحدث قطّ أن تركني ديوي أرتديها وقتاً طويلاً بما يكفي للاعتياد عليها.

كان هذا شيئاً جديداً بالنسبة لبيكولا، قالت:

ـ ديوي من؟

ـ ديوي من؟ يا للجبانة! ألم تسمعيني وأنا أروي حكاية ديوي؟

قالتها ماري وقد صدمت إزاء إهمالها:

ـ كلاّ، يا سيّدتي!

ـ أوه، يا عسل، فاتك نصف عمرك. هواه، يا يسوع! واحد ـ تسعة ـ خمسة. إنّك تتحدّثين عن الرّقة ذاتها. قابلته عندما كنت في الرّابعة عشرة من العمر، هربنا وتعاشرنا معاشرة الأزواج ثلاثة أعوام، أتعرفين كلّ أولئك المتباهين الّذين ينطلقون هاهنا؟ لو أنّ خمسين منهم وُضِعوا في طبق لما عادلوا عظمة كاحل ديوي برنس. أوه، يا إلهي! لشدّ ما أحبّني ذلك الرّجل!

رتّبت تشاينا شعرها بحيث يتّخذ شكلاً مستقيماً عند الجبين:

ـ لماذا إذن تركك تبيعين ذيلك؟

ـ عندما اكتشفت، يا فتاة، أنّ أحدهم سيدفع نقداً وفوراً مقابله، كان بمقدورك أن تصرعيني بريشة لفرط ذهولي.

شرعت بولاند في ضحك مكتوم. وقالت:

ـ وأنا أيضاً. جلدتني عمّتي في تلك المرّة الأولى عندما قلت لها إنّني لم أحصل على أيّ نقود. قلت: نقود؟ مقابل ماذا؟ إنّه ليس مديناً لي بشيء. قالت بحقّ الجحيم ليس مديناً!

غرقنَ جميعاً في الضّحك.

ثلاث مخلوقات بشعات مرحات. ثلاث نسوة شَكِسات مَرِحات، رحن يضحكن من زمن الجهل بالحقائق الّذي بَعُد العهد به. لم يكنّ من المنتميات إلى تلك الأجيال من العاهرات اللّواتي يتمّ إبداع شخصياتهنّ في الرّوايات، بقلوب كبيرة وكريمة، دائبات، بسبب فظاعة الظّروف، على تحسين حياة الرّجال العقيمة المجرّدة، لا يحصلن على المال إلاَّ عرضاً، وبلا تبجّح، لقاء «تفهّمهنّ». كما لم يكنَّ من تلك النّوعية الحسّاسة من الشّابات اللّواتي انحرفن على يد القدر، واضطررن لاتّخاذ مظهر قوامه الهشاشة الظّاهريّة لحماية ربيعهنّ من المزيد من الصّدمات، ولكنّهن يعلمن تماماً أنهنّ خلقنَ لأمور أفضل وبمقدورهنّ جعل الرّجل المناسب رجلاً سعيداً، كما لم يكنَّ العاهرات القذرات المتسيّبات اللّواتي يعجزن عن العيش من مهنتهنّ وحدها، فيتحوَّلنَ إلى تعاطي المخدّرات وترويجها أو إلى قوّادات للمساعدة في استكمال مخطّط تدميرهنّ لأنفسهنّ، ولا يتجنّبنَ الانتحار إلاَّ لمعاقبة ذكرى أب غائب أو للإبقاء على بؤس أمّ صامتة. وباستثناء حبّ ماري الأسطوري لديوي برنس، فقد كرهت هؤلاء النّسوة الرّجال، الرّجال جميعاً، دونما خجل، أو دفاع عن موقفهنّ، وبلا تمييز. وكنّ يؤذينَ زوّارهنّ بسخرية غدت آليّة من فرط ما استُخدمت. سود، بيض، بورتوريكيّون، مكسيكيّون، يهود، بولنديّون، كائناً من كانوا ـ كلّهم كانوا ضعفاء وغير أكفياء، كلّهم

twitter @baghdad_library

رمقتهم عيونهنّ المترعة بالغضب والاشمئزاز وكانوا موضع حنقهنّ المجرّد من الاهتمام. وكنّ يبتهجن بخداع الرّجال. وذات مرّة ذاع أمرها في المدينة، أغوين يهودياً بصعود الدّرج، وانقضضن عليه، ثلاثتهنّ، وأمسكن به من كعبيه، ونفضن كلّ شيء في جيوب سرواله، وألقين به من النّافذة.

ولم يستشعرن احتراماً للنساء اللّواتي، على الرّغم من أنهنّ لم يكنّ زميلات، إن صحّ التّعبير، فإنهنّ كنّ يخدعن أزواجهنّ، بانتظام أو بغير انتظام، لا فارق هناك. وكنّ يسمينهنَّ بـ «العاهرات المكسوّات بالسُّكَّر» ولا يَتُقْنَ لأن يكنّ مثلهنّ. وكنّ يمحضن احترامهنّ الفريد لمن يصنّفنهنّ بأنّهنّ «النّسوة الملوّنات المسيحيّات الطيّبات». المرأة النّقية السّمعة بلا شائبة، الّتي ترعى أسرتها، ولا تشرب، ولا تدخّن، ولا تنطلق حسبما طاب لها. وهؤلاء النّسوة لهنّ عاطفتهنّ الّتي لا تموت وإن خفيت عن الأنظار. يرقدن مع أزواجهنّ، ويحصلن على نقودهم، ولكن مع وجود الانتقام دائماً.

كما لم يكنّ مدافعات ولا توّاقات إلى براءة مقتبل العمر. كنّ ينظرن إلى شبابهنّ باعتباره فترة جهل، ويشعرن بالأسف لأنهنّ لم يستفدن منه على نحوٍ أكبر. لم يكنّ شابّات في زيّ بغايا، أو عاهرات يأسفن على فقدهنّ للبراءة. وإنّما كنّ بغايا في زيّ بغايا، عاهرات لم يكنّ في ميعة الصّبا قطّ وكلمة البراءة لا موضع لها في قاموسهنّ. وكنّ يشعرن مع بيكولا بالعفويّة والبُعد عن التحرّج اللّذين تحسّهما إحداهنّ مع الأخريات. وقد قامت ماري بتلفيق الحكايات الّتي تناسبها؛ لأنّها طفلة، لكن الحكايات كانت مرحة وبعيدة عن التّهذيب. ولو أنّ بيكولا أعلنت عزمها على أن تعيش الحياة الّتي

يعشنها لما حاولن تثبيط عزمها أو أبدين انزعاجهنّ.

ـ هل أنجبتِ أطفالاً من ديوي برنس يا آنسة ماري؟

ـ نعم، نعم، أنجبنا أطفالاً

تململت ماري بعصبيّة، وانتزعت مشبك شعر عريض محكم الانطباق من شعرها، وشرعت تخلّل به أسنانها. وكان معنى ذلك أنّها لم تعد ترغب في المزيد من الحديث.

مضت بيكولا إلى النّافذة وأطلّت على الشّارع الخاوي. كانت باقة أعشاب قد شقّت طريقها متصاعدة من صدع في الرّصيف لتأخذ بخناقها ريح تشرين الأوّل (أكتوبر) الضّارية. فكّرت في ديوي برنس وكيف أحبّ الآنسة ماري. راحت تتساءل: أيّ إحساس هو الشّعور بالحبّ؟ كيف يتصرّف الكبار عندما يتحابّون؟ يأكلون السّمك معاً؟ تراءت أمام عينيها صورة تشوللّي والسيّدة بريدلوف وهما في الفراش. تندّ عنه أصوات كما لو كان يعاني ألماً، كأنّما يأخذ أحدهم بخناقه ويأبى أن يطلقه. ورغم فظاعة الأصوات الّتي يحدثها فإنّها ليست بمثل فظاعة عدم صدور صوت على الإطلاق من أمّها. بدا الأمر كما لو أنّها لم تكن هناك قطّ. ربّما كان ذلك هو الحبّ. أصوات اختناق وصمت.

حوّلت بيكولا عينيها عن النّافذة، ونظرت إلى النّسوة.

كانت تشاينا قد غيّرت رأيها فيما يتعلّق باستقامة خطّ الشّعر المنسدل على الجبين، وصفَّفت شعرها برفعه عالياً على الرأس على طريقة بومبادور. كانت ماهرة في إبداع أيّ عدد تشاء من تسريحات الشّعر، لكن كلّ تسريحة كانت تترك على ملامحها أثراً من الانزعاج

twitter @baghdad_library

والضّيق، ثـمّ وضعـت طبقـة كثيفـة مـن مسـاحيـق التّجميـل، ومنحـت نفسها حاجبين يوحيان بالدهشة وفماً على شكل قوس كيوبيد. وفي وقت لاحق سترسم حاجبين شرقيّين، وفماً مشقوقاً على نحوٍ شرّير.

شرعت بولاند تغنّي بصوتها الّذي يشبه ثمرة فراولة حلوة أغنية أخرى:

أعرف فتى أسمر، بشرته في رقّة السّماء،
أعرف فتى أسمر، بشرته في رقّة السّماء،
يتواثب التّراب نشوة عندما تمسّ قدماه الأرض.
اختياله طاووس،
عيناه نحاس متّقد،
ابتسامته حلاوة ذائبة تتقاطر وئيدة حتّى النّهاية.
أعرف فتى أسمر، بشرته في رقّة السّماء.

جلست ماري تقشّر حبّات الفول السّوداني، وتقذف بها إلى فمها. راحـت بيكـولا تنظـر، وتمعـن النّظـر فـي النّسـوة. أهـنّ حقيقيّـات؟ تجشّأت ماري برقّة، وبصوت خفيض، وعلى نحو مفعم حبّاً.

الشـــتاء

twitter @baghdad_library

وجه أبي جدير بالدّراسة؛ فالشّتاء يزحف إليه، ويقبع هناك، وتغدو عيناه صخرة من ثلج تهدّد بالانهيار تيهوراً، وينعقد حاجباه كغصنيْ شجرة تجرّدت من الأوراق، وتكتسي بشرته بلون شمس الشّتاء الأصفر، الشّاحب، الجهم، ويحاكي فكّه أطراف حقل مُثْقَل بالثلج تطلّ منه نبتة باقية من الحصاد، وجبينه العالي يشبه مجذاف إري[1] الّذي يحجب خواطر باردة تدوِّم في الظّلام. قاتل ذئاب انقلب محارباً للصقور، كان يعمل ليلاً ونهاراً لإبعاد أحدها عن الباب والآخر عن قواعد النّافذة. فُلكان[2] يحرس ألسنة اللّهب، يوجّهنا إلى الأبواب الّتي يتعيّن أن نوصدها أو نفتحها من أجل التّوزيع المناسب للحرارة، يرقد مُذْكِياً النّار، ويناقش خصائص الفحم، ويعلّمنا كيف نسعِّر النّار، ونغذّيها، ونغطّيها بالرماد أو بوقود جديد لتشتعل على مهل وقتاً أطول، ولن يمسّ بالموسى الشّعر الّذي يحيط بشفتيه إلى أن يهلّ الرّبيع.

شدّ الشّتاء رؤوسنا بعصابة من البرد، وأذاب أعيننا، وضعنا فلفلاً في أقدام جواربنا، وفازلين على وجوهنا، وحدّقنا في الصّباحات الثّلجيّة المدلهمّة في أربع ثمار برقوق مسلوقة على مهل، وأكوام زلقة

---

(١) في الأصل Erie وربّما كان المراد بها إحدى ربّات الغضب والانتقام Furies في الميثولوجيا الإغريقيّة. (هـ.م.)

(٢) إلّه النّار وربّ الحرف في الميثولوجيا الرّومانيّة، يعادل هيفايستوس في الميثولوجيا الإغريقيّة. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

من دقيق الشّوفان، والكوكة الّتي يعلوها الجلد.

لكنّنا في معظم الوقت كنّا ننتظر قدوم الرّبيع، عندما يكون من الممكن أن توجد حدائق.

في الوقت الّذي صلّب هذا الشّتاء ذاته متحوّلاً إلى أنشوطة مقيتة لا يملك أحد لها فكاكاً، حدث شيء أدّى إلى فكّ عقدتها، أو ظهر شخص بالأحرى ليقوم بذلك. شخص مزّق العقدة إلى خيوط فضيّة شبكتنا وأوقعتنا في الشَّرَك، وجعلتنا نتوق إلى رثاثة الضّجر السّابق الكئيبة.

تمثّل هذا الشّخص الّذي قطع استمراريّة المواسم في فتاة جديدة في المدرسة تُدعى مورين بيل، طفلة سمراء فاتحة اللّون كأنّما أطلّت من الأحلام، ذات شعر بنّي اللّون، مضفور ضفيرتين في غلظ حبال المشانق تنسدلان على ظهرها. كانت ثريّة، على الأقل بمعاييرنا، ثريّة كأغنى الفتيات البيضاوات، تعيش في دعة وترف، وهدَّد مستوى ملابسها الرّفيع بأن يصيبني وفريدا بالخبل. أحذية جلديّة مبطّنة، مزوّدة بحلى معدنيّة، لم نكن نحصل على تقليدها الأرخص ثمناً إلاّ في عيد الفصح، وبحلول شهر أيّار (مايو) تكون قد اهترأت. صداريّات مزغبة بلون قطرات اللّيمون تدسّ أطرافها السّفليّة في تنّورات ذات ثنيات بالغة الانتظام إلى حدّ أنّها أثارت ذهولنا. جوارب فاتحة الألوان تصل إلى الرّكبة ذات حوافٍ بيضاء. معطف بنّي مخملي زُيّنت أطرافه بفراء أرنب أبيض، وموفة[1] تتناسق معه في

(١) الموفة Muff غطاء طويل، أنبوبيّ الشّكل، مكسوّ بالفراء وغيره من المواد المماثلة يستخدم في المناطق الباردة لتدفئة اليدين، وهو يحمل إشارة واضحة إلى التّرف البالغ والحياة الليّنة (هـ. م.)

اللّون. كان هناك ما يوحي بالربيع في عينيها الدّاكنتي الخضرة، وثمّة شيء صيفي في بشرتها، ونضج خريفي ثريّ في مشيتها.

فتنت المدرسة بأسرها. وعندما كان المدرّسون ينادونها، كانوا يبتسمون على نحو يوحي بالتشجيع. ولم يطاردها الفتية السّود في القاعات، ولم يرجمها الفتية البيض بالأحجار، ولم تهزأ بها الفتيات البيضاوات عندما تُعَيَّن شريكة لهنّ في عملهنّ، وكانت الفتيات السّوداوات يتنحّيْنَ جانباً عندما كانت تريد استخدام المغسلة في حمّام الفتيات. وكانت أعينهنّ تنخفض احتراماً تحت جفون مسدلة. ولم يحدث أن اضطرّت قطّ للبحث عن أحد لتناول الطّعام معها في المقصف، فقد كانت الفتيات يتهافتن على المائدة الّتي اختارتها، حيث تفتح وجبات غداء توحي بالحساسيّة الشّديدة في مجال الذّوق، تتوارى أمامها خجلاً شطائرنا المؤلّفة من الخبز المدهوك بالهلام وسلطة البيض، والمقطّعة إلى أربعة أرباع سهلة الكسر، وفي وجبات طعامها أيضاً كعكات مُكَوَّبة يعلوها زَبَد أحمر وردي، وأعواد من الكرفس والجزر، وتّفاحات قاتمة الحمرة تتيه فخراً بنفسها، بل إنّها كانت تجلب الحليب معها وتؤثره.

اجتذبتني مع فريدا، وضايقتنا، وفتنتنا. وبحثنا بمزيد من الدّقة عن عيوب فيها لكي نستعيد توازننا، ولكنّنا اضطررنا في البداية إلى الاقتناع بتشويه اسمها وتغييره من مورين بيل إلى مرنج پاي[1]

---

(١) Meringue Pie المرنج باي كعكة صغيرة تُعَدّ من مزيج من السكّر وبياض البيض، ووجه التّشويه أنّ الاسم الجديد يشير إلى أنّ مورين فتاة مدلّلة إلى أبعد حدود التّرف، وهو ما يُعَدُّ إهانة في عرف الوسط الخشن الّذي تعيش فيه كلوديا وفريدا. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

وفي وقت لاحق حظينا بمعجزة صغيرة عندما اكتشفنا أنّ لها ناباً بارزاً ـ من المؤكّد أنّه جذّاب المظهر ـ لكنّه يظلّ ناباً بارزاً، وابتسمنا عندما اكتشفنا أنّها قد ولدت بستّة أصابع، وأنّ هناك تضخُّماً صغيراً في الموضع الّذي أزيل فيه كلّ إصبع زائد. كانت تلك انتصارات صغيرة، لكنَّنا أخذنا ما أمكننا الحصول عليه، ورحنا نضحك ضحكاً نصف مكبوت وراء ظهرها داعيتيْن إيّاها بالمرنج باي ذات الأصابع الستّة والنّاب البارز. ولكنّنا اضطررنا إلى القيام بذلك بمفردنا. إذ لم تقبل أيّ من الفتيات التّعاون معنا في إبداء العداء لها؛ فقد كنّ يحببنها إلى حدّ العبادة.

وعندما خُصِّصت لها خزانة لحفظ حاجياتها بجوار خزانتي، كان بمقدوري الانغماس في غيرتي أربع مرّات في اليوم. وكانت لديّ وأختي شكوك في أنّنا كنّا في قرارة نفسينا على استعداد لمصادقتها، إذا أتاحت لنا الفرصة، ولكنّني كنت أعرف أنّ من شأنها أن تكون صداقة فطرة؛ ذلك أنّني عندما كانت عيناي تتابعان زخارف الحافة البيضاء لجوارب كيلي ـ جرين الّتي تعلو إلى الرّكبة، وأحسّ بجذب جواربي البنّيّة وتراخيها كنت أريد أن أركلها. وعندما فكّرت في التّعالي الكامن في عينيها، الّذي لم تبذل ما يجعلها جديرة به، تآمرت للقيام بعمليّات رطم عرضيّة لأبواب الخزائن بيدها.

غير أنّنا كصديقتين، بحكم تجاور خزانتينا، كان على كلّ منّا أن تعرف الأخرى بعض الشيء، بل لقد تمكّنت من إجراء حوار معقول معها، دون أن أتخيّلها وهي تهوي من فوق صخرة، أو دون أن أشقّ طريقي ضاحكة نحو ما أظنّه إهانة حاذقة لها.

ذات يوم لحقت بي، بينما كنت أنتظر عند الخزانة مقدم فريدا:

ـ مرحباً!
ـ مرحباً!
ـ تنتظرين أختك؟
ـ أهه.
ـ أيّ طريق تسلكانه إلى الدّار؟
ـ الشّارع الحادي والعشرون إلى برودواي.
ـ لماذا لا تمضين عبرالشّارع الثّاني والعشرين؟
ـ لأنّني أسكن في الشّارع الحادي والعشرين.
ـ أوه. أعتقد أنّ بمقدوري السّير من ذلك الطّريق، في جانب منه على أيّ حال.
ـ أنت حرّة في طريقك.

أقبلت فريدا نحونا، وجوربها يكاد يلتصق بالركبة لأنّها طوت مقدّمته لإخفاء ثقب في موضع الأصبع.

ـ ستمضي مورين في جزء من الطّريق معنا.

تبادلت وفريدا نظرات عجلى، وناشدتني عيناها ضبط النّفس، بينما لم تَعِدْ عيناي بشيء.

كان يوماً من الأيّام الموحية بربيع زائف، اخترق، مثل مورين، قشرة شتاء قاتل. كانت هناك بريكات ماء، ووحل، ودفء يدعو للانطلاق قد ضلّلنا. يوم من نوعيّة الأيام الّتي نسدل فيها معاطفنا فوق رؤوسنا، ونترك أحذيتنا المطّاطيّة الفوقيّة، ونعود في اليوم التّالي بالتهاب في الحنجرة. وكنّا على الدّوام نستجيب لأدنى تغيير في الطّقس، ولأدقّ تحوّل في الوقت خلال النّهار. وقبل أن تتقلقل

twitter @baghdad_library

البذور في موضعها بوقت طويل كنّا نبحث في الأرض ونتلمّسها بفضول، ونعبّ الهواء عبّاً، وننهل من المطر.

فيما كنّا نخرج من المدرسة مع مورين شرعنا، على الفور، في التخفّف من بعض ملابسنا، وضعنا أوشحة رؤوسنا في جيوب معاطفنا، ورفعنا هذه الأخيرة على رؤوسنا. ورحت أتساءل عن الكيفيّة الّتي يمكننا بها المناورة لإلقاء موفة مورين في قناةِ صَرْفٍ جانبيّة، عندما اجتذبت انتباهنا حركة مليئة بالضجّة والاهتياج في أرض الملاعب؛ فقد تحلّقت مجموعة من الفتية حول ضحيّة، هي بيكولا بريدلوف، وأبعدتها عن الآخرين.

أحاط بها باي بوي، وودرو كين، بادي ولسون، جوني باج، كعقد من الأحجار شبه الكريمة. ومضوا يكيلون لها المضايقات في مزيد من المرح، وقد أهاجتهم الرّائحة النفّاذة المنبعثة منهم وأبهجتهم القوّة السّهلة المنال الّتي تحظى بها الأغلبيّة.

ـ يا سودا زلط، يا سودا زلط، أبوك نومه ملط. يا سودا زلط، يا سودا زلط، أبوك نومه ملط، يا سودا زلط. (١)

كانوا قد ارتجلوا بيتاً من الشّعر مؤلّفاً من إهانتين لا سيطرة للضحيّة عليهما، لون بشرتها وتكهّنات بعادات الكبار في نومهم، وهما تتناسبان في عدم تماسكهما، ولم تكن هناك أهمّيّة لكونهم هم

---

(١) الأصل بالعامّية المستخدمة في دوائر السّود الأمريكيّين، وتلك أقرب ترجمة إلى الأصل، وإن راوغ معناها بعض القرّاء، فإنّي أعتذر لهم، فكلّ ترجمة في النّهاية هي اختيار لبديل، قد لا يرضى عنه المرء كلّ الرّضا، والمقاطع اللاّحقة في المتن ستوضح المعنى. (هـ.م.)

أنفسهم من السّود أو لوجود عادات مماثلة في التسيّب لدى آبائهم. كان ازدراؤهم لسوادهم هو الّذي منح الإهانة الأولى أسنانها القاطعة. بدا أنّهم قد أخذوا كلّ جهلهم الّذي غُرس على مهل، وكراهيّتهم لأنفسهم الّتي تعلّموها على نحو رائع، وعجزهم المصمّم قصداً، وامتصّوه متصاعدين به إلى مخروط ناري من السخرية اتّقد طوال دهور في تجاويف أذهانهم ـ وبرد ـ وانسكب على شفاه من غضب حانق مجتاحاً كلّ ما في طريقه. راحوا يرقصون رقصة باليه رهيبة حول الضّحيّة الّتي أعدّوها من أجل أنفسهم، ليضحّوا بها للأخدود المتأجّج لهباً.

يا سودا ملط، يا سودا ملط، أبوك نومه ملط.

ستش تاتا ستش تاتا

ستاش تاتاتاتاتا

مضت بيكولا إلى حافة الدّائرة وهي تبكي. وكانت كرّاستها قد سقطت منها، وحجبت عينيها بيديها.

راقبنا المشهد، وقد داخلنا الخوف من أن يلاحظونا فيحوِّلوا طاقاتهم نحونا، ثمّ انتزعت فريدا، بشفتين مطبقتين على نحوٍ صارم وقد ارتسمت نظرة أمّي في عينيها معطفها من رأسها، وألقته على الأرض. انطلقت عَدْواً نحوهم، وانهالت بكتبها على رأس وودرو كين. انفضت الحلقة. وأمسك وودرو كين رأسه بقوّة متألّماً.

ـ هيه، يا فتاة!

ـ توقّفوا عن ذلك! أتسمعونني؟

لم يسبق لي قطّ أن سمعت صوت فريدا يتردّد بمثل هذا الارتفاع والوضوح البالغيْن.

twitter @baghdad_library

ربّما لأنّ فريدا كانت أطول قامة من وودرو، ربّما لأنّه رأى ما ارتسم في عينيها، ربّما لأنّه فقد اهتمامه باللّعبة، أو ربّما لأنّه مولع بفريدا، فإنّه على أيّ حال بدا خائفاً وقتاً طويلاً بما يكفي لمنحها المزيد من الشّجاعة.

ـ دعوها وشأنها، وإلاّ أبلغت الجميع بما فعلتم!

لم يُحِرْ وودرو ردّاً، وإنّما راح يقلّب نظراته فحسب على نحوٍ يوحي بالانفعال.

شرع باي بوي في الحديث، قائلاً:

ـ انصرفي يا فتاة! فلم يسئ إليك أحد.

تدخّلت قائلة:

ـ اخرس، يا رأس الرّصاصة!

ـ من هو الّذي تطلقين عليه لقب رأس الرّصاصة؟

ـ أدعوك أنت برأس الرّصاصة، يا رأس الرّصاصة!

أمسكت فريدا بيد بيكولا، قائلة: «هيّا».

جمع باي بوي قبضته في مواجهتي قائلاً:

ـ أتريدين الخروج بشفة متورّمة؟

ـ بلى، أعطني إحدى شفتيك!

ـ لسوف تتورّم شفتك.

ظهرت مورين عند مرفقي، وبدا الفتية متردّدين في الاستمرار على مرأى من عينيها الرّبيعيّتين اللّتين اتّسعتا اهتماماً بالموقف. مضوا يتلوّون في حيرة، غير راغبين في ضرب ثلاث فتيات تحت نظراتها المحدِّقة، ومن ثمّ أصغوا لنداء غريزة ذكوريّة مبرعمة دعتهم إلى التّظاهر بأنّنا غير جديرات باهتمامهم.

ـ هلمّ بنا، يا رجل!

ـ نعم، هلمّ بنا، فليس لدينا وقت لحديث الحمقى هذا معهنّ.

دمدموا ببعض الصّفات والألقاب الموحية بعدم الاهتمام، ومضوا مبتعدين.

التقطتُ كرّاسة بيكولا ومعطف فريدا، وغادر أربعتنا الملعب.

ـ رأس الرّصاصة العجوز. إنّه يضايق الفتيات دائماً.

أقرّتني فريدا فيما ذهبت إليه.

ـ قالت الآنسة فورستر إنّه مستعصٍ على التّقويم.

ـ حقّاً؟

قلتها دون أن أعرف ما الّذي يعنيه ما قالته فريدا، ولكنّه أوحى في نغمته بمؤشّرات للنهاية تكفي لانطباقه على باي بوي.

فيما عكفتُ وفريدا على الحديث بصوتٍ عالٍ عن شبه المشاجرة هذه، تحرّكت مورين فجأة، وتأبّطت بذراعها المكسوَّة بالمخمل ذراع بيكولا، وشرعت في التصرّف كما لو كانتا أقرب الأصدقاء إحداهما من الأخرى:

ـ لقد انتقلت إلى هنا لتوّي. اسمي مورين بيل. ما هو اسمك؟

ـ بيكولا

ـ بيكولا؟ ألم يكن هذا هو اسم الفتاة في «تقليد الحياة»؟

ـ لا أعلم. وماذا عساه يكون؟

ـ إنّه فيلم، كما تعلمين، حيث تكره هذه الفتاة الخلاسيّة أمّها لأنّها سوداء وقبيحة، ولكنّها تبكي في الجنازة. كان شيئاً محزناً حقّاً، بكى فيه الجميع. وكلوديت كولبير أيضاً.

twitter @baghdad_library

ـ أوه.

لم يكن صوت بيكولا أكثر من تنهيدة.

ـ على أيّ حال كان اسمها بيكولا أيضاً. وكانت جميلة للغاية. عندما يعاد عرضه سأراه مجدّداً. لقد شاهدته أمّي أربع مرّات.

مضيتُ وفريدا وراءهما، وقد أدهشنا الوِدّ الّذي أبدته مورين لبيكولا ولكنّه أسعدنا. ربّما لم تكن سيّئة في نهاية المطاف. كانت فريدا قد وضعت معطفها على رأسها مجدّداً، وسرنا معاً بمظهرنا البالغ البؤس على مهل مستمتعتيْن بالنسيم الدّافئ وببطولات فريدا.

سألت مورين بيكولا:

ـ إنّك في صفّ التّمرينات الرّياضيّة معي أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ من المؤكّد أنّ ساقَي الآنسة إريكميستر مقوَّستان. أراهن أنّها تعتقد أنّهما ظريفتان. كيف حدث أنّها ترتدي سروالاً قصيراً حقيقيّاً ويتعيّن علينا أن نرتدي تلك السّراويل الفضفاضة المزمومة عند الرّكبتين؟ إنّني أشعر بالرغبة في المرت كلّما اضطررت لارتدائها.

ابتسمت بيكولا، لكنّها لم تنظر إلى مورين.

توقّفت مورين فجأة:

ـ هناك فرع لمحلّ إيساليز. هل ترغبن في بعض الآيس كريم؟ لديّ نقود.

فتحت سحّاب جيب خفي في موفتها، واستخرجت رزمة دولارات تضمّ أوراقاً ماليّة عديدة. اغتفرت لها امتلاكها لتلك الجوارب.

قالت مورين لثلاثتنا:

ـ رفع عمّي قضيّة على إيساليز. رفعها على فرع إيساليز في

أكرون. قالوا إنّه لم يكن مهنداً، وأنّ ذلك هو السّبب في أنّهم لم يقدّموا له ما طلب شراءه. لكن صديقاً له، شرطيّاً، جاء، وشهد على ما وقع، وهكذا تكلّلت القضيّة بالنجاح.

ـ وما هي القضيّة؟

ـ إنّها تحدث عندما يكون بمقدورك أن تهزميهم إذا أردت، ولا يستطيع أحد أن يفعل لك شيئاً. وعائلتنا تفعل ذلك طوال الوقت، فنحن نؤمن بجدوى القضايا.

عند مدخل محلّ إيساليز، التفتت مورين إليّ وإلى فريدا متسائلة:

ـ هل ستبتاعان بعض الآيس كريم؟

نظرنا إحدانا إلى الأخرى. وقالت فريدا:

ـ لا

اختفت مورين في المحلّ مع بيكولا

تطلّعت فريدا بهدوء إلى امتداد الشّارع. فتحت فمي، ولكنّني أطبقته مسرعة، كان أمراً مهمّاً إلى أبعد الحدود ألاّ يعرف العالم أنّني توقّعت بصورة كاملة أن تشتري مورين لنا بعض الآيس كريم، وأنّني على امتداد المائة وعشرين ثانية الماضية كنت أختار النّكهة، وأنّني شرعت في استلطاف مورين، وأنّ أيّاً منّا لم يكن لديها سنت واحد.

حسبنا أنّ مورين عاملت بيكولا بلطف بسبب ما ألحقه الفتية بها، وأحرجنا أن نُضبط ـ حتّى من قبل إحدانا الأخرى ـ ونحن نفكّر في أنّها ستدعونا لتناول الآيس كريم، أو أنّنا استحققناه بقدر ما استحقّته بيكولا

twitter @baghdad_library

خرجت الفتاتان، وقد حملت بيكولا غَرْفَتين من البرتقال ـ الأناناس، وحملت مورين توت العلّيق الأسود.

قالت:

ـ كان ينبغي أن تحصلا على بعض منه؛ فلديهم كلّ الأصناف.

وجّهت النّصح إلى بيكولا قائلة:

ـ لا تأكلي الآيس كريم حتّى طرف القمع.

ـ لِمَ؟

ـ لأنّ هناك ذبابة فيه.

ـ من أين لك أن تعرفي ذلك؟

ـ أوه، ليس الأمر حقيقيّاً، قالت لي فتاة إنّها وجدت ذبابة في قاع قمعها ذات مرّة وأنّها منذ ذلك الحين وهي تلقي بذلك الجزء بعيداً.

ـ أوه.

مررنا بمسرح الدّريملاند، وبدت صورة بيتي جريبل مبتسمة من فوقنا.

تساءلت مورين:

ـ ألا تحبّينها؟

قالت بيكولا:

ـ أهه.

اختلفت معها في الرّأي:

ـ هيدي لامار أفضل منها.

أقرّت مورين ما قلته.

ـ أوه ه ه نعم. حدّثتني أمّي بأنّ فتاة تدعى أودري، ذهبت إلى صالون التّجميل، حيث كنّا نسكن قبلاً، وطلبت من السيّدة العاملة

هناك أن تصفّف شعرها مثل شعر هيدي لامار، فقالت السيّدة: نعم، عندما يصل طول شعرك إلى طول شعرها.

قالتها مورين وضحكت ضحكة عذبة، مسترسلة.

قالت فريدا:

ـ يبدو هذا القول كأنّما صدر عن معتوهة.

ـ بالتأكيد هو كذلك. أتعرفن أنّها لم تبدأ دورتها الشهريّة بعد وهي في السّادسة عشرة. هل بدأت دوراتكنّ؟

تطلّعت بيكولا إلينا، قائلة:

ـ نعم.

لم تبذل مورين أيّ محاولة لإخفاء اعتداءها، وهي تقول:

ـ وكذلك أنا. بدأت دورتي قبل شهرين. قالت صديقتي توليدو، حيث كنّا نسكن في السّابق إنّها عندما بدأت خافت حتّى الموت، وظنّت أنّها أصابت نفسها في مَقْتَل.

ـ أتعرفين الغرض منها؟

طرحت بيكولا هذا السّؤال وكأنّها تأمل في أن تتولّى هي الردّ عليه.

رفعت مورين حاجبين دقيقين كأنّما رسما بالقلم الرّصاص دهشة من وضوح السّؤال:

ـ إنّها من أجل الأطفال، فهم يحتاجون إلى الدّم عندما يكونون بداخلك، وإذا كنت حاملاً فإنّ الدّورة لا تحدث، ولكن عندما لا تكونين حاملاً، فإنّك لا يتعيّن عليك توفير الدّم، ولذا فإنّه يتسرّب للخارج.

twitter @baghdad_library

سألت بيكولا:

ـ كيف يحصل الأطفال على الدّم؟

ـ من خلال ما يشبه الحبل، حيث توجد سُرّتك، ذلك هو الموضع الّذي ينمو منه ما يشبه الحبل، ويضخّ الدّم إلى الطّفل.

ـ طيّب. إذا كانت السُّرّات ستنمو منها أشباه الحبال لتغذّي الأطفال بالدم، وإذا كانت الفتيات وحدهنّ يحملن الأطفال فكيف تأتّى أن يكون للأولاد سرّات كذلك؟

تردّدت مورين، وأقرّت بجهلها:

ـ لست أدري، ولكن الأولاد لديهم أشياء عديدة لا يحتاجونها.

كانت ضحكتها الرنّانة أقوى بعض الشيء من ضحكاتنا العصبيّة. لفّت لسانها حول حافة القمع، ولعقت لعقة من الآيس كريم أرجوانيّة اللّون دفعت بالدّمع إلى حواف عينيّ. كنّا ننتظر تغيير أضواء علامة مرور، وواصلت مورين لعق الآيس كريم ممّا حول حافة القمع بلسانها، ولم تقضم الحافة كما كان حريّاً بي أن أفعل. دار لسانها دورة حول القمع. وأتت بيكولا على قمعها. بدا جليّاً أنّ مورين تحبّ أن تدوم أشياؤها وقتاً أطول. وفيما كنت أفكّر في الآيس كريم الّذي التهمتْه، لابدّ أنّها كانت تفكّر في الملاحظة الأخيرة الّتي قالتها؛ لأنّها قالت لبيكولا:

ـ هل حدث أن رأيت رجلاً عارياً قطّ؟

طرفت عينا بيكولا، ثمّ أشاحت بناظريها:

ـ لا أين عساني أشاهد رجلاً عارياً؟

ـ لست أدري. إنّما طرحت سؤالاً فحسب.

ـ ما كنت حتّى لأنظر إليه، حتّى لو كنت رأيته، فذلك أمر دنس. من تلك الّتي تريد رؤية رجل عارٍ؟

قالتها بيكولا منفعلة، وأضافت:

ـ لا يوجد أب يمكن أن يتعرّى أمام ابنته، إلاّ إذا كان دنساً كذلك.

ـ لم أقل «أب» وإنّما قلت «رجل عارٍ» فقط.

ـ طيّب.

قالت مورين، ملحّة في رغبتها في المعرفة:

ـ كيف حدث أنّك قلت «أب»؟

سعدت بأن أتيحت لي فرصة إظهار الغضب، ليس بسبب الآيس كريم فحسب، ولكن لأنّنا كنّا قد رأينا والدنا عارياً، ولم نكترث بتذكيرنا بذلك، ولم نشعر بالخجل الّذي يجلبه غياب الخجل. كان يمضي في الرّدهة من الحمّام إلى مخدعه، ومرّ بباب غرفتنا الموارب. كنّا راقدتيْن هنالك بأعين مفتوحة. توقّف، وأطلّ داخل الغرفة، محاولاً أن يتبيّن في الغرفة المظلمة ما إذا كنّا نائمتيْن بالفعل، أم أنّ الخيال قد أوحى إليه بأنّ عيوناً مفتوحة ترقبه؟ وقد أقنع نفسه، فيما يبدو، بأنّ ابنتيْه الصّغيرتيْن لن ترقدا مفتوحتَي الأعين على ذلك النّحو، محدّقتيْن، محدّقتيْن. وعندما مضى مبتعداً ابتلعه الظّلام وحده، ولم يبتلع عُريه، فذلك العُري بقي في الغرفة معنا، حضوراً ودوداً.

قالت مورين:

ـ لست أوجّه الحديث إليك. وفضلاً عن ذلك فلست أكترث إذا ما

twitter @baghdad_library

كانت قد رأت أباها عارياً، بمقدورها أن تنظر إليه طوال النّهار إذا أرادت. مَنْذا الّذي يكترث؟

قالت فريدا:

ـ أنت تكترثين، فذلك هو كلّ ما تتحدّثين عنه.

ـ ليس الأمر كذلك.

ـ إنّه كذلك. الفتية، الأطفال، ووالد إحداهنّ العاري. لابدّ أنّك مجنونة بالفتية.

ـ خير لك أن تلزمي الصّمت!

وضعت فريدا يدها على وركها، ودفعت بوجهها نحو مورين، قائلة:

ـ من الّتي سترغمني على ذلك.

ـ أنتنّ جميعاً على شاكلة البعض، على شاكلة الأمّ.

ـ كُفّي عن الحديث عن أمّي!

ـ طيّب. كُفّي عن الحديث عن أبي!

ـ ومن الّذي أتى على ذكر أبيك العجوز؟

ـ أنت فعلت ذلك.

ـ طيّب، أنت الّتي بدأتْ هذا الحديث.

ـ لم أكن أوجّه حديثي إليك، وإنّما كنت أوجّهه إلى بيكولا

ـ نعم، بشأن رؤية أبيها عارياً.

ـ وماذا إذا كانت قد رأته عارياً؟

صاحت بيكولا:

ـ لم يحدث قطّ أن رأيت أبي عارياً. لم يحدث.

ردّت مورين بحدّة:

ـ بل رأيته بدورك. قال لي باي بوي ذلك.
ـ لم أره.
ـ بل رأيتِه.
ـ لم أره.
ـ رأيتِه. أبوك. بدوره!

حنت بيكولا رأسها وجعلته يتداخل مع جمسها ـ حركة غريبة، حزينة، عاجزة. نوع من حَنْي الكتفيْن، واجتذاب العنق إلى الجسم، كأنّما أرادت أن تغطي أذنيها.

قلت:
ـ كُفّي عن الحديث عن أبيها!
تساءلت مورين:
ـ ما الّذي يعنيني في أبيها الأسود العجوز؟
ـ أسود؟ من الّذي تصفينه بأنّه أسود؟
ـ أنت!
ـ أتحسبين نفسك بالغة الظّرف!

طوّحتُ نحوها قبضتي وأخطأتها، وأصبت وجه بيكولا اشتعلت غضباً إزاء افتقاري للبراعة، وقذفتها بكرّاستي، لكنّ الكرّاسة لم ترتطم إلاَّ بمؤخّرتها المكسوّة بالمعطف المخملي؛ لأنّها استدارت ومضت تعود عبر الشّارع بمواجهة حركة المرور.

وإذ بلغت الجانب المقابل من الشّارع بأمان فقد صرخت بنا قائلة:
ـ أنا ظريفة وأنتنّ قبيحات! سوداوات وقبيحات. سودا زلط! سودا زلط! وأنا ظريفة.

twitter @baghdad_library

مضت مبتعدة في الشّارع عَدْواً، وجعل جوربها الأخضر ساقيها تبدوان كسوق هندباء برّيّة فقدت على نحو من الأنحاء رؤوسها. أذهلنا وقع ما قالته، ومرّت ثانية أو اثنتان قبل أن أستجمع وفريدا من شتات نفسينا ما نتمكّن معه من الصّياح:

ـ مرنج باي ذات الأصابع الستّة والنّاب البارز.

هتفنا بهذا الصوت مُنغّماً باعتباره أقوى ما في ترسانة إهاناتنا مادام كان بمقدورنا أن نرى السّوق الخضراء وفراء الأرنب.

قطّب الكبار بمواجهة الفتيات الثّلاث الواقفات على حافة الرّصيف، وقد أسدلت اثنتان منهما معطفيهما على رأسيهما فشكّلت الياقتان إطاراً يحيط بالحواجب، مثل أغطية الرّأس الّتي تعتمرها الرّاهبات، وقد لاحت أربطة سود في موضع ضغطها على أعلى الجوارب البنّيّة الّتي تغطّي الرّكب. وجوه غاضبة انعقدت كالقرنبيط الدّاكن.

وقفت بيكولا وحدها غير بعيدة عنّا، وعيناها معلّقتان بالاتّجاه الّذي هربت نحوه موريـن. بدت وكأنّها تطوي نفسها، كجناح مَطْويّ. وقد عذّبنا ألمها، أردت أن أجعلها تفكّ طيّاتها، وأن أمسّ برقّة حوافها، وأن أدفع بعصا في ذلك العمود الفقريّ المنثني والمَحْنِيّ، وأن أجبرها على أن تنتصب رافعة هامتها، وأن تبصق البؤس على الشّوارع. ولكنّها أبقته بداخلها فلم يتراكم ليبلغ عينيها.

انتزعت فريدا معطفها من رأسها، قائلة:

ـ هلمّي يا كلوديا! وداعاً يا بيكولا!

سرنا مسرعتيْن في البداية، ثمّ بسرعة أقلّ، وتوقّفنا بين الحين والآخر، لنثبّت مشدّي الجوارب، أو لعقد رباطَي الحذاء، أو

لنهرش، أو لنفحص آثارَ جروح قديمة. كنّا نغوصَ تحت حكمة كلمات مورين الأخيرة، ودقّتها، وأهمّيّتها. ولو أنّها كانت ظريفة ـ وإذا أمكن تصديق أيّ شيء فقد كانت كذلك ـ فإنّنا لم نكن ظريفات. وما الّذي كان ذلك يعنيه؟ كنّا أقلّ شأنا. ربّما ألطف، ربّما أكثر ذكاء، لكنّنا أقلّ شأناً رغم ذلك. كان بمقدورنا تحطيم دمى على شكل عرائس، ولكن لم يكن بمقدورنا القضاء على أصوات الآباء والعمّات المعسولة، الطّاعة في عيون زملائنا، البريق الزّلق في عيون مدرّسينا عندما يقابلون أمثال مورين بيل في الدّنيا. ترى ماذا كان السرّ في ذلك؟ ما الّذي كان ينقصنا؟ لماذا كان مهمّاً؟ وماذا إذن؟ وفي براءتنا وافتقارنا للغرور كنّا في ذلك العهد لانزال نحبّ أنفسنا، شعرنا بالارتياح في إهابنا، واستمتعنا بأنّ حواسّنا وهبت لنا وأعجبنا بقذارتنا، وراقبنا دونما انزعاج آثار جروحنا، ولم يكن بمقدورنا فهم عدم جدارتنا هذا. تفهّمنا الغيرة وحسبنا أنّها أمر طبيعي، رغبة في امتلاك ما لدى شخص آخر، ولكنّ الحسد كان شعوراً غريباً وجديداً بالنسبة إلينا. وكنّا نعرف طوال الوقت أنّ مورين ليست «العدوّ» وأنّها ليست جديرة بمثل هذه الكراهية الحادّة. كان «الشيء» الّذي يتعيّن أن نخافه هو «الشيء» الّذي جعلها جميلة، ولم يجعلنا كذلك.

كانت الدّار هادئة عندما فتحنا الباب. امتلأت أشداقنا بلعابنا بتأثير الرّائحة الحرّيفة المنبعثة من اللّفت الّذي يغلي برفق.

ـ ماما!

لم نسمع ردّاً على هتافنا، إلاّ صوت أقدام. كان السيّد هنري قد قطع جزءاً من الدّرج في هبوطه إيّاه، ولاحت ساق غليظة جرداء من رداء حمّامه.

twitter @baghdad_library

ـ مرحباً بك، يا جريتا جاربو، مرحباً بك يا جنجر روجرز!

منحناه الضّحكة الّتي ألفها:

ـ مرحباً، يا سيّد هنري! أين ماما؟

ـ ذهبت إلى دار جدّتكن، وتركت لكنّ رسالة لتقطيع اللّفت، وتناول بعض البسكويت الجافّ إلى أن تعود. إنّه في المطبخ.

جلسنا صامتتيْن إلى مائدة المطبخ، نكسّر البسكويت الجافّ لنحوّله إلى ما يشبه مساكن النّمل. بعد برهة هبط السيّد هنري الدّرج مجدّداً. الآن بدا أنّه قد ارتدى سرواله تحت رداء الحمّام.

ـ ألا تحبّان تناول بعض الآيس كريم؟

ـ أوه، بلى، يا سيّدي!

ـ هاكُما! إليكما ربع دولار! انطلقا إلى محلّ إيساليز وتناولا بعض الآيس كريم! لقد كنتما فتاتيْن طيّبتيْن. أليس كذلك؟

أعادت كلماته البهيجة الخُضرةِ اللّونَ إلى اليوم الكابي.

ـ بلى، يا سيّدي! شكراً لك، يا سيّد هنري. هل لك في أن تبلّغ ماما بحضورنا إذا جاءت؟

ـ بالتأكيد، ولكنّها لن تعود قبل بعض الوقت.

غادرنا الدّار، من دون معطفينا، وقطعنا الطّريق كاملاً إلى المنعطف، وعندها قالت فريدا:

ـ لست أريد الذّهاب إلى محلّ إيساليز.

ـ ماذا؟

ـ لست أريد تناول الآيس كريم، وإنّما أريد شرائح البطاطا المَقْليّة.

ـ لديهم شرائح بطاطا مَقْليّة في محلّ إيساليز.

ـ أعرف ذلك. ولكن لماذا نقطع كلّ تلك المسافة؟ إنّ الآنسة برْتا لديها شرائح بطاطا مَقْليّة.

ـ ولكنّني أريد تناول الآيس كريم.

ـ لا، يا كلوديا، لست تريدين تناوله.

ـ بل أريد تناوله.

ـ طيّب. اذهبي إلى محلّ إيساليز. أمّا أنا فسوف أذهب إلى محلّ الْانسة برْتا.

ـ ولكن ربع الدّولار معك. ولست أريد قطع الطّريق كاملاً إلى هناك وحدي.

ـ إذن، دعينا نذهب إلى محلّ الآنسة برْتا. فأنت تحبّين حلواها. أليس كذلك؟

ـ حلواها بلا مذاق دائماً، ثمّ إنّها دائماً ما تستنفد مخزونها.

ـ اليوم الجمعة، وهي تحصل على حلوى طازجة في أيّام الجُمَع.

ـ ثمّ إنّ ذلك العجوز المجنون سوبهيد تشيرش يقطن هناك.

ـ وماذا في ذلك؟ إنّنا معاً، ولسوف ننطلق عَدْواً إذا بدرت منه بادرة نحونا.

ـ إنّه يخيفني.

ـ طيّب. لست أريد المرور قرب محلّ إيساليز. افترضي أنّ مرنج باي تتلكّأ هناك. أتريدين مقابلتها، يا كلوديا؟!

ـ هلمّي، يا فريدا، سأحصل على الحلوى!

كان للآنسة برْتا محلّ صغير للحلوى والسّعوط والدّخان. غرفة واحدة مبنيّة بالطّوب في فِناء دارها الأمامي. يتعيّن عليك اختلاس

twitter @baghdad_library

النّظر عبر الباب، وإذا لم تكن هناك فإنّك تطرق الباب الخلفي لدارها. وفي هذا اليوم جلست وراء النّضد تقرأ الإنجيل في ضوء حزمة منسلّة من أشعّة الشّمس.

ابتاعت فريدا شرائح البطاطا المقليّة، وحصلنا على ثلاثة عيدان حلوى من نوع باورهاوس مقابل عشرة سنتات وبقي لدينا دايْمٌ. سارعنا بالعودة إلى الدّار لنجلس تحت شجيرات اللّيلك عند جانب الدّار. وكنّا نقوم دائماً هناك بأداء «رقصة الحلوى» الخاصّة بنا؛ لكي ترانا روزماري فتنهشها الغَيْرة. وكانت رقصة الحلوى تتألّف من الدّندنة والتّواثب فرحاً، والدقّ الإيقاعي على الأرض بأقدامنا، ومزيج من الالتهام ولعق الشّفاه والأصابع يُهيمن علينا عندما تكون معنا حلوى. وإذ زحفنا بين الشّجيرات وعند جانب الدّار فقد سمعنا أصواتاً وضحكاً. تطلّعنا إلى نافذة غرفة الجلوس متوقّعتيْن رؤية ماما، وبدلاً من ذلك شاهدنا السيّد هنري وامرأتيْن. كان عاكفاً، بطريقة عابثة، على نحو ما تفعل الجدّات مع الأطفال الحديثي الولادة، على امتصاص أصابع إحدى المرأتيْن، وقد أفعم ضحكها فراغاً صغيراً حول رأسه. أمَّا المرأة الأخرى فكانت تزرّر معطفها. عرفنا هويّتهما على الفور، فأخذتنا الرّعدة. كانت إحداهما تشاينا والأخرى تدعى «خطّ ماجينو». شعرت برغبة في هرش قفاي. كانتا من النّسوة المترفات ذوات طلاء الأظافر الدّاكن الحمرة اللّواتي كانت ماما وجدّتي تكرههنّ. وها هنّ في دارنا!

لم تكن تشاينا فظيعة للغاية، على الأقلّ ليس في تصوّراتنا عنها. كانت ناحلة، توغل في رحلة العمر، شاردة الذّهن بعيدة عن

العدوانيّة. ولكن «خطّ ماجينو»! كانت تلك هي المرأة الّتي قالت عنها أمّي إنّها: «لا تدع الطّعام يغيب عن أحد أطباقها» تلك كانت المرأة الّتي لا تسمح النّسوة المتردّدات على الكنيسة لعيونهنّ بالوقوع عليها. كانت تلك هي المرأة الّتي قتلت النّاس، وأوقدت فيهم النّار، ودسّت لهم السمّ، وطهتهم كما تُطهى الطّواويس. وعلى الرّغم من أنّني كنت أظنّ أنّ وجه «خطّ ماجينو» المحتجب وراء كلّ ذلك الشّحم هو وجه لطيف في حقيقة الأمر، إلاّ أنّني سمعت كذلك كثيراً من الكلمات الشّائنة والحافلة بنُذُر الخطر تقال عنها، ورأيت كثيراً من الأفواه تلتوي استفظاعاً لدى ذكر اسمها، بحيث استحال عليّ التّركيز على أيّ ملامح مخلصة ربّما كانت لها.

بدا أنّ تشاينا، وهي تبتسم كاشفة عن أسنان بنّيّة، تستمتع حقّاً بالسيّد هنري. وأعاد مرآه وهو يلعق أصابعها إلى الذّهن المجلّات الإباحيّة الموجودة في غرفته. هبّت ريح باردة في موضع ما من أعماقي، رافعة وريقات الفزع ومحرّكة توقاً غامضاً. حسبت أنّني لمحت ما يشي بشعور معتدل بالوحدة على محيّا «خطّ ماجينو». ولكن ربّما كانت تلك هي الصّورة الّتي رسمها خيالي والّتي تطابقت مع الانتفاخ الوئيد لخيشوميْها، ومع ما رأيته في عينيها اللّتين ذكّرتاني بشلاّلات في أفلام عن هاواي.

تثاءبت «خطّ ماجينو» وقالت:

ـ هلمّي يا تشاينا! لا يمكننا البقاء هنا طَوال اليوم، فالنّاس قد يعودون إلى الدّار سريعاً.

مضت نحو الباب.

انبطحتُ وفريدا على الأرض، وكلّ منّا تنظر في عيْنَي الأخرى

twitter @baghdad_library

بذهول. وعندما ابتعدت المرأتان دلفنا إلى الدّار. كان السَيّد هنري في المطبخ يفتح زجاجة مشروب غازيّ.

ـ أَعُدْتُما بالفعل؟

ـ أجل، يا سيّدي!

ـ التهمتما كلّ الآيس كريم؟

بدت أسنانه الصّغيرة ودودة للغاية وعاجزة. تُرى هل كان السيّد هنري الّذي نعرفه هو الّذي لعق أصابع تشاينا؟

ـ حصلنا على حلوى بدلاً من الآيس كريم.

ـ حصلتما عليها؟ أسنانك تهيم بالسُّكَّر يا جريتا جاربو!

جفّف الزّجاجة، ودفع بها عالياً إلى شفتيه، وهي إيماءة جعلتني أشعر بعدم الارتياح.

ـ من كانت هاتان المرأتان يا سيِّد هنري؟

اختنق بالمشروب الغازي، ونظر إلى فريدا:

ـ ماذا تقولين؟

كرّرت قولها:

ـ هاتان المرأتان، اللّتان غادرتا الدّار لتوّهما، من هما؟

ـ أوه!

قالها ضاحكاً ضحكة الكبار، عندما يتأهّبون للكذب، الضّحكة الّتي نعرفها حقّ المعرفة وتتردّد على هذا النّحو: هيه ـ هيه. وقال:

ـ هاتان من أعضاء الصفّ الّذي أدرس فيه الكتاب المقدّس، ونحن نقرأ الكتاب المقدّس معاً، ولذا أقبلتا اليوم للقراءة معي.

ـ أوه!

قالتها فريدا. رحت أتطلّع إلى خُفّيْه المنزليّيْن؛ لأحول دون رؤية

هذه الأسنان الودودة وهي تؤطِّر كذبة. مضى نحو الدّرج ثمّ التفت إلينا:

ـ ولكن لا تذكرا الأمر لأمّكما؛ فهي لا تدرس الكتاب المقدّس كثيراً، ولا تحبّ أن أستقبل زوّاراً، حتّى ولو كانوا مسيحيّين طيّبين.

ـ لا، يا سيّدي! لن نذكر أمرهما.

ارتقى الدّرج مسرعاً.

تساءلت:

ـ هل ينبغي ذلك علينا؟ هل ينبغي أن نخبر ماما؟

تنهّدت فريدا. لم تكن قد فتحت حلوى الباورهاوس أو البطاطا المقليّة الخاصّة بها، وراحت الآن تتابع الحروف بأصابعها على أغلفة الحلوى. رفعت رأسها فجأة، وبدأت بالتطلّع إلى كلّ أرجاء المطبخ.

ـ لا أعتقد أنّ الأمر لم يحدث. لا وجود للأطباق في غير موضعها.

ـ أطباق؟ عمّ تتحدّثين الآن؟

ـ لا وجود للأطباق في غير موضعها. لم تتناول «خطّ ماجينو» الطّعام من أحد أطباق ماما. وفضلاً عن ذلك فإنّ ماما ستُحدِث ضجيجاً طَوال اليوم إذا أخبرناها.

جلسنا، ورحنا نتطلّع إلى تلال النّمال الّتي شكّلناها بالبسكويت الجافّ.

قالت:

twitter @baghdad_library

ـ من الأفضل لنا أن نقطّع اللّفت، وإلاّ فإنّه سيحترق، وستجلدنا ماما عندئذٍ.

ـ أعرف ذلك.

ـ ولكن إذا تركنا قطع اللّفت تحترق فلن نضطرّ لأكلها.

قلت:

ـ هاي! يا لها من فكرة جميلة!

ـ أيّ الأمريْن تريدين؟ الضّرب بالسّوط وعدم تناول اللّفت أو اللّفت دونما ضرب بالسّوط؟

ـ لست أدري. ربّما ينبغي أن نحرق قطع اللّفت قليلاً بحيث يتمكن ماما وأبي من أكلها، ولكن بمقدورنا أن نقول إنّنا لا نستطيع أكلها.

ـ لِيَكُنْ!

أعدت تشكيل تلّ النّمال الخاصّ بي ليأخذ شكل بركان.

ـ فريدا؟

ـ ماذا؟

ـ ما الّذي كنت ستقولين إنّ وودوارد قد أتاه؟

ـ بلّل الفراش. أبلغ كين ماما أنّه لن يقلع عن تلك العادة.

ـ يا للشخص الكريه!

شرع المساء يُرخي سدوله، أطللتُ من النّافذة ورأيت الثّلج يهمي. دفعت بإصبعي إلى فتحة بركاني المصنوع من البسكويت الجافّ، فتهاوى، وتناثرت القطع الذّهبيّة متحوِّلةً إلى دوّامات صغيرة. وراحت آنية اللّفت تقرقع.

أنظروا إليالقطّتإنّها تنطلقفيالمواء تعاليوالعبي
تعاليوالعبيمعجينالقطيطتلنلعبتلعبتلعبتـ

إنّهن يجئن من موبايل. أيكن. من نيوبورت نيوز. من ماريتا. من ميريديان. وأصوات هذه الأماكن في حلوقهن تدفعك للتفكير في الحبّ. وعندما تسألهنّ عن الموضع الّذي جئن منه يُملْنَ رؤوسهنّ، ويقلنَ: «موبايل» وتحسب أنّك تلقّيت قبلة. يقلن «أيكن» فتتراءى أمامك فراشة بيضاء تتهاوى مرتدّة عن سور بجناح ممزّق. يقلن «ناجادوتشيز» فترغب في أن تقول: «نعم، سأفعل». ولست تدري ما الّذي تشبهه هذه المدن، ولكنّك تحبّ ما يحدث للهواء عندما يفتحن شفاههنّ ويَدَعْنَ الأسماء تنساب.

ميريديان. يفتح صوت الكلمة نوافذ غرفة كالنغمات الأربع الأولى في ترنيمة. قلائل هم الّذين يستطيعون نطق أسماء مسقط رؤوسهم بمثل هذه العاطفة المراوغة، وربّما كان ذلك راجعاً إلى أنهنّ لا يعرفن مسقط رؤوسهنّ، الأماكن الّتي رأيْنَ النّور فيها للمرّة الأولى. ولكن أولئك الفتيات ينهلنَ من عصير مسقط رؤوسهنّ، فلا يفارقهنّ أبداً. إنهن فتيات بنّيّات، ناحلات، نظرن طويلاً إلى زهور الخطميّ في الأفنية الخلفيّة للبيوت في ميريديان وموبايل وأيكن وباتون روج، وهنّ مثل زهور الخطميّ ناحلات وطويلات وساكنات. جذورهنّ عميقة وسوقهنّ ملمومة وقويّة، ووحدها البراعم العليا تميس في

twitter @baghdad_library

الرّيح. لهنّ عيون مَنْ يستطيعون تحديد الوقت من خلال لون السّماء. مثل أولئك الفتيات يُقِمْنَ في أحياء هادئة للسّود، حيث يشغل الجميع وظائف مُرْبِحة، حيث هناك أرجوحات تتدلّى من سلاسل في أروقة الدُّور. حيث يُجتثّ العشب بمنجل، حيث الأشخاص المختالون تيهاً يمشّطون شعرهم، وعبّاد الشّمس ينمو في الأفنية، وتحفّ الأصص المليئة بنبات القلب الدّامي واللّبلاب ونبات لسان الحماة بالدَّرَج وبقواعد النّوافذ. ابتاعت مثل هؤلاء الفتيات الشمّام والبازلاء المطقطقة من عربة الفاكهيّ المتجوِّل. وضعن في النّافذة اللاّفتة المكتوبة على كرتون طُبع مقياس الرّطل على كلّ من حافاتها الثّلاث ـ ١٠ أرطال، ٥٠ رطلاً. وكلمتا «لا ثلج» على الحافة الرّابعة. هؤلاء الفتيات البنّيّات بذواتهنّ المقبلات من موبايل وأيكن لسن مثل بعض أخواتهن. لسن شكسات ولا عصبيّات ولا صاخبات، وليست لهنّ أعناق جميلة تتطاول وكأنّها بإزاء ياقات خفيّة، وعيونهنّ ليست لاذعة النّظرات. تمضي هؤلاء الفتيات البنّيّات كالسُّكَّر القاتم، الآتيات من مدينة موبايل، دونما ضجّة في الشّوارع، وهنّ حلوات وبسيطات مثل الكعك بالقشدة. كواحل نحيلة وسيقان طويلة ملمومة، يغتسلن بصابون برتقاليّ اللّون من نوع «لايفبوي»، ويتجمّلن بِذَرور من طراز «كشمير بوكيه»، وينظّفن أسنانهنّ بملح موضوع على خَرقة من القماش، ويُضفين النّعومة على بشراتهنّ باستخدام «جيرجنز لوشون»، وتضوع منهنَّ روائح الخشب والجرائد والفانيليا، ويفردن شعرهنّ باستخدام «ديكسي بيتش» ويفرقْنَه على جانب رؤوسهنّ. وفي اللّيل يقمن بلفّه على ورق متّخذ من حقائب ورقيّة بنّيّة، ويعصبن رؤوسهنّ بوشاح من قماش مطبوع، وهنّ لا يشربن الخمر، ولا يدخّن، ولا يُفْحِشن في القول، ومايزلن

يُشِرْنَ إلى الجنس على أنّه «اللّقاء المنعزل»[1] ويغنّين صوت السّوبرانو الثّاني في الجوقة، وعلى الرّغم من صفاء أصواتهنّ وثباتها، إلاّ أنّهنّ لا يتمّ أبداً اختيارهنّ للأداء الفردي. ويجلسَن في الصّف الثّاني، مرتديات بلوزات بيضاء منشّاة، وتنّورات زرقاء توشك أن تميل إلى اللّون الأرجواني من فرط المبالغة في كيّها.

يدرسن في كلّيات تحظى بقطع أرض تمنحها إيّاها الحكومة، وفي مدارس عاديّة، ويعرفن كيف يقمن بعمل الرّجل الأبيض بمزيد من التميّز، ويُدرن المنزل لإعداد طعامه، ويقمن بالتعليم باقتدار المدرّسات وبانضباط بالغ، ويعزفن الموسيقى لتهدئة السيّد الّذي استبدّ به الضّجر، وللتسرية عن روحه الّتي كلّت وملّت. هاهنا يتعلّمن بقيّة الدّرس الّذي تمّ البدء به في تلك الدُّور الهادئة ذات الأراجيح في أروقتها والمليئة بأصص نبات القلب الدّامي، يتعلّمن آداب السّلوك، التّطوير الحريص للقدرة على الادّخار والصّبر والمعنويّات العالية والأخلاق الحميدة. وباختصار كيف يتخلّصن من الجبن، الجبن الرّهيب بإزاء العاطفة، الجبن حيال الطّبيعة، الجبن حيال نطاق عريض من الانفعالات الإنسانيّة.

وحينما يندلع هذا الجبن فإنّهنّ يتخلّصن منه، وحيثما يتصلّب فإنّهنّ يقمن بحلّه، وحيثما يتقاطر، أو يزدهر، أو يتشبّث، فإنّهنّ يعثرن عليه، ويحاربنه، إلى أن يموت، وهنّ يخضن غمار هذه

---

(١) في الأصل «nookey» وكلمة «nook» تعني ببساطة الزاوية أو الركن أو المكان المنعزل. وفي العاميّة الأمريكيّة يعني اللفظ المشتقّ من هذا الأصل، أي nookie إشارة مهذّبة إلى ممارسة الجنس، وتوسُّعاً، إلى شخص قد يمكن إغواؤه، وكذلك المداعبة والتودُّد. (هـ. م.)

twitter @baghdad_library

المعركة على امتداد الطّريق حتّى القبر، الضّحكة الّتي هي أعلى بقليل ممّا ينبغي، الإفصاح الّذي هو أكثر وضوحاً ممّا يتعيّن إعلانه، الإيماءة الّتي هي أكثر سماحة ممّا ينبغي. ويتشبّثن بعجيزتهنّ خوفاً من أن تتأرجح بأكثر ممّا يليق، وعندما يضعن أحمر الشّفاه فإنّهنّ لا يغطين به الفمّ كلّه خوفاً من أن تبدو شفاههنّ أغلظ ممّا يجب، وهنّ يقلقن، يقلقن، يقلقن على أطراف شعرهنّ.

ولا يبدو قطّ أنهنّ مرتبطات ارتباطاً عاطفيّاً بفتية في مقتبل العمر، لكنّهنّ يتزوجن دائماً. ومن الرّجال مَنْ يرقبهنّ، دون أن يبدو عليه ما يوحي بذلك، ويعرف أنّه إذا كانت مثل هذه الفتاة في داره فإنّه سيرقد على غطاء فراش غسل بماء ساخن إلى حدّ الغليان فغدا ناصع البياض ثمّ نشر ليجفّ على شجيرات العرعر وتمّ كيّه بمكواة ثقيلة فخلا من التجعّدات، ستكون هناك زهور ورقيّة جميلة تزيّن صورة أمّه، ونسخة ضخمة من الإنجيل في الحجرة الأماميّة. والرّجال يشعرون بالأمان، يعرفون أنّ ثياب عملهم سيتمّ إصلاحها، وغسلها، وكيّها، لتكون جاهزة يوم الاثنين، وأنّ قمصانهم الّتي يرتدونها في أيام الآحاد ستنتفخ بالهواء وهي مدلاّة على علاّقات من عضادة الباب، وقد ازدهت بلونها الأبيض وتصلّبت بفعل النّشاء. ينظرون إلى يديها ويعرفون ما الّذي ستفعله بعجينة البسكويت، يشتمّون عبق القهوة ولحم فخذ الخنزير المقليّ، يرون البرغلَ الأبيض الّذي ينبعث البخار منه وقليلاً من الزّبد يعلوه. تؤكّد لهم عجيزتها أنّها ستلد الأطفال بيسر ودونما ألم، وأنّهم على حقّ.

وما لا يعرفونه هو أنّ هذه الفتاة البنّيّة، الملساء، سوف تبني عشّها قشّةً إثر الأخرى، وتجعل منه عالمها الّذي لا سبيل إلى انتهاكه،

وتحرس كلّ نبتة وعشبة ومُنَيْديل مائدة، حتّى منه. وفي صمت ستعيد المصباح إلى حيث وضعته أصلاً، سترفع الأطباق عن المائدة بمجرّد تناول اللّقمة الأخيرة، تُلمِّع مقبض الباب بعد أن تمسّه يد متّسخة. وستكون نظرة من طرف عينها كافية لإبلاغه بأنّ عليه أن يدخّن في الرّواق الخلفي للدار. وسيشعر الأطفال على الفور بأنّه ليس بمقدورهم دخول فناء دارها لاسترداد كرة. لكنّ الرّجال لا يعرفون هذه الأمور، كما أنّهم لا يعرفون أنّها ستمنحه جسدها بدون إسراف، وبصورة جزئيّة، ولابدّ أن يلجها بصورة مختلسة، فلا يرفع طرف منامتها إلى ما يتجاوز سُرّتها، ولابدّ أن يدعم ثقله بمرفقيه، عندما يتضاجعان، وذلك ظاهريّاً لتجنّب إيذاء نهديها، ولكن في حقيقة الأمر للحيلولة دون اضطرارها للمس جانب منه أكثر ممّا ينبغي، أو للشعور به.

وبينما يتحرّك بداخلها، ستروح تتساءل عن السرّ في عدم وضع الأجزاء الضروريّة وإن كانت حميمة من الجسم في موضع أكثر ملاءمة ـ مثل الإبط، على سبيل المثال، أو راحة اليد. موضع يمكن أن يصل إليه المرء بيسر وبسرعة ودونما خلع للملابس. وتتصلّب عندما تحسّ بأنّ إحدى اللّفات الورقيّة الّتي تلفّ حولها شعرها تتفكّك بفعل نشاط المضاجعة، وتطبع في ذهنها أيّ لفافة تلك الّتي تتفكّك، حتّى تتمكّن بسرعة من تأمينها في موضعها بمجرَّد الانتهاء ممّا هي عاكفة عليه. وتأمل في أنّه لن يتعرّق؛ فالبلل قد يصل إلى شعرها، وتأمل أنّها ستظلّ جافّة فيما بين ساقيها؛ فهي تكرَه ذلك الصّوت الّذي يشبه انسكاب سائل ثقيل، والّذي يحدثانه، عندما تكون مبتلّة. ولدى شعورها ببعض التّشنج يوشك أن يأخذ بناصيته، فإنّها ستأتي حركات سريعة بعجيزتها، وتضغط أظافرها في ظهره،

twitter @baghdad_library

وتستاف الهواء، وتتظاهر ببلوغ ذورة النّشوة. وقد تتساءل مجدّداً، للمرّة السّتمائة، عمّا يمكن أن يكون عليه الإحساس بذلك الشّعور، بينما عضو زوجها بداخلها. وكان أقرب شيء إلى ذلك الإحساس قُدِّر لها أن تشعر به تلك المرّة الّتي كانت تسير فيها مجتازة أحد الشّوارع وانزلقت فوطتها متحرّرة من حزامها الصحّي، وراحت تتحرّك بلطف بين ساقيها، فيما هي تسير، بلطف، بلطف بالغ على الدّوام، ثمّ تجمّع في بظرها إحساس واهن ولذيذ على نحو مميّز. وفيما راحت النّشوة تتعاظم اضطرّت للتوقّف في الشّارع ولضمّ فخذيها معاً لتحتويها. إنّها تعتقد أنّ ذلك هو ما لابدّ أن يكون الأمر عليه، لكنّه لم يُقدَّر له أن يحدث قطّ بينما هو بداخلها. وعندما ينسحب منها فإنّها تُرخي عليها منامتها، وتنزلق من الفراش وتمضي إلى الحمّام وقد خالجها شعور بالارتياح.

وبين الفينة والأخرى يستقطب عواطفَها شيء حيّ. ربّما قِطّ يحبّ نظامها ودقّتها ودأبها ويكون مثلها في النّظافة والهدوء. يستقرّ القطّ على قاعدة النّافذة، ويلاطفها بعينيه. ويمكنها أن تمسك به بين ذراعيها، تاركة براثنه الخلفيّة تجهد لتجد لها موضعاً على ثديها وبراثنه الأماميّة تتشبّث بكتفها، ويمكنها أن تفرك الفرو النّاعم وتتحسّس اللّحم الّذي لا يقاوم أصابعها تحته. وعند أرقّ لمساتها سيسوّي فَرْوه بلسانه، ويتمطّى ويفتح فمه، وستتقبّل الإحساس السارّ على نحو غريب الّذي يراودها عندما يتلوّى تحت يدها ويسطّح عينيه بقدر هائل من النّشوة الحسّيّة. وعندما تقف للطهي على المنضدة سيدور حول رجليها وساقيها وتتصاعد لمسة فَرْوه صعوداً على ساقيها إلى فخذيها، لتجعل أصابعها ترتعش قليلاً في عجينة الفطيرة.

أو قد يثب القطّ إلى حجرها وهي عاكفة على قراءة باب «خواطر متسامية» في «ليبرتي مجازين» فتلاطف ذلك التلّ من الشّعر، وتدع دفء جسم الحيوان ينسلّ منسرباً إلى المناطق الحميمة بعمق من حجرها. وفي بعض الأحيان تسقط المجلّة، وتفتح ساقيها قليلاً فحسب، ويقبعان معاً ساكنين، وربّما تقلّبا قليلاً معاً، ناما معاً قليلاً حتّى السّاعة الرّابعة، عندما يقبل مقتحم الخلوة عائداً إلى الدّار من العمل، مستشعراً القلق على نحو غامض بشأن ما سيُقَدَّم على مائدة الغداء.

سيعرف القطّ على الدّوام أنّه في المحل الأوّل من عواطفها، حتّى بعد أن تلد طفلاً؛ لأنّها ستلد طفلاً بالفعل بيسر وبلا ألم، ولكنْ طفلاً واحداً فحسب. ابن، اسمه جونيور.

انتقلت فتاة مثل هذه من موبايل، أو ميريديان، أو أيكين، فتاة لم تتعرّق فيما تحت إبطيها أو بين فخذيها، وتضوّعت منها رائحة الخشب والفانيليا، وصنعت السّوفليه في قسم التدبير المنزلي ـ انتقلت مع زوجها، لويس، إلى لورين بولاية أوهايو، وكانت تدعى جيرالدين. وهناك بَنَتْ عشّها، وقامت بكيّ القمصان ووضع نباتات القلوب الدّامية في الأصص، ولاعبت قطّها، وأنجبت لويس جونيور.

لم تسمح جيرالدين لوليدها، جونيور، بالبكاء. ومادامت احتياجاته عضويّة فقد كان بوسعها تلبيتها، راحةً وتُخْمةً. على الدّوام كان يتمّ تمشيط شعره وتحميمه وتدليكه بالزيت ولفّه بقماش خاص به. ولم تكن جيرالدين تحادثه أو تناغيه، أو تندفع مقبّلة إيّاه، ولكنّها حرصت على إشباع كلّ رغباته الأخرى. ولم يطل الأمر

twitter @baghdad_library

بالطفل لكي يكتشف الفارق في سلوك أمّه حياله وحيال القطّ. ومع دخوله مرحلة عمريّة أكبر تعلّم كيف يوجّه كراهيته لأمّه إلى القطّ، وأمضى بعض اللّحظات السّعيدة وهو يرقبه في غمرة معاناته، وقد واصل القطّ الحياة وأفلت من براثن الموت لأنّ جيرالدين نادراً ما كانت تبتعد عن الدّار، وكان بمقدورها أن تهدّئ الحيوان عندما يمعن جونيور في مضايقته.

أقام جيرالدين ولويس وجونيور والقطّ بجوار ملعب مدرسة واشنطن إرفنج. وقد اعتبر جونيور الملعب ملعبه الخاصّ، وحسده التّلاميذ على حرِّيّته في النّوم في موعد متأخِّر، والذّهاب إلى الدّار لتناول طعام الغداء، والسّيطرة على الملعب بعد انتهاء اليوم المدرسي. وكان يكره رؤية الأراجيح والمنزلقات والعُقلات وخشبات التّوازن خاوية من اللّاعبين، وحاول دفع الأطفال إلى البقاء في الملعب أطول وقت ممكن. الأطفال البيض؛ فلم تكن أمّه تحبّ أن يلعب مع الزّنوج، وقد أوضحت له الفارق بين الملوّنين والزّنوج. فالملوّنون يمكن معرفتهم بيسر، فهم مُهَنْدَمون وهادئون. أمَّا الزّنوج فقذرون وصخّابون. وهو ينتمي إلى المجموعة الأولى، إذ يرتدي قمصاناً بيضاء وسراويل زرقاء، وشعره مقصوص قريباً من جمجمته بقدر الإمكان لتجنّب أيّ إيحاء بشبه شعره بالصوف، ومكان فَرْق الشّعر حدّده الحلاّق. وفي الشّتاء كانت أمّه تضع جيرجينز لوشون على وجهه للحيلولة دون اتّخاذ بشرته للون الرّماديّ، فعلى الرّغم من أنّه كان فاتح اللّون، إلاَّ أنّ بشرته كان يمكن أن تضرب إلى اللّون الرّماديّ، والخطّ الفاصل بين الملوّن والزّنجي لم يكن واضحاً على الدّوام، فقد هدّدت علاماتٌ مُراوِغة وكاشفة بأن تمحوه، وكان ينبغي

التزام الحذر في هذا الصّدد على الدّوام.

وقد اعتاد جونيور أن يحنّ إلى اللّعب مع الأولاد السّود، وأراد أكثر من أيّ شيء في الدّنيا أن يلعب لعبة «ملك الجبل» وأن يدفعوه على كومة التّراب ويتدحرجوا فوقه. أراد أن يشعر بصلابتهم وهي تضغط عليه، وأن يشمّ سوادهم الوحشي، وأن يقول ما يخطر بباله من الألفاظ البذيئة بتلك العفويّة الجميلة، أراد أن يجلس معهم على حافة الرّصيف وأن يقارن بين مستويات حدّة المطاوي ومسافة البصقات وتقوّساتها. وفي الحمّام أراد أن يشاركهم أكاليل غار التمكّن من التبوّل طويلاً وبعيداً. وكان باي بوي وب.ل. في وقت من الأوقات بمثابة معبودين بالنسبة إليه. وقد وافق أمّه تدريجيّاً على أنّ باي بوي وب.ل. ليسا من التميّز بحيث يصبحان رفيقيْن له، ولم يلعب إلاّ مع رالف نيسينسكي الّذي كان أصغر منه بعامين ويضع عوينات ولا يريد القيام بأيّ شيء. واستمتع جونيور بصورة متزايدة بمعاكسة الفتيات؛ فقد كان من السّهل جعلهنّ يصرخن وينطلقن هاربات. وكم أغرب في الضّحك عندما كنّ يسقطن أرضاً فتبدو سراويلهن التحتانيّة للعيان، وعندما ينهضن، وقد احمرّت وجوههنّ وتجعّدت، كان ذلك يجعله يشعر بالارتياح، ولم يكن يتحرّش كثيراً بالفتيات الزّنجيّات؛ فقد كنّ ينطلقن في جماعات، وعندما كان يلقي الأحجار على بعضهنّ، كنّ يطاردنه ويمسكن به، ويوسعنه ضرباً. وقد كذب على أمّه قائلاً إنّ باي بوي هو الّذي فعل ذلك. وقد اشتدّ الضّيق بأمّه، بينما اكتفى أبوه بمواصلة قراءة «لورين جورنال».

وعندما تواتيه حالة مزاجيّة يتوافق معها اللّعب، فإنّه كان يدعو طفلاً يتّفق مروره بالمكان للّعب على الأراجيح وأخشاب التّوازن.

twitter @baghdad_library

وإذا رفض الطّفل، أو استجاب وترك المكان مبكراً، فإنّ جونيور كان يحصبه بالحصى، وقد أصبح ماهراً في إصابة الهدف بالأحجار.

وإذ تراوحت مشاعره في المنزل بين الضّجر والخوف فقد كان الملعب فرحته. وذات يوم كان فيه كسولاً، على نحو يفوق المعتاد، رأى فتاة بالغة السّواد تسلك طريقاً مختصراً عبر الملعب. واصلت حَنْي رأسها وهي تمضي في طريقها، وكان قد سبق له أن رآها مرّات عديدة من قبل، وهي تقف وحيدة، على الدّوام وحيدة، في الاستراحة ما بين الحصص الدّراسيّة، ولم يلعب أحد معها قطّ، وحدّث نفسه بأنّ ذلك ربّما كان راجعاً إلى أنّها قبيحة الهيئة.

الآن، بادر جونيور إلى مناداتها:

ـ مرحباً! ماذا تقصدين بسيرك على هذا النّحو في أرجاء فنائي؟

توقّفت الفتاة.

ـ لا أحد يمكنه القدوم عبر هذا الفناء ما لم أسمح له بذلك.

ـ هذا ليس فناءك وإنّما هو فناء المدرسة.

ـ ولكنّني مسؤول عنه.

شرعت الفتاة في الابتعاد.

مضى جونيور نحوها:

ـ انتظري! بمقدورك اللّعب فيه إذا أردت. ما اسمك؟

ـ بيكولا لست أريد اللّعب.

ـ هلمّي! لن أضايقك.

ـ يتعيّن عليّ الذّهاب إلى الدّار.

ـ هل تريدين رؤية شيء ما؟ لديّ ما أريه لك.

ـ لا ماذا عساه يكون؟

ـ تعالي إلى داري. انظري! إنّني أقيم هناك. هلمّي! سأريك!

ـ تريني ماذا؟

ـ بعض القطيطات. فلدينا البعض منها، ويمكنك أخذ إحداها، إذا أردت.

ـ قطيطات حقيقيّة؟

ـ نعم، هلمّي!

اجتذبها برفق من ردائها فشرعت في المضيّ نحو داره. وعندما عرف جونيور أنّها قد وافقت، انطلق مسرعاً أمامها بانفعال، ولم يتوقّف إلاَّ ليهتف بها أن تُقْبِل. أمسك لها بالباب بعد أن فتحه، وابتسم ابتسامة ملؤها التّشجيع. ارتقت بيكولا درج الرّواق، وتردّدت هنالك، خائفة من أن تتبعه؛ فقد بدت الدّار غارقة في الظّلام. قال جونيور:

ـ لا أحد هنا. أمّي خرجت، وأبي في العمل. ألا ترغبين في رؤية القطيطات؟

أضاء جونيور الأنوار. وولجت بيكولا الدّار.

حدّثت نفسها: كم هي جميلة! كم هي دار جميلة! كان هناك إنجيل يجمع بين اللّونين الأحمر والذّهبيّ على مائدة غرفة الطّعام، وانتشرت في كلّ مكان مناديل صغيرة من المخرّمات، على مساند أذرعة المقاعد وظهورها، وفي منتصف مائدة الغرفة الكبيرة، وعلى الموائد الصّغيرة. واستقرّت أصص النّباتات على كلّ قواعد النّوافذ. وعُلّقت على الجدار صورة ليسوع المسيح زُيِّن إطارها بأجمل الزّهور الورقيّة. أرادت أن ترى كلّ شيء على مهل، على مهل. ولكن جونيور واصل القول: «هاي، أنت، هلمّي! هلمّي!» اجتذبها إلى

twitter @baghdad_library

غرفة أخرى، أجمل من الأولى. فيها المزيد من المناديل ومصباح كبير له قاعدة تجمع بين اللّونين الذّهبي والأخضر وظلّة بيضاء، بل كانت هناك سجّادة على الأرض، ذات زهرات ضخمة قاتمة الحمرة. كانت قد غاصت في الإعجاب بالزهور عندما قال جونيور:

ـ هاهنا!

التفتت بيكولا نحوه.

ـ إليك قطيطتك!

قالها صارخاً، وألقى في وجهها مباشرة بقطّ أسود كبير. أمسكت أنفاسها خوفاً ودهشة، وأحسّت بفَرْو في وجهها. خمش القطّ وجهها وصدرها ببراثنه في محاولة منه للتوازن، ثمّ قفز متوجّعاً إلى الأرض.

أغرب جونيور في الضّحك، وراح يتغامز في أرجاء الغرفة قابضاً على معدته لفرط الابتهاج. تلمّست بيكولا الموضع المخدوش في وجهها وشعرت بالدموع تنهلّ. وعندما شرعت في الانطلاق نحو الباب وثب جونيور أمامها.

قال، وقد ارتسم المرح في عينيه، وإن ظلّتا على صلابتهما:

ـ ليس بمقدورك الخروج؛ فأنت أسيرتي.

ـ دعني أخرج!

ـ لا!

دفعها أرضاً، وانطلق خارجاً من الباب الّذي يفصل بين الغرفتين، وأمسك به، فأوصده بيديه. زاد طرق بيكولا المدوّي للباب من لهاثه وضحكه المدوّي.

انهلّت الدّموع، وحجبت وجهها بكفّيها، وعندما تحرّك شيء لدن

ومشعر حول كاحليها، وثبت، ورأت القطّ. لفّ نفسه بين ساقيها وحولهما، فأخرجها إلى حين من خوفها، وقعت على الأرض لتلمسه، وقد ابتلّت يدها بدموعها، احتكّ القطّ بركبتها. كان أسود كلّه، سواده حريري كثيف، وكانت عيناه المنكّستان نحو أنفه خضراوين ضاربتين إلى الزّرقة، جعلهما الضّوء تتوهّجان كجليد أزرق. داعبت بيكولا رأس القطّ، فأصدر أنيناً، والتوى لسانه نشوة. جمّدتها العينان الزّرقاوان في الوجه الأسود في موضعها.

فتح جونيور، الّذي أخذه الفضول لعدم سماعه بكاءَها، البابَ ورآها مُقْعَية على الأرض، تدلّك رأس القطّ. وشاهد القطّ يمدّ رأسه ويسطّح عينيه. لقد سبق له أن رأى ذلك التّعبير مراراً لدى استجابة الحيوان للمسة من أمّه.

ـ أعطيني قطّي!

قالها بصوت مشروخ. وبحركة مرتبكة، وواثقة معاً، اجتذب القطّ من إحدى قائمتيه الخلفيّتين، وشرع يطوّحه حول رأسه، في حركة دائريّة.

ـ كفّ عن ذلك!

صرخت به بيكولا تصلّبت براثن القطّ الحرّة، متأهّبة للتشبُّث بأيِّ شيء لاستعادة التّوازن، وقد فتح خطمه على اتّساعه، وتحوّلت عيناه إلى شعاعين أزرقين من رُعْب.

مدّت بيكولا، وهي ماتزال تصرخ، يدَها إلى يد جونيور، سمعت صوت تمزّق ثوبها تحت الذّراع. حاول جونيور دفعها بعيداً، ولكنَّها أمسكت بالذراع الّتي كانت تطوِّح القطّ. سقطا معاً، وفي غمرة

twitter @baghdad_library

سقوطهما أفلت جونيور القطّ الّذي ألقى به، بعد إطلاقه وسط حركة التطويح، بأقصى قوّة في مواجهة النّافذة. انزلق إلى الأسفل وسقط على المشعاع الحراري وراء الأريكة، وعمّه السّكون باستثناء اختلاجات قليلة. ولم تنبعث إلاّ أدنى روائح الشّعر وهو يشيط.

فتحت جيرالدين الباب.

ـ ما هذا؟

تردّد صوتها معتدلاً وكأنّها تطرح سؤالاً منطقيّاً تماماً، أضافت:

ـ من هذه الفتاة؟

ـ لقد قتلت قطّنا. انظري!

قانها جونيور مشيراً إلى المشعاع الحراري، حيث تمدّد القطّ، وقد غمضت عيناه تاركتين وراءهما وجهاً خاوياً، أسود، عاجزاً.

مضت جيرالدين إلى المشاع، والتقطت القطّ. بدا رخواً في ذراعيها، لكنّها مسّدت فَرْوه بوجهها. نظرت إلى بيكولا، ورأت الرّداء الممزّق والضّفائر البارزة على رأسها، والشّعر المتقارب حيث انحلّت الضّفائر، والحذاء الملطّخ، وقد أطلّت قطعة علكة ملتصقة بالنعل الرّخيص، والجورب المتّسخ الّذي تهدّلت إحدى فردتيه على الحذاء، ورأت مشبك الأمان وقد رفع طرف الثّوب إلى أعلى. نظرت إليها من فوق حدبة ظهر القطّ. لقد رأت هذه الفتاة الصّغيرة طوال عمرها، مطلّة من نوافذ فوق الحانات في موبايل، زاحفة فوق الأروقة الخاصّة ببيوت تعاطي المخدّرات عند طرف المدينة، جالسة في محطّات الحافلات ممسكة بحقائب ورقيّة، ومستعطفة بالبكاء أمّهات يواصلن القول: «اخرسي!» شعر مشعّث، ثياب مهلهلة، أحذية

مفكوكة الرّباط وموحلة. لقد حدّقن فيها بعيون متّسعة لا تفهم، عيون لا تتساءل عن شيء، وتطلب كلّ شيء. عيون لا تطرف، ولا تريم، تحدّق فيها. نهاية العالم تقبع في عيونهنّ، والبداية، وكلّ الهدر الكامن بينهما.

كنّ في كلّ مكان. يرقدن كلّ ستّ منهنّ في فراش واحد، يختلط كلّ بولهنّ في اللّيل، فيما هنّ يبلّلن فراشهنّ، كلّ منهنّ في غمرة حلمها الخاص الّذي يدور حول الحلوى وشرائح البطاطا. في الأيام الطّويلة الحارّة يمضين متكاسلات، يقشرن الجصّ عن الجدران، ويحفرن الأرض بالعصيّ. يجلسن في صفوف قصيرة على حافات الأرصفة. يتكأكأن في مقاعد خشبيّة طويلة في الكنيسة، منتزعات المكان من الأطفال الملوّنين اللّطفاء، والمهندمين، يُهرّجن في الملاعب، يكسرن الأشياء في الحوانيت الرّخيصة، ينطلقن عَدْواً أمامك في الشّارع، يصنعن منزلقات جليديّة على الأرصفة في الشّتاء. تكبر الفتيات دون أن يعرفن شيئاً عن الأحزمة، ويعلن الفتية رجولتهم بقلب أطراف قلانسهنَّ إلى الوراء. العشب لن ينمو حيث يقمن، والزّهور تموت، والظّلال تترامى. وتزدهر علب الصّفيح والإطارات حيث يسكنّ. ويعشن على اللّوبياء ذات العيون السّوداء وعلى جعة البرتقال. يحوِّمن كالذّباب، وكالذباب يحططن. وقد حطّت هذه الفتاة في دارها. راحت تنظر من فوق حدبة ظهر القطّ.

قالت بصوت هادئ:

ـ اخرجي، أيّتها الكلبة السّوداء الصّغيرة المقيتة! اخرجي من داري!

اختلج القطّ وهزّ ذيله بحركة خاطفة.

twitter @baghdad_library

تراجعت بيكولا خارجة من الغرفة، وهي تحدّق في السيّدة الجميلة الّتي تجمع في بشرتها بين اللّونين البنّي والحليبيّ في الدّار الجميلة الّتي تجمع بين اللّونين الذّهبيّ والأخضر والّتي كانت تحادثها من خلال فَرْو القطّ. جعلت كلمات السيّدة الجميلة فَرْو القطّ يتحرّك، والنَّفَس المصاحب لكلّ كلمة فَرَّق الفَرْو. التفتت بيكولا لتمضي إلى الباب الأمامي ورأت يسوع يطلّ من علٍ عليها بعينين حزينتين غير مندهشتين وشعره الطّويل البنّي مفروق في المنتصف، وقد التّوت الزّهور الورقيّة المرحة حول وجهه.

في الخارج، هبّت رياح آذار (مارس) على الجزء الممزّق من ثوبها. حنت رأسها في مواجهة البرد. ولكنّها لم تستطع إبقاءه منخفضاً بما فيه الكفاية، لتجنُّب رؤية نتف الثّلج وهي تتهاوى، وتموت على الرّصيف.

الربيـع

twitter @baghdad_library

الغصينات الأولى ناحلة، وخضراء، وليّنة، وهي تنثني متحوّلة إلى دائرة كاملة، ولكنّها لن تنكسر، وانطلاقها الرّقيق الاستعراضيّ المفعم بالأمل ناتئة من شجيرات الفُرسيتيّة واللّيلك لم يَعْنِ إلاَّ تغيّراً في أسلوب ضربنا؛ فهي تضربنا على نحو مختلف في الرّبيع. وبدلاً من الألم الفاتر النّاجم عن السّوط الشّتائي، كانت هناك تلك اللّذعات الخضراء الّتي تفقد إيلامها بعد وقت طويل من انتهاء الضّرب. كانت هناك وضاعة عصبيّة في هذه الغصينات الطّويلة الّتي جعلتنا نحنّ إلى الضّربة الثّابتة بالسوط واللّطمة الحازمة، ولكنْ الواضحة، الّتي تحدثها فرشاة الشّعر. وحتّى في الوقت الحاليّ فإنّ الرّبيع بالنسبة إليَّ هو اختلاجة نابعة من الألم المتذكَّر والصّادر عن اللّذعات، وشجرة الفُرسيتيّة لا تحمل إليَّ البهجة.

غُصْتُ في عشب بقعة خالية، في يوم سبت من أيّام الرّبيع، ومضيت أشطر سوق نبات الصّقلاب، وأفكّر في النّمال وقطع الخوخ والموت، وأين مضى العالم عندما أغمضت عينيّ. ولابدّ أنّني رقدت طويلاً على العشب؛ لأنّ الظلّ الّذي كان أمامي عندما غادرت الدّار اختفى عندما عُدْتُ. ولجت الدّار الّتي كانت تموج بسكون قلق، ثمّ سمعت أمّي تغنّي شيئاً عن القطارات وأركانساس. أطلّت من الباب الخلفي ببعض السّتائر الصّفراء المطويّة الّتي كوّمتها على منضدة المطبخ. اقتعدتُ الأرضيّة أصغي للقصّة الّتي ترويها الأغنية،

twitter @baghdad_library

ولاحظتُ كم كانت تتصرّف على نحوٍ غريب. كانت ماتزال تعتمر قبّعتها، وكان حذاؤها متربّاً، وكأنّها كانت تسير في تراب عميق. وضعتْ بعض الماء ليغلي، وعندئذٍ كنستِ الرّواق، ثمّ سحبتْ علاّق السّتائر، ولكن بدلاً من أن تضع عليه السّتائر الرّطبة، كنستِ الرّواق مجدّداً وهي تغنّي طوال الوقت عن القطارات وأركانساس.

عندما فرغتْ ممّا بين يديها، مضيتُ للبحث عن فريدا. وجدتها في الطّابق العلوي راقدة في فراشنا وهي تبكي ذلك البكاء المثقل بالإعياء والأنين، الّذي يعقب الانتحابات الأولى ـ وغالباً ما يكون شهقات وارتجافات. رقدتُ على الفراش، وتطلّعت إلى الباقات الصّغيرة من الورود البرّيّة المتناثرة في قماش ثوبها. كانت مرّات الغسيل العديدة قد جعلت لونها ناصلاً، وذهبت بمعالم الخطوط الخارجيّة.

ـ ما الّذي حدث يا فريدا؟!

رفعت وجهاً متورّماً من قلب انحناء ذراعها. جلست في موضعها، وهي ماتزال ترتعش، تاركة ساقيها النّحيلتين تتدلّيان فوق حافة الفراش. انحنيت على الفراش والتقطت طرف ثوبي لأجفّف أنفها السّائب. لم يحدث أن أحبّت قطّ تجفيف الأنوف بالملابس، ولكنّها في هذه المرّة تركتني أفعل ذلك. وكان ذلك على نحو ما تفعل أمّي بميدعتها.

ـ هل تلقّيت علقة؟

هزّت رأسها نفياً:

ـ لماذا تبكين إذن؟

ـ لأنّ.

ـ لأنّ ماذا؟

ـ السيّد هنري؟

ـ ما الّذي فعله؟

ـ أوسعه أبي ضرباً.

ـ من أجل ماذا؟ «خطّ ماجينو»؟ هل كشف أمر «خطّ ماجينو»؟

ـ لا

ـ طيّب. ماذا إذن؟ هلمّي، يا فريدا! كيف يتأتّى أنّني ليس بوسعي معرفة الأمر؟

ـ لقد... أزعجني.

ـ أزعجك؟ تعنين مثل سوبهيد تشيرش؟

ـ نوعاً ما.

ـ هل أظهر لك عورته؟

ـ لاااا. لقد لمسني.

ـ أين؟

ـ هنا وهنا.

أشارت إلى ثدييها الصّغيرين، اللّذين يشبهان جوزتيْ بلّوط سقطتا من شجرتهما، وقد باعدا ما بين وردات ناصلات قلائل على ثوبها.

ـ حقّاً؟ وكيف كان شعورك حيال ذلك؟

ـ أوه، يا كلوديا!

بدت متضايقة؛ فلم أكن أطرح عليها الأسئلة المناسبة.

ـ لم أشعر بأيّ شيء.

ـ ولكن ألم يكن من المفروض أن تشعري بشيء؟ أقصد أن تشعري بإحساس طيّب؟

twitter @baghdad_library

التقطت فريدا أنفاسها.

ـ ما الّذي فعله؟ هل اكتفى بالسير ولطمهما؟

قالت متنهّدة:

ـ في البداية حدّثني عن مدى جمالي، ثمّ أمسك ذراعي بقوّة ولمسني.

ـ أين كان أبي وأمّي؟

ـ في الحديقة يعزقان الأعشاب.

ـ ماذا قلت عندما فعلها؟

ـ لا شيء. كلّ ما هناك أنّني انطلقت جرياً إلى المطبخ، ومضيت إلى الحديقة.

ـ قالت ماما إنّ علينا ألاَّ نعبر أبداً خطوط الغرس بمفردنا.

ـ طيّب. وماذا كنت ستفعلين؟ تجلسين هناك وتتركينه يضغط عليك فيوجعك؟

نظرت إلى صدري، وقلت:

ـ ليس لديّ ما يُضْغَط إلى حدّ الوجع، ولن يكون لديّ شيء أبداً.

ـ أوه، يا كلوديا، إنّك تغارين من كلّ شيء. هل تريدينه أيضاً؟

ـ لا، كلّ ما هنالك أنّني سئمت من أن أكون آخر من يحصل على كلّ شيء.

ـ ولكنّكِ لستِ آخر من يحصل على كلّ شيء. ماذا عن الحمّى القرمزيّة. لقد كانت لك أوّلاً

ـ نعم، ولكنّها لم تدم. على أيّ حال ما الّذي حدث في الحديقة؟

ـ قلت لأمّي، وقالت لأبي، ودخلنا جميعاً الدّار، وكان قد مضى،

فانتظرناه، وعندما رآه أبي مقبلاً عند الرّواق ألقى درّاجة ذات ثلاث عجلات على رأسه فألقاه بعيداً عن الرّواق.

ـ هل مات؟

ـ لا. نهض، وشرع في الغناء «قرّبني منك يا إلّهي!». وعندئذٍ لطمته أمّي بالمكنسة وأمرته بأن ينحّي اسم الربّ عن فمه، لكنّه لم يكفّ، وكان أبي يكيل له اللّعنات والكلّ يصرخ.

ـ أوه، يا للعنة! إنّني دائماً تفوتني الأمور.

ـ وأقبل السيّد بوفورد عَدْواً حاملاً مسدّسه، وقالت أمّي له إنّ عليه أن يمضي إلى مكان من الأمكنة وأن يجلس هناك، وقال أبي لا، إنّ عليه أن يعطيه المسدّس، وفعل السيّد بوفورد ذلك، وصرخت أمّي، ولاذ السيّد هنري بالصمت وشرع في الجري، وأطلق أبي النّار عليه، فتخلّص السيّد هنري من حذائه، وواصل الجري بجوربه، وعندئذٍ أقبلت روزماري وقالت إنّ أبي سيُودَع السّجنَ، فضربتُها.

ـ ضربتِها بشدّة؟

ـ ضربتُها بشدّة.

ـ هل ضربتك أمّي بالسوط عندئذٍ؟

ـ قلت لك إنّها لم تضربني بالسوط.

ـ لماذا تبكين إذن؟

ـ أقبلت الآنسة دونيون، بعد أن هدأ الجميع، واحتدم نقاش بين أمّي وأبي حول الّذي سمح للسيّد هنري بالقدوم أصلاً على أيّ حال، وقالت إنّ أمّي ينبغي أن تصحبني إلى الطّبيب؛ لأنّني ربّما سُلب عفافي، وبدأت أمّي بالصراخ من جديد.

ـ الصّراخ فيك؟

twitter @baghdad_library

ـ لا. الصّراخ في الآنسة دونيون.
ـ ولكن لِمَ كنت تبكين؟
ـ لست أريد أن يُسلب عفافي!
ـ وما الّذي يعنيه سلب العفاف؟
ـ مثل «خطّ ماجينو». لقد سُلِب عفافها. هكذا قالت أمّي.
انهمرت الدّموع عائدة.

انسلّت إلى ذهني صورة لفريدا، وقد غدت ضخمة وبدينة، وتورّمت ساقاها النّحيلتان، وأحاطت بوجهها طبقات من الجِلْد المزوَّق بالأحمر. وبدأت بدوري أحسّ بالدموع توشك أن تنهمر.

ـ ولكن بمقدورك يا فريدا أداء التّمرينات الرّياضيّة وعدم الأكل.
هزّت كتفيها.

ـ فضلاً عن ذلك، ماذا عن تشاينا وبولاند؟ لقد سُلِب عفافهما كذلك. أليس كذلك؟ وهما ليستا بدينتين.

ـ ذلك لأنّهما تشربان الويسكي. وتقول أمّي إنّ الويسكي أكلهما أكلاً.

ـ يمكنك أن تشربي الويسكي.

ـ من أين يمكنني الحصول عليه؟

فكّرنا في هذا. فلن يبيعه أحد لنا، وليست لدينا نقود على أيّ حال. ولم يكن هناك شيء منه قطّ في دارنا. من عساه يكون لديه ويسكي؟

قلت:

ـ بيكولا. أبوها مخمور دائماً، ويمكنها أن تحصل لنا على بعض الويسكي.

ـ أتظنّين ذلك؟

ـ بالتأكيد. تشولّلي يشرب على الدّوام. دعينا نطلب منها ذلك. وليس علينا أن نبلّغها بما نريد الويسكي من أجله.

ـ الآن؟

ـ بالتأكيد، الآن.

ـ وماذا سنقول لأمّي؟

ـ لا شيء. دعينا نخرج من الباب الخلفي، إحدانا وراء الأخرى، بحيث لا تلاحظ خروجنا.

ـ ليكُنْ، اذهبي أوّلاً، يا كلوديا!

فتحنا بوّابة السّور في أقصى الفِناء الخلفيّ وانطلقنا عَدْواً في الممشى المُواجِه لها.

كانت بيكولا تقطن على الجانب الآخر من برودواي. ولم نزر بيتها قطّ، ولكنّنا كنّا نعرف مكانه. مبنى مؤلّف من طابقين، رمادي اللّون، كان طابقه الأرضي ذات يوم متجراً وأعلاه شقّة للسكن.

لم يستجب أحد لطرقنا للباب الأمامي، فدرنا لنصل إلى الباب الجانبي. وسمعنا ونحن نقترب موسيقى تنبعث من المذياع وتطلّعنا لنعرف من أين تنبعث. امتدّ فوقنا رواق الطّابق الثّاني وقد حفّ به درابزون مائل، مهترئ، وقد جلستْ في الرّواق «خطّ ماجينو» نفسها. حدّقنا إلى أعلى ومدّت كلّ منّا تلقائيّاً يدها تتلمّس يد الأخرى. بدت جبلاً من اللّحم وقد رقدت بأكثر ممّا كانت تجلس في

twitter @baghdad_library

مقعد هزّاز، ولم تكن منتعلة حذاء، وإنّما دسّت كلّ قدم في موضع من الدّرابزون، وقد برزت أصابع أقدام صغيرة تشبه أصابع طفل وليد من طرف القدمين المنتفختين، وجعل الكاحلان المتورّمان الجلد ناعماً ومشدوداً، ولاحت ساقان هائلتان مثل جذوع الأشجار، وقد تباعدتا عند الرّكبتين، وفوقهما امتدّ طريقان من أفخاذ داخليّة ناعمة لدنة، وقبَّل أحدهما الأخر عميقاً في ظلّ ثوبها وأُوصِدا. امتدّت من يدها اللّحيمة ذات النّقر زجاجة من جعة الجذور ذات لون بنّي قاتم كأنّها عضو محترق. أطلّت علينا عبر الدّرابزون وتجشّأت تجشّؤاً خفيفاً، متطاولاً كانت عيناها صافيتين كالمطر، ومن جديد تذكّرتُ الشلاّل. لم تستطع أيّ منا الحديث. وتصوّرنا كلانا أن نرى ما قُدّر لفريدا أن تغدو عليه. ابتسمت «خطّ ماجينو» لنا.

ـ أتبحثان كلاكما عن أحد؟

اضطررت لاجتذاب لساني من سقف حلقي لأقول:

ـ بيكَولا ـ هل تسكن هنا؟

ـ أهه، لكنّها ليست هنا الآن، فقد مضت إلى حيث تعمل أمّها لجلب الغسيل.

ـ نعم، يا سيّدتي، هلْ ستعود؟

ـ أهه. يتعيّن عليها أن تنشر الملابس قبل الغروب.

ـ أوه.

ـ يمكنكما انتظارها. هل تريدان الصّعود إلى هنا وانتظارها؟

تبادلنا النّظرات. تطلّعتُ مجدّداً صُعُداً على امتداد الطّريقين العريضين المكسوَّين بلون الزّنجبيل، اللّذين يلتقيان في ظلّ ثوبها.

قالت فريدا:

ـ لا، يا سيّدتي!

بدت «خطّ ماجينو» مهتمّة بمشكلتنا.

ـ طيّب، يمكنكما الذّهاب إلى حيث تعمل أمّها، ولكنّه بعيد قرب البحيرة.

ـ أين على وجه التّحديد قرب البحيرة؟

ـ تلك الدّار البيضاء الكبيرة الّتي في واجهتها عربة يد مليئة بالزهور.

كانت داراً نعرفها، بعد أن أعجبنا بعربة اليد المائلة ذات العجلة الّتي وضعت فيها عصيّ وزرعت فيها زهور الموسم.

ـ أليس ذلك المكان أبعد من أن تمضيا إليه كلاكما سيراً على الأقدام؟

حكّت فريدا ركبتها.

ـ لِمَ لا تنتظرانها؟ يمكنكما الصّعود إلى هنا. هل ترغبان في بعض الجعة؟

أضاءت تلكما العينان اللّتان يكسوهما المطر، وكانت ابتسامتها عريضة لا كابتسامات الكبار الآخرين محاصرة ومضيّقاً عليها.

تحرّكتُ تمهيداً للصّعود، لكنّ فريدا قالت:

ـ لا، يا سيّدتي، ليس مسموحاً لنا!

دهشت لشجاعتها، وخفت من وقاحة ردّها. انزلقت ابتسامة «خطّ ماجينو» عن شفتيها، وهي تقول:

ـ ليس مسموحاً لكما؟

ـ لا، يا سيّدتي!

twitter @baghdad_library

ـ ليس مسموحاً لكما بماذا؟

ـ بدخول دارك.

سكتت الشلاّلات.

ـ أصحيح ذلك؟ كيف هذا؟

ـ هذا ما قالته أمّي. قالت إنّك قد سُلبت عفافك.

بدأت الشلاّلات بالانهمار مجدّداً. وضعت «خطّ ماجينو» زجاجة جعة الجذور على شفتيها، وأفرغتها. وبحركة رشيقة من رسغها، إيماءة بالغة السّرعة والضّآلة بحيث أنّنا لم نرها بصورة حقيقيّة قطّ، وإنّما تذكّرناها فيما بعد فحسب، طوّحت بالزجاجة علينا عبر الدّرابزون، فانكسرت عند أقدامنا، ورقّشت كسرات من الزّجاج البنّي سيقاننا، قبل أن نستطيع الوثوب متراجعتين. وضعت «خطّ ماجينو» يداً لحيمة على إحدى طيّات معدتها، وضحكت. في البداية همهمة عميقة وفمها مطبق، ثمّ صوت أكثر عرضاً ودفئاً. ضحك جميل ومخيف في آن واحد. تركت رأسها يميل، وأغمضت عينيها، وهزّت جذعها الهائل، تاركة الضّحك ينهلّ وكأنّه دفق من وريقات الأشجار الحمراء حولنا، تبعتنا ونحن نركض جدائل ونثارات من الضّحك، وتقطّع نفسنا في الوقت الّذي تهالكت فيه سيقاننا. وبعد أن ارتحنا مستندتين إلى شجرة ورأسّانا على سواعد متقاطعة، قلت:

ـ دعينا نذهب إلى الدّار!

كانت فريدا ماتزال غاضبة، واعتقدت أنّها تقاتل من أجل حياتها.

ـ لا يتعيّن علينا أن نحصل على الويسكي الآن.

ـ ليس بمقدورنا قطع الطّريق كلّه إلى البحيرة.

ـ نعم، بمقدورنا، هلمّي!

ـ ستنال منّا أمّي.

ـ لا، لن تفعل، وفضلاً عن ذلك فليس بمقدورها أن تفعل شيئاً إلاَّ أنّ تضربنا.

كان ذلك حقيقيّاً، فهي لن تقتلنا، أو تضحك منّا ضحكة رهيبة، أو تلقّي زجاجة علينا.

مضينا في طرق حفّت بها الأشجار تضمّ بيوتاً رماديّة رقيقة تميل كسيّدات نال منهنّ الإعياء.. تغيّرت الشّوارع. وبدت البيوت أضخم، وطلاؤها أكثر جدّة، ومداخل أروقتها أكثر استقامة، وأفنيتها أكثر رحابة، ثمّ لاحت بيوت حجريّة مُقامة بعيداً عن الشّوارع، أمامها أفنية ذات حافات من الجَنَبات والشّجيرات وقد شُذِّبت لتتّخذ شكل أقماع وكرات ناعمة من الخُضرة القطيفيّة.

كانت البيوت المطلّة على البحيرة هي الأجمل. أثاث حدائق، زينات، نوافذ تشبه عوينات لامعة، وما من أثر لحياة. انحدرت الأفنية الخلفيّة لهذه البيوت في منحدرات خضراء إلى بقعة رمليّة، ثمّ إلى بحيرة إري الزّرقاء، الّتي تتلاطم أمواجها وصولاً إلى كندا. ولم يحدث قطّ أن امتدّت السّماء المرقّشة باللّون البرتقالي في قطاع مصنع الصّلب إلى هذا الجزء من المدينة. فهذه السّماء كانت زرقاء على الدّوام.

بلغنا حديقة شاطئ البحيرة، وهي حديقة من حدائق المدينة حفلت بها براعم الزّهور والنّافورات ومساحات لعب كرة البولنج، ومناضد النّزهات الخلويّة. وكانت خاوية الآن ولكنّها تتوقّع على نحو

twitter @baghdad_library

جميل أطفالاً بيضاً، نظيفين، مهذّبين، وآباء سيلهون هناك على المنطقة المطلّة على البحيرة قبل أن ينطلقوا منحدرين ما بين الجري والتعثّر إلى الماء المرحِّب بهم. ولم يكن مسموحاً للسود بدخول الحديقة؛ ولذا ملأتْ أحلامَنا.

أمام مدخل الحديقة مباشرة كانت تقوم تلك الدّار البيضاء الكبيرة ذات عربة اليد المليئة بالزهور. وقد حفّت أوراق نبات الزّعفران القصيرة بالقلوب الأرجوانيّة والبيضاء الّتي بلغ من عمق رغبتها في أن تكون الأولى أنّها تحمّلت برد الرّبيع الباكر ومطره. ولقد رُصف الممشى بحجر لوحيّ في فوضى محسوبة لتخفي التّوازن المراوغ. ومنعنا الخوف من أن يُكتشَف أمرُنا، ومعرفة أنّنا لا ننتمي إلى هذا المكان، من التسكّع، فقمت بجولة دائريّة حول الدّار المتباهية بنفسها، ومضينا إلى مؤخّرتها.

هناك على الرّواق الصّغير المحاط بحاجز جلست بيكولا في صِدارة حمراء فاتحة وفستان قطني أزرق. وكان بجوارها عربة صغيرة. بدت سعيدة برؤيتنا.

ـ مرحباً!

ـ مرحباً!

ـ ماذا تفعلان هنا معاً؟

كانت تبتسم، ولمّا كان ذلك شيئاً نادراً ما تُرى وهي تفعله، فقد دهشت حيال السّرور الّذي منحني ذلك إيّاه.

ـ إنّنا نبحث عنك.

ـ ومن الّذي قال لكما إنّني هنا؟

ـ «خطّ ماجينو»

ـ ومن عساه يكون؟

ـ تلك السيّدة الضّخمة البدينة الّتي تقطن فوقكم.

ـ أوه، تقصدان الآنسة ماري. إنّ اسمها الآنسة ماري.

ـ طيّب، الجميع يدعوها بخطّ ماجينو. ألا تخافين؟

ـ أخاف ممّ؟

ـ خطّ ماجينو.

بدت بيكولا متحيّرة، بصورة حقيقيّة.

ـ علامَ؟

ـ هل تتركك أمّك تدخلين دارها؟ وتأكلين من أطباقها؟

ـ إنّها لا تعرف أنّني أذهب إلى هناك. والآنسة ماري لطيفة. كلّهنَّ لطيفات.

قلت:

ـ أوه، نعم، لقد حاولت قتلنا.

ـ من؟ الآنسة ماري؟ إنّها لا تضايق أحداً.

ـ إذن فكيف تأتّى أنّ أمّك لا تسمح لك بدخول دارها إذا كانت لطيفة؟

ـ لست أدري. إنّها تقول إنّها سيّئة، ولكنهنَّ لسن سيّئات. وهنّ يعطينني أشياء طوال الوقت.

ـ أيّة أشياء؟

ـ أوه. الكثير منها. فساتين جميلة، وأحذية. إنّني أحصل على أحذية تبوق ما انتعلته طوال عمري، وحلى، وحلوى، ونقود، وهنّ

twitter @baghdad_library

يصحبنني لمشاهدة الأفلام، وذهبنا مرّة إلى الكرنفال، وستأخذني تشاينا إلى كليفلاند لمشاهدة الميدان، وستصحبني بولاند إلى شيكاغو لرؤية «اللّوب». إنّنا نذهب إلى كلّ مكان معاً.

ـ إنّك تكذبين، فليست لديك فساتين جميلة.

ـ بل لديّ.

تساءلت فريدا:

ـ أوه، كوني صريحة، يا بيكولا، لم تحدّثيننا بكلّ ذلك الهراء.

ـ ليس هراء.

وقفت بيكولا متأهّبة للدفاع عمّا قالته، عندما فتح الباب.

أطلّت السيّدة بريدلوف برأسها من الباب، وقالت:

ـ ما الّذي يجري هنا؟ من هاتان الطّفلتان، يا بيكولا؟!

ـ هاتان فريدا وكلوديا، يا سيّدة بريدلوف!

ـ ابنتا من هما؟

أقبلت إلى الشّرفة. كانت في زيّها الرّسمي الأبيض ألطف ممّا قُدِّر لي يوماً أن أراها، وقد صفّفت شعرها على طريقة بومبادور بصورة مصغّرة.

ـ ابنتا السيّدة مكتير، يا سيّدتي!

ـ أوه، نعم، أتقطنان في الشّارع الحادي والعشرين؟

ـ أجل، يا سيّدتي!

ـ ماذا تفعلان هنا على بعد كلّ هذه المسافة؟

ـ نتمشّى فحسب. جئنا لرؤية بيكولا

ـ طيّب. خير لكما أن تعودا، بمقدوركما التنزّه مع بيكولا، أقبلا بينما أجلب الغسيل!

دخلنا المطبخ، قاعة كبيرة، فسيحة. التمعت بشرة السيّدة بريدلوف كالتُّفْتاه على صقال الخزف الأبيض، الأثاث الأبيض، الخزائن المصقولة، والأدوات النحاسيّة المتألّقة، اختلطت روائح اللّحم والخُضَر وشيء يخبز لتوّه برائحة «فَلْس نفتاه».

ـ سأجلب الغسيل، وعليكنّ جميعاً الوقوف هنا تماماً بلا حراك وعدم العبث بشيء!

اختفت خلف باب أبيض متأرجح، وكان بمقدورنا أن نسمع وقع قدميها غير المتوازن وهي تهبط إلى الدَّوْر الأسفل.

فتح باب آخر، وأقبلت فتاة صغيرة، أصغر حجماً وسنّاً منّا جميعاً. كانت ترتدي ثوباً أحمر ورديّاً وتنتعل شبشباً من اللّون نفسه مُزغباً ممّا يُستخدم في المخادع، وقد برزت من أطرافه أذنا أرنب، وكان شعرها حنطيّاً، ومربوطاً بشريط غليظ. وعندما رأتنا تراقص الخوف في محياها لثانية، وتطلّعت بقلق في أرجاء المطبخ.

تساءلت:

ـ أين بولّلي؟

تصاعد بداخلي العنف المألوف. بدت مناداتها للسيِّدة بريدلوف ببولّلي، فيما كانت بيكولا تدعو أمّها بالسيّدة بريدلوف سبباً كافياً لخمشها.

قلت:

ـ إنّها بالطابق الأسفل.

twitter @baghdad_library

نادت:

ـ بولّلي!

همست فريدا:

ـ انظرا! انظرا إلى ذلك!

على النّضد قرب الموقد وفي مقلاة فضيّة كانت هناك فطيرة فاكهة من نوع «القبلر»، والعصير الأرجواني يندفع هنا وهناك من خلال القشرة الخارجيّة. دَنَوْنا منها.

قالت فريدا:

ـ إنّها ماتزال ساخنة.

مدّت بيكولا يدها لتمسّ المقلاة بخفّة، لتتبيَّن ما إذا كانت ساخنة.

نادت الطّفلة الصّغيرة مجدّداً:

ـ بولّلي، تعالي إلى هنا!

ربّما كان مردّ الأمر إلى العصبيّة، ولكن المقلاة مالت تحت أصابع بيكولا، وسقطت على الأرض، ناثرة ثمار العنبيّة المسوّدة في كلّ مكان. لقد تناثر معظم العصير على ساقي بيكولا، ولابدّ أنّ الحرق كان مؤلماً؛ لأنّها صرخت عالياً، وراحت تتقافز في موضعها، فيما دخلت السيّدة بريدلوف المطبخ بحقيبة مليئة بالغسيل. وفي انقضاضة واحدة بلغت بيكولا، ولطمتها بظهر كفّها، فألقتها أرضاً. انزلقت بيكولا في عصير الفطيرة، وقد انثنت إحدى ساقيها تحتها. جذبتها السيّدة بريدلوف من يدها بعنف، وصفعتها مجدّداً، وبصوت حادّ من فرط الغضب انهالت سبّاً على بيكولا بصورة مباشرة وعليّ وفريدا بصورة ضمنيّة.

ـ أيّتها الحمقاء المجنونة. أرضيّتي تحوّلت إلى فوضى. انظري ماذا جنيت!. العمل. اخرجوا... الآن وقد. مجنونة. أرضيّتي، أرضيّتي، أرضيّتي!

كانت كلماتها أكثر سخونة وسواداً من ثمار العنبيّة. راح البخار ينبعث منها، تراجعنا إلى الوراء بفزع.

شرعت الفتاة ذات الرّداء الأحمر الورديّ في البكاء. التفتت السيّدة بريدلوف إليها قائلة:

ـ هدّئي من روعك، يا صغيرتي، هدّئي من روعك! أقبلي! آه، يا إلّهي! انظري إلى ثوبك! لا تبكي بعد هذا، بولّلي سوف تغيّره.

مضت إلى المغسلة، وفتحت الماء على منشفة نظيفة، وملتفتة نحونا برأسها دون أن تواجهنا بصقت كلمات نحونا كأنّها قطع عفنة من تفّاحة:

ـ التقطن ذلك الغسيل، واخرجن من هنا، لأتمكّن من تنظيف هذه الفوضى!

التقطت بيكولا حقيبة الغسيل، المثقلة بالملابس الرّطبة، وخطونا مسرعات نحو الباب. وفيما بيكولا تضع الغسيل في العربة، كان بمقدورنا أن نسمع السيّدة بريدلوف وهي تهدّئ من روع الفتاة الصّغيرة الّتي تجمع بين اللّونين الأحمر ـ الورديّ والحنطيّ وتكفكف دمعها.

ـ من كنّ يا بولّلي؟!

ـ لا تقلقي، يا طفلتي!

ـ هل ستُعدّين فطيرة أخرى.

ـ بالطبع، سأُعدّها.

twitter @baghdad_library

ـ من كنّ يا بولّلي!

ـ هدّئي من روعك، ولا تقلقي!

همست، فتكامل الشّهد في كلماتها مع الشّمس الغاربة، المتقاطرة على البحيرة.

أنظر وا إلياما الأملطيفتللغايتهلسيلعبا لامع
جينانهاتضحكتضحكالاًمتضحكت

سيكون أيسر ما يمكن القيام به هو بناء صرح قضيّة انطلاقاً من قدمها. وذلك هو ما فعلته هي نفسها، ولكن لكي يكتشف المرء الحقيقة فيما يتعلّق بالأحلام فإنّ عليه ألاّ يأخذ إطلاقاً بما يقوله الحالم. وربّما كانت نهاية بدايتها الجميلة هي التسوّس في إحدى أسنانها الأماميّة. غير أنّها قد فضّلت على الدّوام التّفكير في قدمها. وعلى الرغم من أنّها كانت التّاسعة بين أحد عشر طفلاً وتقطن على قمّة تلّ من طين ألاباما على بعد سبعة أميال من أقرب طريق، فإنّ اللاّمبالاة التامّة الّتي قوبل بها مسمار صدئ عندما اخترق قدمها موغلاً خلال عامها الثّاني قد أنقذ بولين وليامز من الإغفال التّام لاسمها، فقد تركها الجرح بقدم معقوفة غير مقوّسة، قدم ترتمي بتثاقل عندما تسير، ليس عرجاً يلوي عمودها الفقري بالفعل، وإنّما طريقة في رفع القدم الشّوهاء وكأنّها تنتزعها انتزاعاً من دوّامات صغيرة تنذر باجتذابها إلى أسفل، ورغم ضآلة هذا التشوّه فإنّه فسّر لها كثيراً من الأشياء الّتي كان يمكن لولا ذلك أن تستعصي على الفهم: لِمَ لم تحظَ من بين كلّ الأطفال باسم للتدليل، ولماذا لم تكن هناك نكات ظريفة وطرائف عن أمور مضحكة فعلتها، لِمَ لم يُلقِ أحد بملاحظة عمّا تؤثّره من طعام ـ لا توفير لعنقٍ أو جناح لها ـ لا

twitter @baghdad_library

طهي للبازلاء في آنية منفصلة دون أرزّ لأنّها لا تحبّ الأرزّ، لماذا لم يكن أحد يداعبها، لماذا لم تكن تشعر بالألفة في أيّ مكان، أو بأنّها تنتمي إلى أيّ موضع. ردّت شعورها العام بالانفصال وعدم الجدارة إلى قدمها. وإذ قُيّدت في طفولتها إلى هذه الشّرنقة من تدويم عائلتها، فقد تعهّدت بالعناية مباهج هادئة ومقتصرة عليها. أحبّت، في المقام الأوّل، ترتيب الأشياء، صفّ الأشياء صفوفاً وراء أخرى ـ المرطبانات على الرّفوف عند الحفظ، قطع الخوخ، العصيّ، الأحجار، أوراق الشّجر. وترك أعضاء عائلتها هذه التّرتيبات وشأنها. وعندما كان أحدهم يطيح، بالصدفة، بصفوفها، كانوا يتوقّفون لإعادتها إلى ما كانت عليه من أجلها، ولم يحدث أن غضبت قطّ؛ لأنّ ذلك أتاح لها الفرصة لإعادة ترتيبها مجدّداً. وأيّاً كان العدد الوافر الّذي يقابلها من الأشياء الّتي يمكن حملها فإنّها كانت تقوم بترتيبه في صفوف منمّقة بحسب الحجم أو الشّكل أو التدرّج اللّوني، وكما أنّها لا تضع إبرة الصنوبر إلى جوار ورقة شجرة القطن فإنّها لا تضع أبداً مرطبانات البندورة إلى جوار مرطبانات البازلاء الخضراء. وخلال السّنوات الأربع الّتي درست خلالها بالمدرسة، كانت تفتنها الأعداد، وتثير الكلمات كآبتها. وفاتتها ـ دون أن تعرف ما فاتها ـ الألوان وأقلام الطّباشير.

قرب بداية الحرب العالميّة الأولى اكتشفت عائلة وليامز، من الجيران والأقارب العائدين، إمكانيّة العيش على نحو أفضل في مكان آخر. وهاجروا في غضون ستّة أشهر وعبر أربع رحلات في أماكن إيواء مؤقّتة وأفنية وقطع أرض، إلى كنتاكي، حيث كان هناك مناجم ومعامل.

«لمّا تركنا كلّنا مسقط رأسنا، وفضلنا ننتظر قرب المحطّة مجيء الشّاحنة، كانت الدّنيا ليلاً. وطارت حشرات حزيران (يونيو) في كلّ مكان. أنارت ورقة شجرة عالياً، وشفت خطّاً من الخضرة بين الحين والثّاني. وهذه كانت آخر مرّة شفت فيها حشرات حزيران (يونيو). وهذه الأشياء الموجودة هنا ليست حشرة حزيران (يونيو). هي شيء آخر. والنّاس هنا يسمّونها الحباحب. أمّا في مسقط رأسي فكانت حاجة مختلفة، لكنّني أذكر ذلك الخطّ الأخضر، أذكره جيّداً»[1]

أقاموا، في كنتاكي، في بلدة حقيقيّة، تضمّ عشر دور أو خمس عشرة داراً في شارع واحد، ويُضخّ الماء إلى المطبخ مباشرة. ووجد أدا وفاولر وليامز داراً تضمّ خمس غرف لسكنى عائلتهما. كان سور عرف اللّون الأبيض يوماً يحفّ بالفِناء، وقد غرست أمّ بولين بإزائه الزّهور، وقاموا بتربية دجاجات قلائل في إطاره، والتحق بعض الإخوة بصفوف الجيش، وماتت إحدى الأخوات، وتزوّجت اثنتان منهنّ، الأمر الّذي زاد من المجال المتاح للمعيشة، وأضفى لمسة من الرّفاهية على مشروع الانتقال إلى كنتاكي بكامله. وكانت عمليّة الانتقال مريحة بالنسبة لبولين بصفة خاصّة، وكانت قد كبرت بحيث يتاح ترك المدرسة، وحصلت السيّدة وليامز على عمل هو القيام بأعمال النّظافة والطّهي لكاهن أبيض على الجانب الآخر من المدينة، وتولّت بولين، الّتي أصبحت الآن أكبر البنات سنّاً في الدّار،

---

(١) هنا يتناهى وعي بولين وليامز ـ السيّدة بريدلوف ـ إلينا عبر كلماتها، وحيثما اكتشف القارئ في الفقرات المماثلة تداعياً إلى العاميّة الرّكيكة، كان ذلك انعكاساً للأصل. (هـ.م.)

twitter @baghdad_library

مسؤوليّة العناية به. أبقت على السّور في حالة طيّبة، وأدامت استقامة الخشبات المستدقّة الطّرف، ودعّمتها بقطع من السّلك، وقامت بجمع بيض الدّجاجات، وبالكنس، والطّهي، والغسيل، ورعت الطّفلين الأصغر سنّاً، وهما توأمان يدعيان تشيكن وباي كانا مايزالان في المدرسة. لم تكن جيّدة في القيام بأمر البيت فحسب، وإنّما كانت تستمتع به أيضاً، وبعد أن يغادر أبواها الدّار في الطّريق إلى العمل، ويمضي الأطفال الآخرون إلى المدرسة أو إلى المناجم يسود الهدوء الدّار. وكان السّكون والعزلة يُدخِلان الهدوء إلى نفسها، ويجدّدان طاقاتها معاً. وكان بمقدورها التّرتيب والتّنظيف دونما إزعاج حتّى السّاعة الثّانية بعد الظّهر، عندما يعود تشيكن وباي إلى الدّار.

عندما وضعت الحرب أوزارها، وبلغ التّوأمان العاشرة من العمر، تركا المدرسة بدورهما للالتحاق بالعمل. كانت بولين في الخامسة عشرة، وماتزال تقوم على شؤون الدّار، ولكن بقدر أقلّ من الحماس؛ فقد كانت أحلام اليقظة عن الرّجال والحبّ واللّمس تجتذب انتباهها ويديها بعيداً عن عملها. وبدأت التغيّرات في الطّقس تؤثّر فيها، على نحو ما فعلت تنهّدات وأصوات معيّنة. وقد ترجمت هذه المشاعر نفسها بالنسبة لها في صورة كآبة بالغة. وراحت تفكّر في موت الأشياء الوليدة، والطّرق المتوحّدة، والغرباء الّذين يظهرون من المجهول ليمسكوا بيد المرء، والغابات الّتي تغيب فيها الشّمس على الدّوام. وقد تعاظمت هذه الأحلام بصفة خاصّة في الكنيسة، وداعبت الأغاني مشاعرها. وبينما حاولت أن تمسك بزمام ذهنها على أجنحة الخطيئة، ارتجف بدنها توقاً إلى التحرّر والخلاص وبعث

غامض سيحدث دونما جهد من جانبها. ولم تكن عدوانيّة في أيّ من أحلام يقظتها، وإنّما كانت عادة مسترخية بجوار ضفّة النّهر أو تجمع الثّمار في حقل، فإذا بشخص قد أقبل، له عينان رقيقتان تخترقان الآخرين إلى الأغوار، ويتفهّم الأمر ـ دون أن يتبادلا الحديث ـ وأمّا نظرته فتخلّص قدمها من تشوّهها وينخفض ناظراها. لم يكن لهذا الشّخص وجه محدّد الملامح، ولا قوام، ولا صوت، ولا رُائحة. وإنّما كان حضوراً بسيطاً، ورقّة تغمر كلّ شيء مع قوّة ووعد بالراحة. ولم يكن ممّا له أهميّة أنّها لم تدر ماذا عليها أن تفعله أو تقوله لهذا الحضور، بعد المعرفة السّاكنة واللّمس الّذي لا يحدث صوتاً، كانت أحلامها تتداعى بَدَداً. ولكن هذا الحضور كان من شأنه أن يعرف ما يتعيّن القيام به. وكلّ ما عليها أن تضع رأسها على صدره، فيمضي بها بعيداً إلى البحر، إلى المدينة إلى الغابات. للأبد.

كانت هناك امرأة تدعى إيڤي بدا أنّها تمسك في فمها بكلّ أصوات روح بولين. وإذ تقف إيڤي هذه مبتعدة قليلاً عن الجوقة فإنّها تنشد العذوبة القاتمة الّتي لم تكن بولين تستطيع تسميتها. كانت تنشد الموت الّذي يتحدّث، الموت الّذي تحنّ إليه بولين، تنشد عن الغريب الّذي عرف بالأمر.

إلّهي المتعال خذ بيدي
أرشد خطاي، ودَعْ قامتي تنتصب
إنّي يستبدّ بي التّعب، والضّعف، والإعياء.
عبر العواصف، خلال الليل
أرشد خُطاي إلى النّور

twitter @baghdad_library

خذ بيدي، أي إلّهي المتعال، أرشدُ خطاي!
عندما يغدو طريقي موحشاً
يظلّ إلّهي المتعال بقربي،
عندما توشك حياتي أن تنقضي
يسمع صيحتي، يصغي لندائي
يمسك بيدي حتّى لا أسقط
خذ بيدي، أي إلّهي المتعال، قُدْ خُطاي!

وهكذا فإنّه عندما ظهر الغريب، الشّخص غير المحدَّد، من المجهول، كانت بولين ممتنّة، ولكنّها لم تكن مندهشة.

أقبل مختالاً كأنّما خرج من رحاب شمس كنتاكي في أشدّ أيّام العام قيظاً، أقبل كبيراً، أقبل قويّاً، أقبل بعينين صفراوين، وبخيشومين منتفخين، وأقبل مع موسيقاه الخاصّة.

كانت بولين منحنية في تكاسل على السّور، وذراعاها مستندتان على السّياج المتقاطع بين الأوتاد. كانت قد وضعت في الفرن لتوّها بعض عجينة البسكويت، وراحت تنظّف ما تحت أظافرها من الدّقيق. سمعت صفيراً وزاءها، وعلى مسافة منها. أحد تلك المقاطع السّريعة العالية النّغمة الّتي يرتجلها الفتية السّود وهم ينطلقون خلال الكنس أو النّقل بالرفش، أو مجرّد السّير، نوع من موسيقى شوارع المدن حيث يكذّب الضّحكُ القلقَ، والنّشوة قصيرة وحادّة كنصل مُدية. أصغت بانتباه إلى الموسيقى، وتركتها تجتذب شفتيها مُشَكِّلة ابتسامة. ازداد الصّفير ارتفاعاً، ورغم ذلك لم تلتفت إلى الوراء؛ ذلك أنّها أرادت أن تدوم الموسيقى. وبينما هي تبتسم

لنفسها، وتتمسّك بشدّة بهذه الانفراجة في الخواطر الكابية، أحسّت بشيء يداعب قدمها. ضحكت عالياً، والتفتت لتنظر. كان صاحب الصّفير منحنياً يداعب قدمها الشّوهاء، ويقبّل ساقها. لم تستطع وقف ضحكها، إلاَّ حين تطلَّع إليها، ورأت شمس كنتاكي تملأ عيني تشولّلي بريدلوف الصّفراوين، الثّقيلتي الأجفان.

«لمّا شفت تشولّلي أوّل مرّة، أريدك أن تعرف أنّها كانت مثل كلّ لمحات اللّون من تلك المرّة في مسقط رأسي، الّتي ذهبنا فيها جميعاً، نحن العيال، لقطف التّوت البرّي، بعد جنازة، ووضعت بعضاً منه في جيب ردائي، الّذي ألبسه يوم الأحد، وانهرس التّوت، ولطّخ وركيّ. تلطّخ ردائي كلّه باللّون الأرجواني، ولم يطلع أبداً. لم يطلع منّي ولا من الرّداء. واستطعت أن أحسّ بذلك اللّون الأرجواني عميقاً في داخلي. وعصير اللّيمون ذلك الّذي كان من عادة ماما أن تعمله عندما يعود بابا من الغيطان. كان بارداً ومصفرّاً، والبذور تطفو قرب القاع. وذلك الخطّ من اللّون الأخضر الّذي أحدثته حشرات حزيران (يونيو) على الأشجار في ليلة تَرْكِنا لمسقط رأسي. هذه الألوان كلّها كانت بداخلي، موجودة هناك. ولذا لمّا جاء تشولّلي ولمس قدمي، كان مثل التّوت البرّي، عصير اللّيمون ذلك، الخطوط الخضراء الّتي أحدثتها حشرات حزيران (يونيو)، كلّها جاءت معاً. وقتها كان تشولّلي رفيعاً، وله عينان فاتحتا اللّون، وكان من عادته أن يصفّر، ولمّا سمعته ارتعش جلدي».

تبادل بولين وتشولّلي الحبّ. وبدا أنّه يبتهج بصحبتها، بل ويستمتع بطريقتها الرّيفيّة في السّلوك وبافتقارها للمعرفة بأمور المدينة. تحدّث معها عن قدمها، وسألها عندما كانا يتنزّهان في

twitter @baghdad_library

أنحاء البلدة، أو في الحقول عمّا إذا كانت متعبة. وبدلاً من تجاهل تشوّهها، والتّظاهر بأنّه ليس موجوداً، جعله يبدو كما لو كان شيئاً متميّزاً ومصدراً للإعزاز. وللمرّة الأولى أحسّت بولين بأنّ قدمها الشّوهاء هي رصيد يحسب لها.

وكان يلمسها، على نحو ما تراءى لها في الحلم، بقوّة ولكن بلطف، ولكن مع غياب الكآبة النّابعة من الشّموس الغاربة، وضفاف النّهر الموحشة. كانت آمنة وممتنّة، وكان لطيفاً ومفعماً بالحياة، ولم تكن قد عرفت أنّ في الدّنيا مثل هذا القدر من الضّحك.

اتّفقا على الزّواج وعلى الانطلاق بعيداً باتّجاه الشّمال، حيث قال تشولّلي إنّ مصانع الصّلب تستجدي العمّال. جاءا إلى لورين بولاية أوهايو في ميعة الصّبا، عاشقيْن، مفعميْن بالطاقة، ووجدا عملاً في مصانع الصّلب على الفور، وبدأت بولين بالعناية بشؤون الدّار.

وفي ذلك الوقت فقدت سنّها الأماميّة، ولكن لابدّ أنّه كانت هناك بقعة صغيرة، بقعة بنّيّة تمّ الخلط بيسر بينها وبين الطّعام، ولكنّها لم تتحرّك من موضعها، وإنّما مكثت على الميناء طوال شهور، وكبرت، إلى أن شقّت طريقها إلى السّطح، ثمّ إلى الأسفل المعجوني ذي اللّون البنّي، وفي النّهاية تآكل الجذر، ولكنّها تجنّبت الأعصاب، وهكذا فإنّ وجودها لم يكن قابلاً للرصد ولم يكن ممّا يبعث على عدم الارتياح، ثمّ بعد أن اعتادت الجذور الّتي تمّ إضعافها على السمّ، استجابت ذات يوم للضغظ القاسي، وسقطت السنّ من موضعها تاركة قاعدة السنّ المتمزّقة، ولكن حتّى قبل البقعة البنّيّة الصّغيرة لابدّ أنّه كانت هناك أوضاع، التّركيبة الّتي ستسمح لها بأن توجد في المقام الأوّل.

في تلك البلدة اليافعة والنّامية من بلدات أوهايو، الّتي كانت شوارعها الجانبيّة نفسها ممهّدة بالأسمنت، والّتي تقبع على حافة بحيرة زرقاء ساجية تتباهى بشبهها بأوبرلين، محطّة مترو الأنفاق، على بعد ثلاثة عشر ميلاً، بوتقة الانصهار هذه على شَفَة أميركا المواجهة لكندا الباردة وإن كانت لمّاحة ـ ما الّذي أمكن أن تسوء عاقبته؟

«كنت أنا وتشولّلي في حالة جيّدة وقتها. جئنا إلى الشّمال، وافترضنا أنّه سيكون هناك المزيد من العمل وكلّ شيء. عُزِلنا في غرفتين فوق متجر للأثاث، وبدأت بالعناية بالبيت. كان تشولّلي يشتغل في مصنع الصّلب، وكلّ شيء مظهره جيّد. ولست أعرف ما الّذي حصل فجأة. تغيّر كلّ شيء. كان من الصّعب معرفة النّاس هنا، وأوحشني أهلي، ولم أكن معتادة على الكثير من البيض هكذا، والّذين شفتهم من قبل كانوا شيئاً كريهاً، ولكنّهم لم يختلطوا بنا كثيراً، أقصد أنّنا لم نكن نحتكّ بهم كثيراً. بين حين والآخر في الغيطان فقط، أو في المركز، ولكنّهم يريدون كلّ شيء على حسابنا. أمّا في الشّمال فكانوا أكثر من الهمّ على القلب، بجوارنا، وتحتنا، وفي كلّ الشّوارع. وكان الملوّنون قليلين، ولا نراهم إلاّ كلّ حين ومين. وكان الملوّنون الشّماليُّون مختلفين أيضاً، كالطّواويس، ليسوا أفضل من البيض في الخسّة. وكانوا يستطيعون جعلك تحسّ وكأنّك لست موجوداً، وكلّ ما هناك أنّني لم أكن أنتظر ذلك منهم. كان هذا أكثر وقت في حياتي شعرت فيه بالوحشة. وأذكر أنّني كنت أطلّ من النّوافذ الأماميّة بانتظار مجيء تشولّلي للدار، في السّاعة الثّالثة، ولم تكن لديّ حتّى قطّة أكلّمها».

twitter @baghdad_library

في غمرة وحشتها، تحوّلت إلى زوجها تنشد لديه الطّمأنينة، والتسرية عن النّفس، وأشياء تملأ المواضع الشّاغرة؛ فرعاية شؤون الدّار لم تكن كافية، فليس هناك إلاَّ غرفتان، وما من فِناء للعناية به أو التنزّه فيه. وكانت النّسوة في البلدة ينتعلن أحذية ذات كعوب عالية، وعندما حاولت بولين انتعالها فاقمت من طريقتها في نقل قدمها بتثاقل إلى عَرَج مُعْلَن. كان تشولّلي مايزال الرقّة بذاتها، ولكنّه بدأ بمقاومة اعتمادها الكامل عليه، وبدأ يجدان قدراً أقلّ فأقلّ من الحديث ليتبادلاه. ولم يواجه مشكلة في العثور على آخرين وعلى أمور أخرى تشغله، فقد كان الرّجال يصعدون الدّرج دائماً سائلين عنه، وكان يسعد بصحبتهم، تاركاً إيّاها وحيدة.

أحسّت بولين بعدم الارتياح مع النّسوة السّوداوات القليلات اللاّتي قابلتهنّ، وقد وجدن فيها مخلوقة طريفة لأنّها لم تكن تزيل تجاعيد شعرها وتجعله أملس، وعندما حاولت تجميل ملامحها على نحو ما يفعلن جاءت النّتيجة بالغة السّوء. وغذّت نظراتهنّ الّتي تشبه المِنْخَس إليها وضحكاتهنّ نصف المكبوتة فيما بينهنّ على طريقتها في الحديث (كقولها «عيال») وطريقتها في ارتداء الملابس ـ غذّت فيها رغبة في الملابس الجديدة. وعندما بدأ تشولّلي بالشجار على النّقود الّتي أرادت الحصول عليها، قرّرت الذّهاب للعمل. وقد ساعدها العمل بالمياومة على شراء الملابس، بل وشراء أشياء قليلة للشقّة، ولكن ذلك لم ييسِّر الأمور مع تشولّلي، فلم تسرّه مشترياتها، وبدأ يحدّثها بذلك صراحة. ومزّقت المشاجرات زواجهما إرْباً. كانت ماتزال مجرّد صبيّة في مقتبل العمر، وماتزال تنتظر ربوة السّعادة تلك، ويد الربّ المتعال تلك، الربّ الّذي

سيظلّ على الدّوام بقربها عندما يغدو طريقها موحشاً. الآن فحسب أصبحت لديها فكرة واضحة بصورة أكبر عمّا تعنيه كلمة «موحش» أصبحت النّقود بؤرة كلّ مناقشاتهما، نقودها الّتي تنفق على الثّياب، ونقوده الّتي تُبَدَّد في الشّراب. وكان الشيء المحزن أنّ بولين لم تهتمّ بالثياب ولا بالتجميل بصورة حقيقيّة، وإنّما أرادت فحسب أن تُلقي عليها الأخريات نظرات محبِّذة.

وبعد شهور عديدة من العمل بالمياومة، حصلت على عمل ثابت في دار عائلة متواضعة الإمكانيّات يحفل سلوكها بالعصبيّة والافتعال.

«بدأ تشولّلي يزداد في الخسّة، وأراد مشاجرتي طوال الوقت، وقد سقيته من الكأس نفسها، وكنت مضطرّة لذلك. ويبدو أنّ الشّغل عند تلك المرأة والخناق مع تشولّلي هو كلّ ما فعلته. شيء متعب. ولكنّني تمسّكت بأشغالي، على الرغم من أنّ الشّغل عند تلك المرأة كان إشكالاً ولم يكن الأمر راجعاً إلى خسّتها بقدر رجوعه إلى قلّة عقلها، كانت عائلتها كلّها كذلك، ولم يكونوا متفاهمين فيما بينهم. ويمكن لك أن تظنّ أنّه مع وجود منزل جميل كذلك المنزل وكلّ المال الّذي يضعون أيديهم عليه، سيُسعد أحدهم الآخر. كانت تنشال وتنهبل وتعيّط على أقلّ شيء. وإذا قاطعتها إحدى صديقاتها على التّليفون فإنّها تأخذ في البكاء، وكان ينبغي أن تكون مبسوطة لأنّ عندها تليفوناً، وليس لديّ تليفون حتّى الآن. وأذكر ذات مرّة أنّ أخاها الأصغر الّذي ساعدته في دراسة طبّ الأسنان لم يَدْعُهم إلى حفل كبير أقامه، وعظُم عليهم الأمر، وكلّ واحد منهم تحدّث بالتليفون أيّاماً في هذا الموضوع، وأقاموا الدّنيا ولم يقعدوها. وسألتني: بولين، ماذا تعملين لو أنّ أخاك أقام حفلاً ولم يسأل فيك؟

twitter @baghdad_library

قلت إنّني إذا كنت أريد حقّاً الذّهاب إلى ذلك الحفل فأظنّ أنّني سأذهب إليه مهما كان الأمر، وبغضّ النّظر عمّا يريده. وقد زامت قليلاً وأشارت إشارة كما لو أنّني بلهاء، وفي الوقت نفسه كنت أفكّر في كم هي بلهاء. من الّذي قال لها إنّ أخاها هو صديقها؟ النّاس لا يحبّون بعضهم البعض لأنّ لهم ماما واحدة، وقد حاولت أنا نفسي أن أحبّ تلك المرأة. كانت جيّدة حيث أنّها أعطتني بعض الأغراض، ولكنّني لم أستطع أن أحبّها، فبمجرّد أن تكون مشاعري نحوها جيّدة حتّى تأتي شيئاً يفضح جهلها وتبدأ بإبلاغي بكيفيّة التّنظيف وعمل الأشياء. ولو أنّني تركتها لشأنهالغرقت في الوساخة. لم أضطرّ للمّ الأشياء وراء تشيكن وباي مثلما كنت مضطرّة للمّها وراء هذه العائلة، ولم يكن أيّ منهم يعرف شيئاً حتّى مجرّد مسح الخراء عن مؤخّراتهم. وأنا أعرف ذلك لأنّني أقوم بغسل الملابس، ولم يكونوا يتبوّلون جيّداً بما يكفي لإنقاذ حياتهم. وزوجها لم يعرف بعد كيف يتخلّص من فضلاته دون أن يلوّث الحمّام. البيض السّخفاء هم أسخف ما في الدّنيا، ولكن كان يمكن أن أظلّ معهم لولا أن تشولّلي جاء إلى حيث أعمل وقطع عيشي. جاء إلى هناك مخموراً يريد بعض المال، ولمّا شافته تلك المرأة البيضاء انقلب لونها إلى الأحمر، وحاولت التصرّف تصرّف الأقوياء، ولكنّها كانت خائفة بفظاعة. على أيّ حال قالت لتشولّلي أن ينصرف وإلاّ استدعت الشّرطة. ولعنها وبدأ بشدّي. وكان يمكن أن أنطّ على رأسه، ولكنّني لم أرد أيّ معاملات مع البوليس، ولذا أخذت أغراضي ومشيت. حاولت العودة إليها، ولكنّها لم تعد تريدني إذا كنت سأعود إلى الإقامة مع تشولّلي. قالت إنّها ستتركني أبقى إذا ما هجرته، وفكّرت في ذلك، ولكن في

وقت لاحق لم تَبْدُ لي فكرة نيّرة أن تترك امرأة سوداء زوجها الأسود من أجل امرأة بيضاء، كما أنّها لم تعطني الأحد عشر دولاراً الّتي لي في ذمّتها أبداً. وقد آلمني ذلك أشدّ الألم. فقد قطع عامل الغاز إمدادنا بالغاز، ولم أستطع طهو شيء. وقد توسّلت لتلك المرأة أن تعطيني نقودي. ذهبت لمقابلتها. وكانت غاضبة كدجاجة أصابها البلل، وواصلت القول بأنّني مدينة لها لقاء زيّ العمل وسرير مكسور أعطتني إيّاه، ولم أعرف ما إذا كنت مدينة لها من عدمه، ولكنّني كنت بحاجة إلى نقودي، ولم تتراجع عن موقفها أبداً حتّى عندما وعدتها بأنّ تشولّلي لن يأتي إلى هنالك مستقبلاً، ثمّ أصابني اليأس بحيث أنّني سألتها عمّا إذا كان يمكنها أن تسلّفني إيّاها، لزمت الصّمت للحظة، ثمّ أبلغتني بأنّني ينبغي ألاّ أسمح لرجل بأن يستغلّني، وأنّني ينبغي أن أكون موضع احترام أكبر وأنّ من واجب زوجي أن يدفع قيمة الفواتير المستحقّة، وإذا لم يستطع ذلك، فإنّني ينبغي أن أهجره، وأن أحصل على نفقه الزّوجة المطلّقة، ومثل هذا الكلام السّاذج. علامَ سيعطيني النّفقة؟ أدركت أنّها لم تفهم أنّ كلّ ما احتجته منها كان دولاراتي الأحد عشر لأدفع لعامل الغاز مستحقّاته حتّى أتمكّن من طهي الطّعام. لم تستطع أن تدخل شيئاً واحداً في دماغها الغليظ. واصلتِ القول: «هل ستتركينه يا بولين؟!» حسبت أنّها ستعطيني مالي إذا ما قلت إنّي سأفعل ذلك، ولذا قلت: «نعم، يا سيّدتي!». قالت: «ليكن، اهجريه، ثمّ عودي إلى العمل، وسوف نترك كلّ شيء لحال سبيله». قلت: «هل أستطيع الحصول على مالي اليوم؟» قالت: «عندما تهجرينه فقط. إنّني أفكّر فيك وفي مستقبلك. ما مدى نفعه، يا بولين، ما مدى نفعه لك؟» كيف تردّ على امرأة مثل هذه لا

twitter @baghdad_library

تعرف مدى نفع الرّجل وتقول من طرف أنفها إنّها تفكّر في مستقبلك، ولكنّها لا تعطيك مالك لكي تشتري شيئاً إلى جانب الهراء لتناوله؟ ولذا قلت: «لا نفع فيه، يا سيّدتي، لا نفع فيه لي. ولكن كلّه سواء، أظن أنّني سأبقى معه». نهضت واقفة من جلستها، وغادرت بدوري المكان. وعندما وصلت إلى خارج الدّار شعرت بألم في موضع التقاء ساقيّ، فقد أبقيت ساقيّ ملمومتين بإحكام في محاولة لجعل تلك المرأة تفهم، ولكنّني أراهن الآن أنّها لم تستطع فهم الأمر. لقد تزوّجت من رجل له خدش في وجهه مكان الفمّ، وهكذا كيف كان يمكن أن تفهم؟».

اكتشفت بولين ذات شتاء أنّها حامل. وعندما أبلغت تشوللّي أدهشها بفرحه، وبدأ بتقليل عكوفه على الشّراب وبالإكثار من البقاء في الدّار، وعلى مهل عادا إلى علاقة أقرب إلى أيّام زواجهما الأولى، عندما كان يسألها عمّا إذا كانت متعبة أو ما إذا كانت تريد منه أن يجلب لها شيئاً من المتجر. وفي حالة الابتعاد عن التوتّر هذه توقّفت بولين عن العمل بالمياومة، وعادت إلى القيام على رعاية شؤون دارها. ولكن الشّعور بالوحدة في هاتين الغرفتين لم يكن قد تبدّد. عندما كانت شمس الشّتاء تلامس طلاء مقاعد المطبخ الأخضر المتقشّر، والعراقيب المدخنة تغلي في القدر، وعندما يتمثّل كلّ ما تستطيع القيام به في الاستماع إلى الشّاحنات وهي تنقل الأثاث في الطّابق السّفلي، كانت تفكّر في مسقط رأسها، وكيف أنّها كانت وحيدة معظم الوقت آنذاك أيضاً، ولكن في أنّ هذا الشّعور بالوحدة مختلف، ثمّ عندما كانت تتوقّف عن التّحديق في المقاعد الخضراء، وشاحنة نقل الأثاث، كانت تمضي إلى دار للسينما، كانت ذاكرتها

تنتعش هناك في الظّلام، وتستسلم لأحلامها الأولى. وإلى جانب فكرة الحبّ الرّومانسي تمّ تعريفها بفكرة أخرى، هي فكرة الجمال الجسدي، وهما فكرتان ربّما كانتا الأكثر تدميراً من بين كلّ الأفكار في تاريخ الفكر الإنساني، فكلتاهما تضربان جذورهما في الحسد، وتنتعشان في ظلّ الشّعور بعدم الأمان، وتنتهيان بخيبة الأمل. وفي غمرة ربطها للجمال الجسدي بالفضيلة جرّدت ذهنها، وقيّدته، وجمعت ازدراء الذّات أكواماً. نسيت الشّهوة والعناية البسيطة، ونظرت إلى الحبّ باعتباره مضاجعة استحواذيّة، وإلى قصّة الحبّ الرّومانسيّة باعتبارها هدف الرّوح. ومن شأنها أن تكون بالنسبة إليها بئراً تُستقى منها أكثر العواطف تدميراً، خداع الحبيب والسّعي إلى سَجْن المحبوب، والقضاء على الحرِّيّة بكلّ السّبل.

ولم تتمكّن، بعد تعلُّمها من الأفلام، من النّظر إلى وجه دون أن تسند إليه فئة في سلّم الجمال المطلق، وكان سلّماً استوعبته بكامله من الشّاشة الفضّيّة. هنالك أخيراً كانت الغابات المعتمة، والطّرق الموحشة، وضفاف النّهر، والعينان الرّقيقتان العارفتان. هنالك أصبح المتناثر كلاًّ واحداً، وغدا الأعمى بصيراً، وتوقّف الأعرج وألقى بعكّازيه بعيداً. هنالك كان الموت ميتاً، والنّاس يومئون كلّ الإيماءات في سحابة من موسيقى. هناك تدفّقت الصّور البيضاء والسّوداء معاً، صانعة كلاًّ رائعاً، تُعرض جميعها من خلال شعاع النّور المنهلّ من الوراء ومن أعلى.

كانت متعة بسيطة حقّاً، ولكنّها تعلّمت كلّ ما هنالك لتحبّه، وكلّ ما هنالك لتمقته.

«يظهر أنّ الوقت الوحيد الّذي كنت فيه سعيدة هو عندما كنت في

twitter @baghdad_library

دار السّينما، وفي كلّ مرّة يتاح لي وقت كنت أروح هناك. أروح في وقت مبكر، قبل بدء العرض، يطفئون الأنور، وكلّ شيء يصبح أسود، ثمّ تضيء الشّاشة، وتروح نفسي للأفلام. رجال بيض يهتمّون كلّ الاهتمام بنسوانهم، وكلّهم يلبسون أفضل ملابسهم في بيوت نظيفة، وأحواض حمّامات في حمّام واحد مع المرحاض. هذه الأفلام بسطتني كثيراً، لكنّها جعلت الرّجوع للبيت صعباً، والنّظر إلى تشولّلي صعباً. لا أعرف. أذكر مرّة أنّني ذهبت لمشاهدة كلارك جيبل وجين هارلو، وعقصت شعري عالياً مثلما رأيتها على مجلّة، المفرق على الجانب، وخصلة صغيرة تتدلّى على جبيني، كنت أشبهها تماماً، طيّب أشبهها تقريباً. على أيّ حال جلست أشاهد ذلك الفيلم وشعري على هذا الشّكل، وقضيت وقتاً طيّباً، وفكّرت في أنّني سأشاهده إلى النّهاية مرّة أخرى، ونهضت لأحضر لنفسي بعض الحلوى، ورجعت لمقعدي، وقضمت قضمة كبيرة من تلك الحلوى، فطلعت معها إحدى أسناني. وفرّت الدمّعة من عيني؛ فقد كانت لي أسنان جيّدة، ولا واحدة فاسدة، ولا أعتقد أنّني تغلّبت على ذلك الشّعور أبداً. كنت هناك حاملاً في شهري الخامس، أحاول أن أبدو مثل جين هارلو، وفقدت إحدى أسناني الأماميّة، ووقتها راح كلّ شيء. الظّاهر أنّني بعد ذلك لم أعد أهتمّ بشيء. تركت شعري يرجع للوراء، وضفرته في ضفائر، وسلّمت نفسي لكوني قبيحة الشّكل. مازلت أذهب لمشاهدة الأفلام، ولكن الحقارة زادت، أردت استعادة تلك السّن، وضحك عليّ تشولّلي، وبدأنا نتشاجر من جديد. حاولت أن أقتله، ويغلب على ظنّي أنّه لم يضربني بقسوة شديدة لأنّني كنت حاملاً، ولكن المشاجرات بمجرّد عودتها من جديد استمرّت. وبدأ يجعلني أجنّ جنوناً أكثر من أيّ شيء أعرفه، ولم أستطع رفع يدي

بعيداً عنه. طيّب. وضعت ذلك الولد، وبعد ذلك أصبحت حاملاً مرّة أخرى. ولكن الأمور لم تمشِ على نحو ما ظننت أنّها ستمشي، فقد أحببتهما وكلّ شيء وأظنّ أنّ الأمرَ مرجعه عدم وجود فلوس، أو ربّما كان تشولّلي، ولكنّني قلقت عليهما إلى حدّ الموت. وفي بعض الأحيان كنت أضبط نفسي وأنا أصرخ فيهما، وأضربهما، وأشعر بالأسف عليهما، ولكن الظّاهر أنّني لم يكن بمقدوري التوقّف. وأتذكّر أنّني عندما وضعت البنت قلت إنّني سأحبّها مهما كان شكلها، وظهر أنّها مثل كرة سوداء من الشّعر، ولا أذكر أنّني حاولت أن أصبح حاملاً في تلك المرّة الأولى، ولكنّني في تلك المرّة الثّانية حاولت ذلك بالفعل، وربّما لأنّني كان لديّ طفل بالفعل لم أخف من عمل ذلك. على أيّ حال كان إحساسي بأنّني في خير حال، ولم أكن أفكّر في الحمل، وإنّما في الجنين نفسه. وتعوّدت أن أكلّمه بينما هو مايزال في الرّحم، وكنّا كالصحاب. كنت أنشر الغسيل وعارفة أنّ رفع الأشياء الثّقيلة مضرّ بالجنين فأقول له: تمسّك الآن؛ فأنا سأنشر هذه الخرق، لا تكن شبيهاً بالضفدع، الأمر سينتهي سريعاً! ولم يكن يتقافز ولا حاجة، أو أكون مشغولة بخلط شيء في الطّبق للطفل الآخر، وأكلّمه عندئذٍ كذلك، مجرّد كلام صحاب، استمرّ ذلك حتّى شعرت بمشاعر طيّبة نحو الجنين، ذهبت إلى المستشفى عندما جاء وقت الولادة، لأتمكّن من الوضع بسهولة، ولم أرغب في الولادة في الدّار، كما فعلت مع الولد. وضعوني في غرفة كبيرة مع شلّة ملخبطة من النّسوان بحالها كانت الآلام تحلّ بي لكنّها لم تكن شديدة السّوء. جاء طبيب عجوز صغير الحجم لفحصي. وكانت لديه أنواع مختلفة من الأشياء. وضع يده في قفاز، ووضع نوع من الجيلي

twitter @baghdad_library

عليها، وزرعها بين ساقيّ، ولمّا مشى، جاء بعض الأطباء الآخرين. أحدهم كبير السنّ، وبعضهم شباب. كان العجوز يعلّم الشّباب بالنسبة للمواليد، ويريهم كيف يقومون بالتوليد. وعندما وصل لعندي، قال الآن هاهنا هؤلاء النّسوان ليست لديكم مشكلات في حالتهنّ، فهنّ يلدن بسرعة، وبلا ألم، تماماً كالأحصنة. ابتسم الشّبان قليلاً، وبصّوا على بطني وما بين ساقيّ، ولم يقولوا لي شيئاً بالمرّة، وإنّما بصّوا عليّ. أقصد بصّوا على وجهي. ورددت له البصّ، نكّس عينيه، وانقلب لونه إلى الأحمر، وأراهن أنّه كان يعلم أنّني ربّما لم أكن فرساً. ولكنّ الآخرين لم يكونوا على علم، تابعوا مشيهم. رأيتهم يكلّمون النّسوان البيضاوات: كيف حالك؟ هل ستلدين توأماً؟ مجرّد مداعبة، بالطبع، لكنّه كلام لطيف. كلام لطيف، ودّي. أصبحت متوتّرة، ولمّا زادت الآلام شعرت بالسعادة، سعادة أن يكون لديّ شيء آخر أفكّر فيه. صدر عنّي أنين فظيع. لم يكن الألم بهذه الفظاعة، ولكن كان من الضّروري أن أعلّم هؤلاء النّاس أنّ ولادة طفل ليست قرقرة بطن، فأنا أتألّم مثل النّسوان البيضاوات، ومجرّد أنّني لم أنطّ ولم أصرخ قبل ذلك لا يعني أنّني لم أكن أتألّم. ماذا كانوا يظنّون؟ أنّه لأنّني أعرف كيف ألد طفلاً بلا ضجّة فإنّ مؤخّرتي لا تؤلمني مثل مؤخّراتهنّ؟ وإلى جانب هذا فذلك الطّبيب لا يعرف عمّ يتكلّم. ولابدّ أنّه لم يرَ في حياته فرساً. من الّذي قال إنّ الأفراس لا تتألّم؟ لمجرّد أنّها لا تصرخ؟ لأنّها لا تقول إنّها تتألّم يظنّون أنّ الألم ليس موجوداً؟ لو أنّهم بصّوا في عينيها، وشافوا المقلتين تتراجعان للوراء وشافوا النّظرة الحزينة لعرفوا. على أيّ الأحوال، شرفت المولودة. شيء ضخم عفيّ. ظهرت كأنّها مختلفة عمّا فكّرت فيه.

وأراهن أنّني تكلّمت معها كثيراً قبل أن أرسم في ذهني صورة لها. وهكذا عندما شفتها بدا الأمر كالنظر إلى صورة لأمّك، عندما كانت طفلة. وأنت تعرف من هي، لكنَّها لا تبدو على الحال ذاته. أعطوها لي لأرضعها، وأحبّت شدّ حلمتي في الحال، أمسكت بيّ بسرعة، وليس مثل سامي، الّذي كان أصعب الأطفال في إرضاعه. ولكن بيكولا ظهرت وكأنّها تعرف ما ينبغي أن تفعله. كانت طفلة نبيهة تماماً، وتعوّدت أن أراقبها، والصّغار يحدثون أصواتاً توحي بالشراهة، تبدو عيونهم رقيقة ومبتلّة، كأنّهم في منتصف الطّريق بين جرو ورجل يموت. ولكنّني عرفت أنّها قبيحة، الشّعر مليء بشعر جميل، ولكن، يا إلّهي، كانت قبيحة.

عندما كان سامي وبيكولا مايزالان صغيرين، اضطرّت بولين للعودة إلى العمل، غدت أكبر سنّاً الآن، ولا وقت لديها للأحلام والأفلام، كان الوقت قد حان لجمع كلّ الجزئيّات معاً، وتحقيق التّماسك حيثما لم يكن له وجود من قبل. وقد منحها الطّفلان هذا الاحتياج إلى التّماسك، وهي نفسها لم تعد طفلة، وهكذا نضجت، وكانت عمليّة نضجها مثل عمليّات نضج معظمنا: أصبحت تكنُّ كراهية للأشياء الّتي تثير حيرتها أو تعوق مسيرتها، واكتسبت فضائل كان من اليسير الحفاظ عليها، أسندت لنفسها دوراً في نسق الأشياء وعادت إلى ما كانت عليه في أوقات الرّضا البسيطة.

تحمّلت المسؤوليّة الّتي تقع على كاهل من يقوم بأَوَدِ أسرة والاعتراف بتلك الوضعيّة كاملة، وعادت إلى رحاب الكنيسة. غير أنّها انتقلت أولاً من الغرفتين إلى طابق أوّل فسيح في مبنى شيّد كمتجر، واستعادت ثقتها بنفسها في مواجهة النّسوة اللّواتي كنّ

twitter @baghdad_library

يزدرينها، وذلك بأنْ تفوقهنّ في النّزعة الأخلاقيّة، وانتقمت لنفسها من تشولّلي بإجباره على الانغماس في ألوان الضّعف الّتي تحتقرها، واندرجت في كنيسة لا ترحّب بالصياح بصوت عالٍ، وعملت في لجنة المشرفات الثّالثة، وأصبحت عضوة في دائرة السيّدات الأولى. وفي اللّقاءات من أجل الصّلاة راحت تئنّ وتتنهّد أسفاً على سلوكيّات تشولّلي، ودعت الربّ أن يساعدها في إبعاد الطّفلين عن خطايا الأب. وكفّت عن قول «العيال» وقالت «الولاد» بدلاً منها، ولم تُثِر ضجّة كبيرة عندما سقطت سنّ أخرى من فمها، وأعربت عن حنقها إزاء السيّدات المتبرّجات اللّواتي لا يفكّرن إلاَّ في الثّياب والرّجال. وإذ جعلت من تشولّلي نموذجاً للخطيئة والفشل فقد احتملته على مضض كتاج من الأشواك وطفليها كصليب.

وكان من حسن حظّها أن عثرت على عمل دائم في دار عائلة ميسورة الحال، أعضاؤها كرماء ويقدّرون ما يؤدّى لهم وليّنو الطّبع، وقد رعت شؤون دورهم، وحرصت على نظافة ملابسهم وقامت على الاهتمام بحرير أغطية أسرّتهم، وأحبّت هذا كلّه. منامة الطّفلة الحمراء الورديّة، رزم أغطية الوسائد البيضاء المشغولة الأطراف بالزخارف، الملاءات الّتي زخرفت أطرافها العليا بزهور القنطريون الزّرقاء. أصبحت ما يعرف بالخادم المثاليّة، ذلك أنّ مثل هذا الدّور كان على الصّعيد العملي يلبّي كلّ احتياجاتها. عندما كانت تحمّم طفلة عائلة فيشر الصّغيرة كان ذلك يتمّ في حوض حمّام من الخزف، وصنابير فضّيّة تتدفّق منها كميّات لانهائيّة من الماء الصّافي السّاخن، وكانت تجفّفها بمناشف بيضاء مُزْغِبة، وتلفّها في ملابس نوم رقيقة، ثمّ كانت تقوم بتمشيط شعرها الأشقر، مستمتعة بتقلّبه وانزلاقه بين

أصابعها، لا حوض حمّام من الزّنك، لا دلاء من الماء المسخّن في الفرن، لا مناشف صلبة متقشّرة ضاربة إلى اللّون الرّمادي غسلت في حوض غسيل المطبخ، وجفّفت في فناء مترب، لا قبضات سوداء من صوف خشن يتعيّن تمشيطها. وسرعان ما كفّت عن محاولة العناية بدارها: فالأشياء الّتي كان بمقدورها أن تبتاعها لم تدم طويلاً، ولم تتميّز بالجمال ولا الذّوق وكانت الدّار القذرة الّتي استخدمت كمدخل متجر تمقتها، وتزايد إهمالها لدارها ولطفليها ولرجلها ـ كانوا كالخواطر الغائمة الّتي تراود المرء قبيل الرّقاد، أطراف النّهار الباكر والمساء المتأخّر البعيدة عن يومها، الأطراف المظلمة الّتي تجعل الحياة اليوميّة مع عائلة فيشر أكثر إشراقاً، وأشدّ رقّة وأبدع جمالاً، فهاهنا يمكنها أن ترتّب الأشياء، تنظّفها، تصفّها صفوفاً أنيقة، هنا غاصت قدمها في كومة عميقة من السّجاجيد، ولا وجود لصوت غير متوازن. هنا وجدت الجمال والنّظام والنّظافة والإشادة بها. قال السيّد فيشر: «إنّني أفضّل بيع فطائر العنبيّة الّتي تُعدّها على العمل في ميدان العقارات». كانت تهيمن على أدراج مليئة حتّى حافتها بالطعام الّذي لن تمسّ الحاجة لتناوله على امتداد أسابيع بل وشهور، كانت ملكة للخُضَر المعلّبة المشتراة بالصندوق، وحلوى الأقراص السكّريّة الملفوفة بالشريط والمصنوعة خصيصاً والمكوّمة في أطباق فضّيّة صغيرة. وكان الدّائنون ومقدّمو الخدمات الّذين يذلّونها عندما تذهب إليهم لقضاء مطالبها الخاصّة يحترمونها، بل ويرهبون جانبها، عندما تتحدّث باسم آل فيشر. وقد رفضت لحم البقر الّذي غدا لونه قاتماً بعض الشيء أو لم تكن أطرافه مقطوعة بالشكل الملائم. والسّمك الّذي تصدر عنه رائحة خفيفة غير مستحبّة والّذي كانت تقبله لعائلتها

twitter @baghdad_library

كانت تلقيه في وجه بائع الأسماك إذا بُعث به إلى دار عائلة فيشر. دانت لها مقاليد القوّة والمدح والرّفاه في هذه الدّار، بل إنّهم أعطوها ما لم تحصل عليه من قبل قطّ ـ اسم التدليل ـ بولّلي. كانت سعادتها أن تقف في مطبخها في نهاية اليوم وتلقي نظرة على عملها، وهي تعرف أنّ قطع الصّابون موجودة بالعشرات، وأنّ لحم فخذ الخنزير متوافر بالشرائح، وتبتهج لمرأى قدورها ومقاليها المتألّقة وأرضيّاتها الباهرة، وتسمع: «لن ندعها تذهب أبداً، فلن نجد أحداً مثل بولّلي، إنّها لا تغادر المطبخ إلاّ بعد ترتيب كلّ شيء، إنّها حقّاً الخادم المثاليّة».

احتفظت بولين بهذا النّظام، هذا الجمال لنفسها، عالماً خاصّاً ولم تقدّمه لدارها المتَّخَذة في مقدّمة متجر، ولا لطفليها. جعلتهما ينحنيان تجاه الجدارة بالاحترام، وفي غمرة القيام بذلك علّمتهما الخوف، الخوف من الارتباك، الخوف من أن يصبحا مثل أبيهما، الخوف من أن لا يحبّهما الربّ، الخوف من الجنون كما حدث لأمّ تشولّلي، وقد غرست في نفس ابنها رغبة عالية في الفرار، وغرست في نفس ابنتها خوفاً من النّضج، خوفاً من الآخرين، خوفاً من الحياة.

كان مغزى حياتها بأسره يتجسّد في العمل، ولم يَشُب نقاء فضائلها شيء، وكانت من الناشطات في العمل في إطار الكنيسة، ولم تمسّ الشّراب ولم تدخّن، ولم تشارك في الصّخب، ودافعت عن نفسها بقوّة ضدّ تشولّلي، وتفوّقت عليه بكلّ السّبل، وشعرت بأنّها تقوم بدور الأمّ بما يتّفق وأحكام الضّمير عندما كانت تبرز أخطاء والد الطفلين لتبعدهما عن الوقوع فيها، أو تعاقبهما عندما يظهران

أيّ استهتار مهما كان بسيطاً، بينما هي تعمل بين اثنتي عشرة ساعة وستّ عشرة ساعة يوميّاً لإعالتهما، وأقرّتها الدّنيا بأسرها على ما قالته.

في بعض الأحيان، في بعضها فقط، وعلى نحوٍ نادر، كانت تفكّر في الأيّام الخوالي، أو ما تحوّلت حياتها إليه، كانت تلك تأمّلات، أو خواطر تراودها على مهل، تحفل في بعض الأحيان بالأحلام القديمة، ولكنّها ليست من النّوع الّذي تهتمّ بالتركيز عليه كثيراً.

«بدأت أتركه في مرّة من المرّات، ولكنّ شيئاً جرى. في تلك المرّة، بعد أن حرق البيت، طلع في دماغي أن أهجره، ولست أذكر الآن ما الّذي حاشني، لم تكن حياة عدلة حياتي معه، لكنَّها لم تكن سيِّئة كلّها. وفي بعض الأحيان لم تكن الأشياء كلّها سيّئة. وكان من عادته أن يأتي إلى السّرير على مهل، في بعض الأحيان، دون أن يكون سكران كالطينة، وكنت أتظاهر بأنّني نائمة؛ لأنّ الوقت متأخّر، أو لأنّه أخذ ثلاثة دولارات من حافظة نقودي أو شيء من هذا النّوع، أسمعه يتنفّس، ولكنَّني لا ألتفت إليه، يمكنني أن أرى بعيني بالي ذراعيه السّوداوين وقد عقدهما وراء رأسه، وعضلاته مثل أحجار ضخمة وكبيرة في لون الخوخ المترب، والعروق تمتدّ مثل أنهار صغيرة مليئة بالماء في ذراعيه. ودون أن ألمسه أحسّ بهذين التّلّين عند أطراف أصابعي. أرى بطنيْ يديه خشنتين كالجرانيت، والأصابع الطّويلة مجعّدة وساكنة. أفكّر في الشّعر الكثيف المفلفل على صدره والكتلتين الضّخمتين اللّتين تبرزهما عضلات صدره. أريد أن أحكّ وجهي بقوّة في صدره، وأحسَّ بالشعر يخدش جلدي. وأعرف بالضبط أين يقلّ الشّعر ـ أعلى سُرّته مباشرة ـ وكيف يزيد من جديد

twitter @baghdad_library

وينتشر. ربّما سيتحرّك قليلاً، وتلمسني ساقه، أو أحسّ بجنبه يملس ظهري لمساً، ولا أتحرّك حتّى عندها، ثمّ يرفع رأسه، ويتقلّب، ويضع يده على خصري. إذا لم أتحرّك، فإنّه يتحرّك، ليجذب بطني، ويعقد يده عليها، ببطء ورقّة. وأمتنع عن الحركة، لأنّني لا أريده أن يتوقّف. أريد أن أتظاهر بأنّني في عاشر نومة، وأجعله يستمرّ في دعك بطني، ثمّ يحني رأسه، ويعضّ حلمتي، وعندئذٍ لا أريده أن يدعك بطني بعد ذلك، وإنّما أريده أن يضع يده بين ساقيّ، أتظاهر بالصحيان، وألتفت إليه، ولكن دون أفتح ساقيّ، فأنا أريده أن يفتحهما لي، ويقوم بذلك وأجد نفسي ليّنة ومبتلّة حيث تمتدّ أصابعه قويّه وقاسية، أكثر ليناً من أيّ مرّة سابقة. كلّ قوتي في يده، يتجعّد ذهني مثل أوراق الشّجر الذّابلة. إحساس غريب وأجوف في يديّ، أريد أن أكلبش في شيء، ولذا أكلبش في رأسه. فمه تحت ذقني، وعندئذٍ لا أريد يده بين ساقيّ أكثر من ذلك، لأنّني أظنّ أنّني أذوب. أفتح ساقيّ على آخرهما، فيعلوني، أكثر ثقلاً من أن أحتمله، وأكثر خفّة من ألاّ أحتمله، يضع شيئه فيّ. فيّ. فيّ. ألفّ قدميّ حول ظهره، حتّى لا يكون بإمكانه الابتعاد. وجهه أمام وجهي. صوت زمبرك السّرير يشبه صوت الصرّار في مسقط رأسي. يضع أصابعه في أصابعي، ونمدّ أذرعتنا للخارج، كيسوع على الصّليب، أتمسّك به بشدّة، تتمسّك أصابعي وساقاي به بشدّة؛ لأنّ كلّ شيء آخر يذوب، يذوب. أعرف أنّه يريد أن أفرغ من شهوتي أوّلاً، ولكنّني لا أستطيع ذلك، لا أستطيع إلاّ بعد أن ينتهي هو أوّلاً، إلاّ بعد أن أحسّ به وهو يحبّني، أنا وحدي، يغوص فيّ، إلاّ بعد أن أعرف أنّ لحمي هو كلّ ما في دماغه، أنّه لا يستطيع أن يتوقّف إذا اضطرّ لذلك كأنّه يموت ولا

يخرج شيئه منّي، منّي. إلاَّ بعد أن ينتهي من كلّ ما لديه، وأن يعطيه لي، لي، لي. وعندما يفعل ذلك أحسّ بقوّة، أشعر بأنّني قويّة، أنّني جميلة، أنّني شابّة، ثمّ أنتظر. يرتعش، ويلقي برأسه بعيداً. الآن أنا قويّة بما يكفي، جميلة بما يكفي، شابّة بما يكفي لتركه يصل بي إلى نهاية شهوتي. أسحب أصابعي من أصابعه. وأضع يديّ على ظهره. تقع ساقاي على السّرير. لا يصدر عنّي صوت لأنّ الولاد قد يسمعون. أبدأ بالشعور بتلك البقع اللّونيّة الصّغيرة وهي تطفو فيَّ، عميقة فيَّ. خطّ الخضرة الّذي يتركه ضوء حشرة حزيران (يونيو)، الأرجوان الباقي من التّوت البرّي النّازل على فخذيّ، عصير ماما الأصفر وهو يجري حلواً فيّ، ثمّ أحسّ كأنّني أضحك فيما بين ساقيّ، ويختلط الضّحك كلّه مع الألوان، وأخاف من أن شهوتي ستنتهي، وأخاف من أنّها لن تنتهي. ولكنَّني أعرف أنّني سأنتهي منها، وأنتهي منها. ويطلّ قوس قزح في كلّ دواخلي، ويدوم، ويدوم، ويدوم. أريد أن أشكره، ولكنَّني لا أعرف كيف أفعل ذلك، وهكذا أطبطب عليه كما تفعل لطفل وليد، يسألني عمّا إذا كنت تمام، فأقول نعم، فينهض عنّي ويرقد ليسيطر عليه النّعاس. أريد أن أقول شيئاً، ولكنّني لا أفتح فمي، فأنا لا أريد إبعاد ذهني عن قوس قزح. لابدّ أن أقوم وأروح الحمّام، ولكنَّني لا أفعل ذلك، وفضلاً عن ذلك فإنّ تشولّلي نائم، ساقه مرميّة فوقي، ولا أستطيع أن أتحرّك، ولا أريد ذلك.

ولكنّ الأمر لم يعد كذلك، فهو في معظم الأوقات يخبط بداخلي قبل أن أفيق، ويفرغ من شهوته عندما أفيق. وباقي الوقت لا أستطيع مجرّد الرّقاد بجانب نفسه المسطولة الوسخة، ولكنَّني لم أعد أهتمّ

twitter @baghdad_library

بذلك، فخالقي سيرعاني، وأنا أعرف أنّه سيرعاني. وفضلاً عن ذلك فأنا لست مهتمّة بهذه الأرض، سيكون هناك مجد بلا شكّ، والشيء الوحيد الّذي أفتقده في بعض الأحيان هو قوس قزح إيّاه، ولكن كما أقول فإنّني لم أعد أتذكّره كثيراً.

أنظرو إليالأبانهضخموقويهلسبا
لابمعينإيهبتسميبتسميـ

عندما بلغ عمر تشولّلي أربعة أيّام، لفّته أمّه في بطانيّتين وجريدة، ووضعته على كومة من النّفاية قرب السّكك الحديديّة. أنقذته جيمي، خالة أمّه، الّتي رأت ابنة أختها تحمل حزمة وتنسلّ خارجة من الباب الخلفي، ولطمت أمّه بمشحذ موسى، ولم تسمح لها بعد ذلك بالاقتراب منه، وربّته بنفسها، ولكنّها كانت تبتهج في بعض الأحيان بإبلاغه بالكيفيّة الّتي أنقذته بها. وقد فهم منها أنّ أمّه لم يكن ذهنها على ما يرام، ولكنّه لم يُتَح له أن يكتشف جليّة الأمر قطّ؛ لأنّ أمّه هربت بعد وقت قصير من ضربها بمحشذ الموسى، ولم يعثر أحد لها على أثر بعد ذلك.

شعر تشولّلي بالامتنان لإنقاذه، ما عدا في بعض الأحيان. بعض الأحيان، عندما كان يرقب الخالة جيمي وهي تأكل الملفوف بأصابعها، أو تلحس بطرف لسانها أسنانها الذّهبية الأربع، أو يشمّ رائحتها عندما تضع حافظة الحِلْتِيت[1] حول رقبتها، أو عندما تجعله

(١) الحِلْتِيت: صمغ راتنجي دبِق يستخرج من جذور بعض النّباتات وكان يستخدم كعلاج لحالات التشنّج (هـ.م.).

يرقد معها جلباً للدفء في الشّتاء، ويمكنه أن يرى ثدييها العجوزين المجعّدين وهما متدلّيان في منامتها ـ وعندئذٍ يتساءل عمّا إذا لم يكن من الخير له أن يلقى حتفه هناك، في حافة إطار تحت سماء جورجيا القاتمة، الليّنة.

كان قد تلقّى التّعليم في المدرسة أربعة أعوام قبل أن يستجمع من أطراف الشّجاعة ما يكفي ليسأل خالته عن هويّة أبيه.

قالت خالته:

ـ أعتقد أنّه كان ذلك الفتى فولر، فقد كان يتسكّع على مقربة، في ذلك الحين، ولكنّه سرعان ما لاذ بالفرار قبيل ميلادك. أظنّ أنّه ذهب إلى ميكون، هو أو أخوه، وربّما كلاهما، فقد سمعت أبوهما العجوز فوللر يقول شيئاً في هذا الصّدد ذات مرّة.

تساءل تشولّلي:

ـ ماذا كان اسمه؟

ـ فولر، أيّها الأحمق!

ـ أقصد ماذا كان اسمه الأوّل؟

أغمضت عينيها، لتقدح زناد فكرها، وتنهّدت:

ـ أوه، لم أعد أستطيع تذكّر شيء. سام. أكان هذا اسمه؟ نعم، صمويل. لا لا لم يكن كذلك. كان سامسون. سامسون فولر.

تناهى صوت تشولّلي خفيضاً، وهو يقول:

ـ كيف حدث أنّكم جميعاً لم تنادوني بسامسون؟

ـ ولِمَ؟ لم يكن موجوداً عندما ولدت. وأمّك لم تختر لك اسماً. ولم تكن تسعة أيام قد مضت عندما رمتك على كومة النّفايات.

twitter @baghdad_library

وعندما أصبحتَ في رعايتي أطلقت عليك اسماً في اليوم التّاسع. أسميتك باسم المرحوم أخي تشارلز بريدلوف. رجل طيّب. ولم يصل أيّ سامسون إلى نهاية طيّبة.

لم يطرح تشولّلي أيّ سؤال آخر.

بعد عامين ترك المدرسة ليلتحق بعمل في متجر تايسونز فيد أندجرين. كان يكنس الأرض ويقضي المهامّ، ويزن الأكياس ويرفعها إلى عربات الأثقال المنخفضة. وفي بعض الأحيان كانوا يتركونه ينطلق بإحدى هذه العربات مع سائقها، وهو عجوز لطيف يُدعى بلو جاك. وقد اعتاد بلو أن يحكي له قصصاً عن الأيّام الخوالي حول ما كان الحال عليه لدى صدور إعلان تحرير العبيد، كيف أنّ السّود صرخوا فرحة وبكوا ابتهاجاً وغنّوا، وقصص أشباح عن الكيفيّة الّتي قطع بها رجل أبيض رأس زوجته ودفنها في مستنقع، وخرجت الجثّة المجرّدة من الرّأس في اللّيل، ومضت متعثّرة في أرجاء الفِناء، متخبّطة في الأشياء؛ لأنّها لم يكن بمقدورها أن ترى، وكانت تصرخ طوال الوقت طالبة رأساً. وتحدّثا عن النّسوة اللاّتي نالهن بلو، والمشاجرات الّتي خاض غمارها عندما كان أصغر سنّاً، وكيف أنّه شقّ طريقه بمعسول القول خروجاً من موقف تعرّض فيه لاحتمال الشّنق الاعتباطي ذات يوم، وكيف أنّ آخرين لم يُوفَّقوا في ذلك.

أحبّ تشولّلي بلو، بعد وقت طويل من بلوغه مبلغ الرّجال، راح يتذكّر الأوقات الطيّبة الّتي أمضياها معاً، وكيف أنّه في الرّابع من تمّوز (يوليو)، وخلال نزهة خلويّة ضمن أنشطة الكنيسة أوشكت عائلةٌ على أن تكسر بطيخة. تجمّع العديد من الأطفال يرقبون المشهد، وراح بلو يتسكّع عند حافة هذه الدّائرة، وقد لانت ملامحه

بفعل ابتسامة توقُّع خفيفة. رفع الأب في هذه العائلة البطيخة عالياً فوق رأسه، ولاحت ذراعاه الكبيرتان لتشولّلي أطول من الأشجار، وحجبت البطيخة الشّمس عن ناظريه. وإذ بدا طويلاً، ودفع برأسه إلى الأمام، واستقرّت عيناه على صخرة، ولاحت ذراعاه أطول من أشجار الصنوبر، ويداه تمسكان ببطيخة أكبر من الشّمس، فقد توقّف لحظة لاستجماع شتاته والتأكّد من التصويب إلى هدفه. ومضى تشولّلي يرقب الشّكل المنحوت في مواجهة السّماء الزّرقاء الباهرة، فأحسّ بقشعريرة تزحف على ذراعيه وعنقه. تساءل عمّا إذا كان الربّ يبدو على ذلك النّحو. لا، فالربّ رجل أبيض، عجوز، لطيف، له شعر أبيض مسترسل، ولحية بيضاء ممتدّة، وعينان زرقاوان صغيرتان تبدوان حزينتين عندما يموت النّاس وقاسيتين عندما يكونون سيّئين. لابدّ أنّ الشّيطان هو الّذي يبدو على ذلك النّحو، ممسكاً بالعالم بيديه، على أهبة الاستعداد لإلقائه على الأرض ونثر اللبّ الأحمر حتّى يستطيع الزّنوج التهام الدّواخل الحلوة الدّافئة. وإذا كان الشّيطان يبدو على ذلك النّحو، فإنّ تشولّلي يؤثره، فهو لم يحسّ بشيء قطّ في غمرة تفكيره في الربّ، ولكن مجرّد فكرة الشّيطان تثير انفعاله، والآن ها هو الشّيطان القوي الأسود يحجب الشّمس، ويتأهّب لكسر العالم.

في البعيد كان أحدهم يعزف على أرغن نقّال، وزحفت الموسيقى منسلّة عبر حقول قصب السكّر إلى أجمة الصنوبر ودارت حول جذوع الشّجر، ومزجت نفسها بعبق الصنوبر، ولذا لم يستطع تشولّلي أن يحدّد الفارق بين الصوت والعبق الّذي حلّق حول رؤوس النّاس.

twitter @baghdad_library

ألقى الرّجل بالبطيخة مطوّحاً بها إلى الصخرة، صاحبت صيحة خيبة أمل خفيضة صوت انكسار القشرة؛ فقد كان الكسر سيّئاً، وثلمت البطيخة، وتناثرت على العشب قطع من القشرة واللبّ الأحمر.

وثب بلو، وأصدر أنيناً، وهو يقول:

ـ أوه ه ه، ها هو ذا القلب!

كان صوته حزيناً وفرحاً معاً، وتطلّع الجميع ليرى القطعة الحمراء الكبيرة من قلب البطيخة ذاته وقد خلت من القشر وبدت البذور فيها قليلة وتدحرجت واستقرّت على مسافة صغيرة من قدميْ بلو. انحنى ليلتقطها، بدت حمراء كالدّم وسطوحها غير واضحة المعالم وبعيدة عن الحدّة بفعل الحلاوة، وحوافها متصلّبة لفرط امتلائها بالعصير، شديدة الوضوح، حتّى لتوشك أن تصل إلى حدّ البذاءة في النّشوة الّتي تَعِدُ بها آكلها.

ضحك الأب:

ـ امضِ قدماً، يا بلو، يمكنك أن تأخذه!

ابتسم بلو، ومضى بها بعيداً. تكأكأ الأطفال الصّغار للحصول على القطع الموجودة على الأرض. والتقطت النّسوة البذور للأطفال الأصغر سنّاً، وقطعن قطعاً صغيرة من لبّ البطيخة لأنفسهنّ. التقت عينا بلو بعينيْ تشولّلي، أشار له:

ـ هيّا، يا فتى، دعنا، أنا وأنت، نأكل القلب!

جلس العجوز والفتى معاً على العشب وتقاسما قلب البطيخة، ثمرة الأرض الحامضة ـ الحلوة.

في فصل الرّبيع، ربيع شديد البرودة ماتت الخالة جيمي متأثّرة بالتهام فطيرة خوخ، مضت إلى لقاء في مخيّم عقد بعد عاصفة مطيرة، ولم يكن خشب المقاعد الرّطب مناسباً لحالتها، وبعد ذلك، وعلى امتداد أربعة أو خمسة أيّام شعرت بأنّها ليست على ما يرام. أقبلت صديقات للاطمئنان عليها. أعدّ بعضهنَّ الشّاي بالبانونج، ودلّكتها أخريات بالمرهم، قرأت لها الآنسة أليس، أقرب صديقاتها، الإنجيل. ورغم ذلك واصلت صحّتها الانحطاط. تعدّدت النّصائح وإن كانت متناقضة:

ـ لا تأكلي بياض البيض!

ـ اشربي حليباً طازجاً!

ـ امضغي هذا الجذر!

تجاهلت الخالة جيمي كلّ شيء عدا قراءة أليس لها في الإنجيل، أومأت في تقدير غائم فيما الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثه تتردّد كلماتها فوقها، وسقطت كلمات «آمين» عذبة من شفتيها فيما هي توبّخ على كلّ خطاياها، لكن جسمها لم يستجب.

تقرّر، في نهاية المطاف استدعاء مْدِير، وقد كانت مْدِير امرأة هادئة تسكن كوخاً قرب الغابات، وكانت قابلة مشهوداً لها، وحكيمة حاسمة في تحديدها لتشخيص الأمراض، وقلائل هم الّذي يتذكّرون وقتاً لم تكن مْدِير قريبة فيه ممّن يستدعونها. وفي كلّ مرض لم يكن من الممكن علاجه بالوسائل العاديّة ـ العلاجات المعروفة، أو الحدس، أو التحمّل ـ فإنّ الكلمة الّتي كانت تُردَّد على الدّوام هي: استدعوا مْدِير!

عندما وصلت إلى دار الخالة جيمي، دهش تشولّلي لمرآها، فقد

twitter @baghdad_library

كان يتصوّرها على الدّوم مشعّثة وحدباء، إذ كان يعلم أنّها كبيرة السنّ للغاية، ولكن مْدِير بدت أكثر طولاً من الواعظ الّذي يصحبها، ولابدّ أنّها كانت أطول من ستّ أقدام. أضفت أربع عقد بيضاء ضخمة من الشّعر الجلال والهيمنة على محيّاها الأسود اللّدن. وقفت منتصبة كوتد، وبدا أنّها تحتاج عصاها المتّخذة من خشب القارية لا للاستناد عليها، وإنّما لتحقيق التّواصل من خلالها، طرقت بها الأرض بخفّة وهي تطلّ على وجه الخالة جيمي المجعّد، ضربت المقبض بإبهام يدها اليمنى، بينما مرّرت إبهام يدها اليسرى على جسم الخالة جيمي. وضعت ظهور أصابعها الطّويلة على وجنة المريضة، ثمّ وضعت راحتها على الجبين ومرّرت أصابعها في شعر المريضة، وهي تهرس جلد رأسها بخفّة، ثمّ نظرت إلى ما كشفت عنه الأظافر. رفعت يد الخالة جيمي ونظرت إليها عن كثب ـ الأظافر، جلد الظّهر، لحم الرّاحة الّذي ضغطت عليه بأطراف ثلاثة أصابع. وعقب ذلك وضعت أذنها على صدر الخالة جيمي ومعدتها لتصيخ السّمع. وبناء على طلب مْدِير، سحبت النّسوة المِبْولة من تحت الفراش لإظهار الغائط. مضت مْدِير تطرق الأرض بعصاها بينما هي تتطلّع إلى الغائط.

ـ عليكنّ بدفن المِبْولة وكلّ ما فيها!

قالتها للنسوة، وقالت للخالة جيمي:

ـ لقد أصبت بالبرد في رحمك. تناولي الحساء، ولا شيء سواه!

تساءلت الخالة جيمي:

ـ هل سينحسر؟ هل سأصبح على ما يرام؟

ـ أظنّ ذلك.

استدارت مْدِير، وغادرت الغرفة. ساعدها الواعظ على الصّعود إلى عربتها؛ لتمضي بها إلى دارها.

في ذلك المساء جلبت النّسوة أطباقاً عميقة من الحساء المُعَدّ من اللّوبيا ذات العين السّوداء، من أنواع الخردل، من الملفوف، من اللّفت، من الكرنب، من الجذور من البازلاء وحتّى من لحم خدّ الخنزير.

بعد مسائين استعادت الخالة جيمي الكثير من القوّة، وعندما توقّفت الآنسة أليس والسيّدة جينز لتفقُّد حالها، تبادلتا الملاحظات عن تحسُّن حالتها. جلست النّسوة الثّلاث يتحدّثن عن ضروب الأمراض المختلفة الّتي تعرّضن لها، وعلاجها وتراجعها، وما الّذي ساعد في التغلّب عليها، وعدن إلى حالة الخالة جيمي مراراً وتكراراً، ورحن يكرّرن سببها، وما الّذي كان يمكن عمله للحيلولة دون ظهور المرض، واستحالة خطأ مْدِير في التّشخيص. اختلطت أصواتهنّ متحوّلة إلى بكائيّة حنين فيما يتعلّق بالمرض، ارتفعت الأصوات وانخفضت متحوِّلة إلى مركّب معقّد في تناسقه وغير واضح في حدّته وإن كان مستمرّاً في التردّد بشأن الألم. احتضنّ ذكريات المرض، رحن يلعقن الشّفاه ويطرقعن الألسن إعزازاً لتذكّر الآلام الّتي تحمّلنها ـ الولادة، الرّوماتيزم، الخناق، التواءات المفاصل، آلام الظّهر، البواسير. كلّ النّدوب الّتي حملنها من تحرّكهنّ على وجه الأرض ـ الحصاد، التّنظيف، رفع الأشياء، قذفها، الانحناء، الجُثُوّ على الرّكبة، التقاط الأشياء، مع وجود ندوب صغيرة دائماً في باطن القدم.

ولكنَّهنَّ كنَّ في مقتبل العمر يوماً، وقد تمازجت رائحة آباطهنَّ

twitter @baghdad_library

وأوراكهنَّ في عبق جميل، وكانت عيونهنَّ ذات نظرات مختلسة، وشفاههنّ مرتخية، ولم يكن هناك نظير للالتفات الرّقيق لرؤوسهنَّ على تلك الأعناق السّوداء النّاحلة إلاَّ التفاتة ريم، وكان ضحكهنَّ لمسة أكثر منه صوتاً.

ثمّ كبرن، وولجن الحياة من الباب الخلفي، وعَرَكْنَ الحياة، كان كلّ من في الدّنيا في وضع يتيح له أن يُصدر إليهنّ الأوامر. النّسوة البيضاوات كنّ يقلن: «قومي بهذا!» والأطفال البيض قالوا: «أعطيني ذاك!» والرّجال البيض كانوا يقولون: «تعالي إلى هنا!» والرّجال السّود قالوا «ارقدي!» وكان الوحيدون الّذين لا يتعيّن عليهنَّ تلقّي الأوامر منهم هم الأطفال السّود وإحداهنَّ من الأخرى. ولكنّهنّ أخذن ذلك كلّه، وأعدن خلقه على شاكلتهنّ، فقد كنّ يُدرن بيوت البيض، وهنَّ يعرفن ذلك، وعندما يضرب الرّجال البيض رجالهنّ، كنّ ينظّفنَ الدّم، ويمضينَ إلى البيوت لتلقّي الإساءات من الضحيّة. كنّ يضربن أطفالهنَّ بيد، ويسرقن من أجلهم باليد الأخرى. والأيدي الّتي كانت تجتثّ الأشجار كانت هي نفسها الّتي تقطع الحبال السُّرّية، والأيدي الّتي تذبح الدّجاج والخنازير، هي الّتي تدفع زهور الأقحوان الإفريقيّة إلى التفتّح، والأذرع الّتي تحمل الحزم والبالات والغرائر هي نفسها الّتي تهدهد الصّغار حتّى النّوم، كنّ يجعلن من البسكويت رقائق بيضاويّة من البراءة وينشرن الأردية على الموتى، يقمن بالحرث طوال اليوم ويعدن إلى الدّار ليجثمن كحبّات البرقوق تحت أطراف رجالهنّ. والسّيقان الّتي تعتلي ظهر البغل هي نفسها الّتي تعتلي أوراك رجالهنّ، وكان الفارق هو كلّ الفارق الّذي يمكن تصوّر وجوده.

ثـمّ أوغلـن فـي العمـر، وركبـت الأوجـاع أجسـادهـنّ، وغـدت رائحهتنّ مقيتة، ومن خلال الإقعاء في حقل قصب السّكر والانحناء فـي حقـل القطـن والجثـوّ علـى ضفّـة النّهـر فقـد حملـن الـدّنيـا علـى رؤوسهـنّ، تخلّيـن عـن حيـاة أطفـالهـنّ، وعـرضـن أحفـادهـنّ للبيـع، وبـارتيـاح عصبـن رؤوسهـنّ بـالخـرق وأثـداءهـنّ بقمـاش الفـلانيلـة، ودسسن أقدامهنّ في اللّباد، نَفَضْنَ أيديهن من الشّهوة ومن درّ الأثداء للَّبَن، وتجاوزن الدّموع والرّعب. كان بمقدورهنَّ وحدهنَّ السّير في طـرقـات مسيسيبـي، وحـواري جـورجيـا، وحقـول ألابـامـا دون أن يتحرّش أحد بهنّ. كنّ من التقدّم في السنّ بحيث يمكنهنّ أن يصبحن سريعات الغضب متى أردن وحيثما أردن، ومن الإعياء بحيث يتُقْن إلـى المـوت، ومـن الافتقـار إلـى الاهتمـام بحيـث يقبلـن فكـرة الألـم، بينما يتجاهلن وجود الألم. كنّ، أخيراً، وفي حقيقة الأمر، قد نلن حرّيتهنّ، وبدت حياة أولئك النّسوة العجائز السّود مركباً يتخايل في عيـونهـنّ، كيـانـاً مصفّـى مـن المـأسـاة والمـرح، الخبـث والإخـلاص، الحقيقة والخيال.

رحن يثرثرن إلى أن أوغل اللّيل في مساره. وأصغى تشولّلي إلى أن استبدّ به النّعاس، ولفّته هدهدة الحزن، وأرجحته، وأصابته أخيراً بالخدر. وفي منامه تحوّلت الرّائحة الكريهة الصّادرة عن غائط امرأة عجـوز إلـى الـرّائحـة الصّحّيّـة الصّـادرة عـن روث حصـان، وخفتـت أصوات النّسوة الثّلاث متحوِّلة إلى الأنغام العذبة الصّادرة عن أرغن نقّـال، أحـسّ فـي منـامـه بـأنّـه ملتـفّ حـول نفسـه فـي مقعـد ويـداه مدسوستان بين فخذيه، وفي أحد الأحلام تغيّر عضوه متحوِّلاً إلى عصا طويلة من خشب القارية، وكانت اليدان اللّتان تلاطفانه هما يدا مُدِير.

twitter @baghdad_library

في ليلة سبت مطيرة، أحسّت الخالة جيمي بأنّها من القوّة بحيث يمكنها النّهوض من الفراش، وجلبت لها إيساي فوستر فطيرة خوخ، تناولت السيّدة العجوز قطعة منها، وفي صباح اليوم التّالي، عندما ذهب تشولّلي ليفرغ المِبْولة من محتوياتها، ألفاها ميتة. كان فمها مرتخياً، أوه، ويداها، هذه الأصابع الطّويلة، ذات الأظافر الرّجوليّة، وبعد أن تخلّت عن كلّ شيء، يمكنها الآن أن تكون متألّقة على الملاءة. نظرت إليه عين مفتوحة، كأنّها تقول: «احرص على كيفيّة إمساكك تلك المِبْولة، يا ولد!» وردّ تشولّلي لها النّظرة، عاجزاً عن التحرّك، إلى أن حطّت ذبابة على جانب فمها، فأبعدها غاضباً، وكرَّر النّظر إلى العين، واستجاب لما أمرته به.

كانت جنازة الخالة جيمي هي الجنازة الأولى الّتي يشيّعها تشولّلي، وكأحد أفراد العائلة، كواحد ممّن يحدّون على الرّاحلة، كان موضعاً لاهتمام كبير، كانت السيّدات قد نظّفن الدّار، وتركن الهواء الطّلق يعمّ كلّ شيء، وأخطرن الجميع بالنبأ، ثمّ قمن بخياطة ما بدا أنّه ثوب زفاف أبيض للخالة جيمي الّتي ماتت وهي عانس، لترتديه عندما تلتقي يسوع، بل إنّهن جلبن حلّة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق لتشولّلي، وقصّ له زوج إحداهنّ شعره، غمرته رقّة بالغة، لم يحادثه أحد، ولكنّهم عاملوه باعتباره الطّفل الّذي كانه، دون أن ينغمس أحد معه في حوار جِدّي، ولكنّهم بادروا بتلبية أمنيات لم تساوره قطّ: فقد ظهرت وجبات، وماء ساخن لحوض الاستحمام الخشبيّ، ووضعت أمامه الملابس. وفي ليلة السّهر إلى جوار الجثمان سمح له بأن يغفو، وحملته الأيدي إلى الفراش. وفي اليوم الثّالث للوفاة فقط ـ يوم تشييع الجنازة ـ اضطرّ إلى المشاركة في

بؤرة الضّوء. قدم أهل الخالة جيمي من بلدات ومزارع قريبة. أخوها و.ف. وأطفاله وزوجته، والكثير من أبناء العمومة. ولكنّ تشولّلي كان مايزال الشخصيّة البارزة لأنّه كان «وَلَد جيمي، آخر شيء أحبّته» و«من عثر عليها ميتة». أدخلت العناية المفرطة من جانب النّساء، والتّربيتات على الرّأس من جانب الرّجال السّرور على نفس تشولّلي، وفتنته الحوارات المفعمة بزبدة القول:

ـ ممَّ ماتت؟

ـ فطيرة إيساي

ـ أحقّاً تقولين؟

ـ أهه، كانت على ما يرام، رأيتها في اليوم السّابق لوفاتها بالذات. قالت إنّها تريد منّي أن أحضر لها بعضاً من الخيط الأسود لترتق بعض الأشياء للولد، وكان ينبغي أن أعرف من رغبتها في الخيط الأسود أنّ تلك علامة تشير لما هو آتٍ.

ـ من المؤكّد أنّها كانت كذلك.

ـ تماماً مثل إيمّا. هل تذكرين؟ ظلّت تلحّ في طلب خيط. وسقطت ميتة في ذلك المساء عينه.

ـ نعم، طيّب، كانت مصمّمة على الحصول عليه، وواصلت تذكيري به، فأبلغتها بأنّ لديّ بعضاً منه في الدّار، ولكن لا، قالت إنّها تريده جديداً؛ ولذا أرسلت ليل جون لإحضار شيء منه في ذلك الصّباح الّذي وجدت فيه ميتة. كنت أستعدّ لإحضاره لها مع قطعة من الخبز المسكَّر، وكما تعرفين فإنّها كانت تحبّ خبزي المسكّر أشدّ الحبّ.

twitter @baghdad_library

ـ أعرف هذا يقيناً. وكانت تتباهى به دائماً. كانت صديقة طيّبة لك.

ـ أعتقد ذلك. طيّب. لم أكد أرتدي ملابسي حتّى اندفعت سالي منَ الباب صارخة بأنّ تشولّلي ذهب إلى الآنسة أليس قائلاً إنّها ماتت. وأقول لك الحقّ أنّني ذهلت.

ـ أظنّ أنّ إيساي تشعر بالذنب بشدّة.

ـ أوه، يا إلّهي، نعم. ولكنّني قلت إنّ الربّ يعطي، والرّب يأخذ، وأنّ الخطأ لم يكن خطأها على الإطلاق، فهي تصنع فطائر خوخ طيّبة، ولكنّها مصمّمة على الاعتقاد بأنّ الأمر راجع إلى الفطيرة، وأحسب أنّها على حقّ.

ـ طيّب، لا ينبغي لها أن تقلق كثيراً بشأن هذا الموضوع. فهي كانت تفعل ما كان يمكن أن نفعله جميعاً.

ـ نعم، لأنّني كنت أغلّف ذلك الخبز المسكَّر، وذلك كان يمكن أن يحدث النّتيجة نفسها.

ـ أشكّ في ذلك؛ فالخبز المسكَّر نقيّ، ولكن الفطيرة هي أسوأ ما يمكن إعطاؤه لمريض، وأنا مندهشة من أنّ جيمي لم تعرف حقيقة الأمر.

ـ لو أنّها كانت تعرف حقيقة الأمر لما أعلنته، وإنّما كانت ستحاول إرضاء الآخرين، وأنت تعرفين طبيعتها. كانت طيّبة جدّاً.

ـ هل تركت وراءها ميراثاً؟

ـ ولا حتّى منديل جيب، والدّار يملكها بعض البيض في كلاركسفيل.

ـ أوه، حقّاً؟ كنت أظنّ أنّها ملك لها.

ـ ربّما كانت كذلك في وقت من الأوقات، ولكنّها لم تَعُدْ كذلك، سمعت أنّ موظّفي التّأمين قد تحدّثوا مع أخيها.

ـ إلى كم سيصل المبلغ؟

ـ سمعت أنّه سيصل إلى خمسة وثمانين دولاراً.

ـ هل يمكن أن يغطّي هذا المبلغ تكاليف جنازتها؟

ـ لست أرى كيف يمكن تدبير ذلك؛ فعندما توفّي أبي في نيسان (إبريل) من العام الماضي بلغت مصاريف جنازته مائة وخمسين دولاراً. وبالطبع اضطررنا لتدبير أمورنا. والآن قد يضطرّ أهل جيمي جميعاً لتقديم المساعدة لاستكمال المصاريف، فذلك الحانوتي الّذي يتولّى دفن السّود ليست خدماته هيّنة التّكاليف.

ـ يا للعار! كانت تدفع أقساط ذلك التّأمين طوال عمرها.

ـ ألست أعرف ذلك حقّ المعرفة؟

ـ طيّب، ماذا عن الولد؟ ما الّذي سيفعله؟

ـ طيّب، لم يعثر أحد على تلك الأمّ؛ ولذا فإنّ أخا جيمي سيأخذه معه إلى داره. ويقولون إنّ لديه داراً لطيفة، مزوَّدة بمرحاض داخليّ وكلّ شيء.

ـ جميل. يبدو رجلاً مسيحيّاً طيّباً، والولد بحاجة إلى عون رجل.

ـ متى تُشَيَّع الجنازة؟

ـ في السّاعة الثّانية، ويتعيّن أن ينتهي دفنها في الرّابعة.

ـ أين ستقام المأدبة؟ سمعت أنّ إيساي أرادت أن تقام في دارها.

ـ لا، ستقام في دار جيمي. فقد أراد أخوها ذلك.

ـ طيّب، ستكون مأدبة كبيرة، فالجميع أحبّ جيمي العجوز، وسنفتقدها بالتأكيد في مقاعد الكنيسة.

twitter @baghdad_library

كانت المأدبة الجنائزيّة جلجلة أجراس من البهجة، أعقب جمال الجنازة المدوّي. كانت شبيهة بتراجيديا ساحتُها الشّوارعُ وتؤدّى بعفويّة ومرتبطة بمرونة بأركان صرح رسميّ على نحوٍ رفيع. كانت المتوفّاة هي البطل التّراجيدي، والباقون على قيد الحياة هم الضّحايا البريئة، كان هناك حضور الآلهة الكلّي الوجود والمقطوعة الشّعريّة والمقطوعة الشعريّة المضادّة الّتي تنشدها جوقة الّذين سيطرت عليهم مشاعر الحزن والحِداد وعلى رأسهم الواعظ. كان هناك حزن على هدر الحياة، والدّهشة المترعة بالذهول حيال طرق الربّ، واستعادة النّظام في الطّبيعة عند المقبرة.

وهكذا كانت المأدبة هي الجذل، التّناغم، قبول هشاشة الجسم، والابتهاج بانتهاء المرض. الضّحك، الارتياح، السَّغَب.

لم يكن تشولّلي قد أدرك بصورة كاملة أنّ خالته ماتت. كان كلّ شيء مثيراً للاهتمام إلى حدٍّ بعيد. وحتّى في المقبرة لم يشعر بشيء إلاّ بالفضول، وعندما حلّ دوره ليُلقي نظرة على الجثمان في الكنيسة، مدَّ يده ليلمسه ليتبيّن ما إذا كان بارداً كالثلج مثلما قال الجميع. ولكنّه سحب يده مسرعاً؛ فقد بدت الخالة جيمي شديدة الخصوصيّة، وبدا أنّ من الخطأ على نحوٍ من الأنحاء التطفّل على تلك الخصوصيّة، وتراجع بخطى مثقلة عائداً إلى صفّ المقاعد الّذي كان يجلس فيه بعينين لم يمسّهما الدّمع وسط صرخات الآخرين الدّامعة وصيحاتهم، متسائلاً عمّا إذا كان ينبغي أن يبكي.

لدى العودة إلى الدّار كان حرّاً في المشاركة في الابتهاج، والاستمتاع بما أحسّه حقّاً ـ نوع من الرّوح الاحتفاليّة. التهم الطّعام بنهم، وأحسّ بأنّه في حالة طيّبة بما يكفي لمحاولة التعرّف بأبناء

خؤولته. وكان هناك بعض التّساؤل من جانب الكبار عمّا إذا كانوا أبناء خؤولته حقّاً أم لا، لأنّ أخا جيمي و.ف. كان أخاً غير شقيق لها، وأمّ تشولّلي كانت ابنة أخت جيمي، ولكن تلك الأخت كانت من زواج ثانٍ لوالد جيمي، بينما و.ف. ثمرة الزّواج الأوّل.

أثار أحد أبناء الخؤولة أولئك اهتمام تشولّلي على نحو خاصّ. كان في حوالي الخامسة عشرة أو السّادسة عشرة من عمره. مضى تشولّلي إلى خارج الدّار، وألفى الفتى واقفاً مع آخرين قرب حوض الغسيل الّذي كانت الخالة جيمي معتادة على تسخين ماء غسيل ملابسها فيه.

غامر بإلقاء تحيّة متردّدة، فأجابوه بمثلها، وعرض الفتى ذو الخمسة عشر عاماً، ويُدعى جيك، سيجارة ملفوفة يدويّاً على تشولّلي، فأخذها، ولكنّه عندما أمسك بالسيجارة على امتداد ذراع ووضع طرفها في لهب عود الثّقاب، بدلاً من وضعها في فمه وأخذِ نفَس منها، ضحكوا منه. اربدّ وجهه خجلاً، وألقى بالسيجارة أرضاً، وأحَسّ بأنّ من الأهمّيّة القيام بشيء لإعادة تواصله مع جيك. وهكذا فإنّه عندما سأل تشولّلي عمّا إذا كان يعرف أيّ فتيات ردّ هذا قائلاً:

ـ بالتأكيد.

كانت كلّ الفتيات اللاّتي يعرفهنَّ تشولّلي موجودات في المأدبة، وأشار إلى مجموعة منهنَّ واقفات، منتظرات، وقد تجعّدت ملابسهنَّ في الرّواق الخلفي. وبينهنَّ دارلين أيضاً. وعلَّق تشولّلي الآمال على أنّ جيك لن يختارها.

قال جيك:

twitter @baghdad_library

ـ دعنا نصحب بعضهنَّ وننطلق في جولة.

انطلق الفتيان على مهل نحو الرّواق. لم يدر تشولّلي كيف يبدأ اللّقاء. لفّ جيك ساقيه حول درابزون الرّواق المترنِّح، وجلس هناك محدِّقاً في الفضاء وكأنّه ليس مهتمّاً بهنّ على الإطلاق، وكان يتيح لهنّ إمعان النّظر فيه، وتقويمهنّ، بالمقابل، في حذر.

تظاهرت الفتيات بأنّهن لم يشاهدن الفتيْين، وواصلن الثّرثرة. وسرعان ما اتّسم حديثهنّ بالحدّة، والمداعبة الرّقيقة الّتي كنّ منغمسات فيها إحداهنّ مع الأخرى تحوّلت إلى ضراوة، إلى نوع جاد من المزاح. وقد كان ذلك هو المفتاح الّذي ينشده جيك، فالفتيات يبدين ردّ فعلهنَّ حياله، وقد تلقّين لفحة من رجولته، وأخذن يرتعشن من أجل أن يكنَّ موضع اهتمامه.

ترك جيك درابزون الرّواق، ومضى مباشرة إلى فتاة تدعى سوكي كانت أشدّ مرارة في مداعبتها للأخريات.

لم يبتسم مجرّد ابتسامة وهو يسألها:

ـ أتريدين القيام بجولة معي لتعريفي بالمكان؟

حبس تشولّلي أنفاسه بانتظار إشاحة سوكي عن جيك، فقد كانت بارعة في ذلك، وعُرِفت بلسانها الحادّ، ولدهشته البالغة وافقت عن طواعية، بل وأسدلتَ أهدابها تيهاً. فاستجمع شجاعته، والتفت إلى دارلين، وقال:

ـ هلمّي بنا! سنسير حتّى الأخدود فحسب!

انتظر منها أن تقلب وجهها، وتردّ بالرفض، أو تقول من أجل ماذا أو شيئاً من هذا القبيل، فقد كانت مشاعره حيالها تتألّف أساساً من

الخوف ـ الخوف من أنّها لن تحبّه، والخوف من أنّها ستحبّه.

تجسّد خوفه الثّاني، فقد ابتسمت، ووثبت الدّرجات الثّلاث المائلة لتلحق به، وقد امتلأت عيناها بالحنوّ، وتذكّر أنّ الفقيدة خالته.

قالت:

ـ إذا كنت تريد ذلك، ولكن إلى مسافة غير بعيدة، فقد قالت أمّي إنّ علينا أن نغادر مبكّرين، وها هو الظّلام يدنو.

انطلقوا أربعتهم مبتعدين. وكان بعض الصّبية الآخرين قد جاء إلى الرّواق وأوشك على بدء رقصة التّلاقي تلك، الحافلة بالعداء في جانب منها، وباللاّمبالاة في جانب آخر، وباليأس في جانب ثالث. سار سوكي وجيك ودارلين وتشولّلي عبر عدد من الأفنية الخلفيّة إلى أن وصلوا إلى حقل مترامي الأطراف، عبروه عَدْواً، ووصلوا إلى قاع نهر جافّ، تحفّه الخضرة. كان الهدف من الجولة الوصول إلى كرم برّي كان العنب المسكي ينمو فيه. ورغم أنّ هذا العنب كان أكثر طزاجة وصغراً من أن يكون فيه الكثير من السكّر إلاّ أنّه كان يتمّ التهامه رغم ذلك. لم يرغب أيّ منهم ـ ليس في حينها ـ في تخلّي العنب السّهل عن كلّ عصيره القاتم. فقد أثارهم الاحتجاب والتمنّع والوعد بالحلاوة الّتي مازال عليها أن تتجلّى أكثر ممّا كان يمكن أن يثيرهم النّضج الكامل. أخيراً توتّرت أسنانهم، وعمد الفتيان إلى التلهّي برشق الفتاتين بحبّات العنب. رسم رسغا الفتييْن الأسودان علامات تشبه حرف G في الهواء وهما ينفّذان عمليّات الإلقاء. مضت المطاردة بتشولّلي ودارلين بعيداً عن حافة الأخدود، وعندما توقّفا لالتقاط أنفاسهما، كان جيك وسوكي قد اختفيا. تلطّخ ثوب

twitter @baghdad_library

دارلين القطني الأبيض بالعصير، وانفكّ قوس شعرها الكبير الموحي باللّون الأزرق، وراح نسيم الغروب يرفعه وينثره حول وجهها. تقطّعت أنفاسهما، وغاصا في العشب الجامع بين اللّونين الأخضر والأرجواني على حافة غابات الصنوبر.

رقد تشولّلي على ظهره لاهثاً، وقد امتلأ فمه بطعم العنب المسكي، وراح يصغي لحفيف إبر الصنوبر المنبعث عالياً في غمرة توقّعها للمطر. أصابه عبق المطر الموعود والصّنوبر والعنب المسكي بالدّوار. كانت الشّمس قد رحلت وسحبت نثار سناها، التفت ليرى موضع القمر، فلمح دارلين في سنا القمر وراءه، كانت ملتفّة حول نفسها وقد اتّخذت ذارعاها شكل حرف D ملتفّتين حول ركبتين سحبتهما إلى أعلى، وأراحت عليهما رأسها. استطاع تشولّلي رؤية سروالها التّحتاني وعضلات فخذيها الفتيّين.

قال:

ـ خير لنا أن نبدأ بالعودة.

ـ نعم.

قالتها ومدّدت ساقيها على الأرض، وشرعت تعيد عقد شريط شعرها، مضيفة:

ـ ماما ستضربني.

ـ لا، لن تضربك.

ـ أهه. قالت إنّها ستضربني إذا اتّسخت ملابسي.

ـ لم تتّسخ ملابسك.

ـ بل اتّسخت. انظر إلى ذلك!

أسقطت يديها عن شريط شعرها، ودلّكت برفق موضعاً في ثوبها كانت بقع العنب عنده أكثر قتامة.

شعر تشولّلي بالأسف من أجلها؛ فقد كانت تلك غلطته بالدرجة ذاتها. وأدرك فجأة أنّ الخالة جيمي قد ماتت، وغاب عنه الخوف من التعرّض للضرب بالسوط، فلم يكن هناك من يقوم بذلك إلاَّ الخال و.ف. وهو في مرحلة الحِداد بدوره.

ـ دعيني أعقده لك!

قالها، ونهض على ركبتيه مواجهاً لها، وحاول عقد شريط شعرها. وضعت يديها تحت قميصه المفتوح، ودلّكت جلده المشدود الرّطب، وعندما تطلّع إليها دهشاً، توقّفت، وضحكت. ابتسم، وواصل عقد شريط شعرها، فدسّت يديها مجدّداً تحت قميصه.

قال:

ـ إلزمي السّكون! كيف سأعقد هذا؟

دغدغت ضلوعه بأطراف أصابعها، فضحك وأمسك قفصه الصدري بقوّة. وفي لحظة كانا أحدهما فوق الآخر، هي تدفع يديها بطريقة لولبيّة في طيّات ملابسه، وهو يردّ لها اللّعبة. موغلاً في عنق ثوبها ثمّ تحت الثّوب. وعندما وصل بيده إلى داخل سروالها التّحتاني، توقّفت فجأة عن الضّحك، وبدت جادّة. سيطر الخوف على تشولّلي، وأوشك على سحب يده، لكنّها أمسكت برسغه، حتّى لا يستطيع تحريكها، عندئذٍ تفحّصها بأصابعه، وقبّلت وجهه وفمه. وجد تشولّلي فمها المكسوّ الشّفتين بالعنب المسكي مشتّتاً للانتباه.

twitter @baghdad_library

أفلتت رأسه، وحركّت جسمها قليلاً، وأنزلت سروالها إلى كاحليها. بعد شيء من العناء في معالجة أمر الأزرار أسقط تشولّلي سرواله حتّى ركبتيه. بدأ جسماهما يكتسبان معنى بالنسبة إليه، ولم يكن الأمر متعذّراً كما حسب أنّه سيكون. أنّت قليلاً، ولكن الاستثارة المتجمّعة بداخله جعلته يغمض عينيه، وينظر إلى أنّاتها باعتبارها شيئاً لا يتجاوز حفيف الصّنوبر فوق رأسه. فيما أحسّ بانفجار يتهدّده، تجمّدت دارلين في موضعها، صرخت. حسب أنّه قد أوجعها، ولكنّه عندما نظر إلى محيّاها، كانت تحدّق بوحشية في شيء ما فوق كتفه، فالتفت منتفضاً.

انتصب رجلان أبيضان هناك. أحدهما يحمل مصباحاً يضيء بالكحول، والآخر مصباحاً كهربيّاً نقّالاً لم يكن هناك مجال للخطأ في كونهما أبيضين، فقد كان بوسعه تمييزهما بالرائحة. وثب محاولاً الارتكاز على ركبتيه ثمّ الوقوف، وجذب سرواله إلى أعلى في حركة واحدة. كان الرّجلان يتقلّدان بندقيّتين طويلتين.

كانت الضّحكة نصف المكبوتة سعالاً طويلاً يوحي بإصابة صاحبه بالرّبو:

ـ هيي هيي هيي هييي.

لوّح الآخر مسرعاً بالمصباح النقّال، فوق أرجاء جسديْ تشولّلي ودارلين كلّها.

قال حامل المصباح النقّال:

ـ خلّص الشّغلانة، يا زنجي!

ـ سيّدي؟!

قالها تشولّلي محاولاً العثور على عروة.

ـ قلت خلّص الشّغلانة، وخلّها تمام يا زنجي! خلّها تمام!

لم يكن هناك مكان ترحل إليه عينا تشولّلي. انزلقتا على نحو مختلس، باحثتين عن مأوى، بينما ظلّ جسمه مشلولاً رفع حامل المصباح النقّال بندقيّته عن كتفه، وسمع تشوّلي قعقعة معدنيّة. أسقط سرواله إلى ركبتيه مجدّداً، أشاحت دارلين جانباً، وعيناها تحدّقان خارج دائرة ضوء المصباح إلى الظّلام الضّارب الأطناب، وبدا عليهما أنّهما غير مكترثين تقريباً، وكأنّما ليس لهما دور في الدّراما الّتي تدور حولهما. وبعنف وُلِد من العجز المطلق رفع ثوبها عالياً، وجذب إلى أسفل سرواله وملابسه التحتيّة.

ـ هييي هييي هييي هييي.

غطّت دارلين وجهها بيديها، فيما شرع تشولّلي يقلّد ما حدث من قبل. لم يستطع القيام بأكثر من التّقليد، صنع ضوء المصباح قمراً على مؤخّرته.

ـ هييي هييي هييي هييي.

تحرّك تشولّلي بسرعة أكبر ونظر إلى دارلين. كرهها. أوشك أن يتمنّى لو كان بمقدوره أن يفعلها ـ بقسوة، طويلاً، وعلى نحو مؤلم، كرهها كأشدّ ما يكون الكره. شقّ ضوء المصباح طْريقه كالدّود إلى بطنه وحوّل طعم العنب المسكي الحلو إلى كومة نتنة عفنة. حدّق في يديْ دارلين اللّتين تغطّيان وجهها في ضوء القمر والمصباح فبدتا وكأنّهما براثن صغيرة.

ـ هييي هييي هييي هييي.

نبحت بعض الكلاب.

twitter @baghdad_library

ـ إنّها هي. إنّها هي. أعرف أنّ هذا هو أولد صوني.
قال حامل المصباح الكحولي:
ـ نعم.
ـ تعال!
التفت حامل المصباح مبتعداً، وصفّر أحدهما لهوني.
قال حامل المصباح الكحولي:
ـ انتظر! الأسود لم يفرغ من شهوته بعد.
ـ طيّب، سيفرغ منها وقتما يحلو له. حظّاً طيّباً يا وليد يا أسود!

سحقا إبر الصّنوبر تحت أقدامهما. وكان بمقدور تشولّلي سماعهما، وهما يصفّران لفترة طويلة، ثمّ لم يعد ردّ الكلاب نباحاً، وإنّما عواء لقرف دافئ مفعم بالانفعال.

رفع تشولّلي نفسه بصمت وزرّر سرواله. لم تتحرّك دارلين. أراد تشولّلي أن يخنقها، ولكنّه بدلاً من ذلك مسّ ساقها بقدمه:
ـ علينا أن نرجع، يا فتاة، هلمّي!

مدّت يدها إلى ملابسها التحتانيّة، وقد أغمضت عينيها، ولم تستطع العثور عليها. تلمّس كلّ منهما في سنا القمر بحثاً عن السّروالين، وعندما عثرا عليهما، ارتدتهما بحركات امرأة عجوز. ابتعدا عن غابة الصنوبر نحو الطّريق، هو في المقدّمة، وهي تتحرّك محدثة صوتاً وراءه. شرع المطر ينهمر. حدّث تشولّلي نفسه: «ذلك أمر طيّب، فسوف يبرّر ما أصاب ملابسنا».

عندما عادا إلى الدّار، كان مايزال هناك عشرة ضيوف أو اثنا عشر ضيفاً، وقد انصرف جيك وسوكي أيضاً. وعاد البعض للحصول على

المزيد من الأنصبة من الطّعام ـ فطيرة البطاطا، الضّلوع. وقد انغمس الجميع في تذكارات صور المساء عن الأحلام، والأشباح، والهواجس. كان استرخاؤهم عقب اتخامهم بالطّعام شبيهاً بالتخدير وأفرز تذكارات وافتعالات للأخيلة المتوهّمة.

لم يؤدِّ دخول تشولّلي ودارلين إلاَّ إلى إحداث ضجّة لا تذكر.

ـ أغرقكما ماء المطر. أليس كذلك؟

لم تُثِر أمّ دارلين ضجّة إلاَّ على نحوٍ غامض، فقد أكثرت من الطّعام والشّراب. واستقرّ حذاؤها تحت مقعدها، وفُتح إبزيما ثوبهما الجانبيّين.

ـ يا فتاة، تعالي إلى هنا، أحسب أنّني قلت لك.

أعرب بعض الضّيوف عن اعتقادهم بأنّ من الخير لهم أن يمكثوا إلى أن تخفّ حدّة المطر. وظنّ آخرون ممّن جاءوا في عربة تجرّها الجياد أنّ من الأفضل لهم أن ينصرفوا الآن. دلف تشولّلي إلى الكرار الصّغير الّذي تمّ تحويله إلى غرفة نوم له. كان ثلاثة أطفال راقدين في سريره النقّال، نزع ثيابه الغارقة بالمطر وإبر الصنوبر وارتدى رداء سابغاً. لم يدرِ إلى أين يمضي. لم يكن هناك مجال للتفكير في غرفة الخالة جيمي، وعلى أيّ حال فسوف يستخدمها الخال و.ف وزوجته في وقت لاحق. التقط لحافاً من صندوق للأغراض، وفرده على الأرض، ورقد. كان أحدهم يغلي قهوة، وتاق إليها كأشدّ ما يكون التّوق قبل أن يغفو.

كان اليوم التالي هو يوم إيضاح المواقف وتسوية الحسابات وتوزيع أغراض الخالة جيمي. أطبقت الأفواه متّخذة شكل أهلّة

twitter @baghdad_library

مقلوبة إلى أسفل، واكتست الأعين بالنُّقُب، وتوتّرت الأقدام.

مضى تشولّلي هنا وهناك دونما هدف، عاكفاً على إنجاز المهامّ الّتي يؤمر بها، وحلّت محلّ كلّ التألّق والدّفء اللّذين منحهما له الكبار بالأمس حدّة وافقت حالته المزاجية؛ فلم يكن بمقدوره إلاَّ التّفكير في ضوء المصباح النقّال، والعنب المسكي، ويديْ دارلين. وعندما لم يكن عاكفاً على التّفكير فيها فإنّ الخواء في ذهنه كان شبيهاً بالفراغ الّذي تخلّفه سنّ نُزِعت حديثاً مع استمرار الوعي بالنتن الّذي كانت مليئة به. وإذ خشي أن يقابل دارلين مصادفة، فإنّه لم يبتعد كثيراً عن الدّار، ولكنّه لم يستطع كذلك احتمال مناخ دار خالته الميتة، التّقليب في أشيائها، التّعليقات على «حالة» أغراضها. غاضباً ومتوتّراً راح يغذّي كراهيته لدارلين. لم يفكّر قطّ للحظة في توجيه كراهيته نحو الصيّاديْن، فمن شأن هذه العاطفة أن تقضي عليه؛ فقد كانا رجليْن كبيريْن وأبيضيْن ومسلَّحيْن، وكان هو صغيراً وأسود وعاجزاً، وعرف عقله الباطن ما لم يخمّنه وعيه ـ أنَّ كراهيته لهما من شأنها أن تلتهمه التهاماً وتحرقه مثل قطعة من الفحم الهشّ تاركة رقائق من رماد وعلامة استفهام من دخان. وقُدِّر له أن يكتشف بمرور الوقت كراهية البيض تلك، ولكن ليس الآن. لا في العُنّة، وإنّما في وقت لاحق عندما يتسنَّى للكراهية أن تجد تعبيراً حلواً عنها. أمّا الآن فقد كره من خلقت الموقف، من وقفت شاهدة على فشله، على عُنّته، من لم يستطع حمايتها وتجنيبها هذا الموقف، وتغطيتها من وهج البدر الّذي صنعه ضوء المصباح النقّال من تلك الضّحكات هيي هييي هييي. تذكّر شريط شعر دارلين المتساقط وهو يحفّ بوجهها فيما هما يسيران بصمت عائديْن تحت المطر. جعله المقت الّذي

انطلق يعدو متخلّلاً إيّاه يرتجف. لم يكن هناك من يحادثه. كان بلو أكثر سكراً في معظم الأوقات هذه الأيّام من أن يفهم ما يقوله. وفضلاً عن ذلك فقد ساور تشولّلي الشكّ في أنّ بمقدوره أن يطلع بلو على عاره، سيتعيّن عليه أن يكذب قليلاً ليبلّغ بلو بالأمر، بلو قاتل النّساء. بدا له أنّ الشّعور بالوحدة أفضل كثيراً من أن يكون وحيداً بلا أنيس بالفعل.

في اليوم الّذي تأهّب فيه خال تشولّلي للمغادرة، عندما تمّ حزم كلّ شيء، وحينما سوّيت المنازعات على ما سيحصل عليه كلّ طرف باستثناء طعم مرير بقي على لسان الجميع، جلس تشولّلي منتظراً في الرّواق الخلفي. خطر له أنّ دارلين ربّما تكون حبلى. كانت فكرة لاعقلانيّة على نحوٍ صارخ وغير ملهَمة قطّ، ولكن الخوف الّذي ولّدته كان على قدر كافٍ من الاكتمال.

تعيّن عليه أن يمضي بعيداً، وألاّ يكترث بحقيقة أنّه سيغادر في ذلك اليوم عينه. والابتعاد إلى مدينة أو مدينتين ليس بالأمر الكافي، وخاصّة أنّه لم يحبّ خاله ولم يثق به، ومن المؤكّد أنّ بمقدور أمّ درالين العثور عليه، وسوف يسلّمه الخال و.ف. إليها. كان تشولّلي يعرف أنّ من الخطأ الهرب من صبية حامل، وتذكّر بتعاطف أنّ أباه قد فعل ذلك على وجه الدقّة. الآن ها قد فهم الأمر. عرف حينذاك ما يتعيّن عليه أن يقوم به ـ العثور على أبيه. ولسوف يتفهّم أبوه الموقف. لقد قالت الخالة جيمي إنّه ذهب إلى ميكون.

بتفكير لا يتجاوز ما يجول بذهن صوص يغادر بيضته، خطا مبتعداً عن الرّواق. كان قد ابتعد قليلاً عندما تذكّر الكنز. لقد أورثته الخالة جيمي شيئاً، وقد نسي أمره. في مدخنة موقد لم تَعُدْ مستخدمة كانت

twitter @baghdad_library

قد أخفت قفّة جريش أطلقت عليها اسم كنزها. انسلّ إلى الدّار، وألفى الغرفة خاوية. دسّ يده في المدخنة فصادفت نسيج عنكبوت وسخاماً، ثمّ القفّة اللّدنة. دقّق في النّقود فوجد أربع عشرة ورقة من ذات الدّولار وورقتين من فئة الدّولارين وحفنة من القطع النقديّة الفضّيّة... ثلاثة وعشرون دولاراً حصيلتها الكلّيّة. من المؤكّد أنّ في ذلك الكفاية للوصول إلى ميكون. أيّ كلمة طيّبة وقويّة الوقع هي ميكون!

كان الهرب من الدّار بالنسبة إلى فتى أسود في جورجيا أمراً غير متعذّر، ما عليك إلاّ أن تنسلّ مبتعداً وتبدأ بالمسير، وعندما يحلّ اللّيل عليك تنام في حظيرة، إذا لم تكن هناك كلاب، أو حقل قصب سكر، أو منشرة خاوية، وتتناول ممّا تثمر الأرض وتبتاع جعة الجذور وشراب الأرز المخمرّ في متاجر ريفيّة صغيرة. وكانت هناك على الدّوام قصّة يسيرة الاختلاق مليئة بالنكبات ترويها للكبار من السّود الّذين يستفسرون، ولم يكن البيض يكترثون، ما لم يكونوا بصدد البحث عن تسلية لهم.

عندما ابتعد مسيرة عدّة أيّام، كان بمقدوره المُضيّ إلى الباب الخلفي للدور الفخمة وإبلاغ الطاهية السّوداء، أو الخليلة البيضاء، بأنّه يريد العمل في عزق الحشائش أو الحرث أو القطاف أو التّنظيف وأنّه يقيم في الجوار. وبعد قضاء أسبوع أو أكثر هناك يمكنه الانطلاق. وقد عاش بهذه الطريقة حتّى انقضاء الصيف، وفي شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) الّذي أعقب ذلك فحسب وصل إلى بلدة كبيرة بحيث توجد فيها محطّة حافلة منتظمة، ومضى وقد جفّ حلقه من فرط الانفعال والترقّب إلى الجانب الخاصّ بالملوّنين من النضد لابتياع بطاقته.

ـ كم تبلغ قيمة التذكرة إلى ميكون يا سيّدي؟!

ـ أحد عشر دولاراً. خمسة دولارات ونصف الدولار للأطفال دون الثّانية عشرة.

كان لدى تشولّلي اثنا عشر دولاراً وأربعة سنتات.

ـ كم تبلغ من العمر؟

ـ في الثّانية عشرة من عمري، يا سيّدي، ولكن أمّي لم تعطني إلاَّ عشرة دولارات.

ـ إنّك أكبر ابن اثني عشر عاماً رأيته في حياتي.

ـ أرجوك، يا سيّدي، لازم أذهب إلى ميكون. أمّي مريضة.

ـ حسبت أنّك قلت إنّ أمّك أعطتك عشرة دولارات.

ـ تلك امرأة أبي، أمّا أمّي الحقيقيّة فهي في ميكون، يا سيّدي!

ـ أراهن أنّني أعرف الزّنجي الكذّاب عندما أراه، ولكن لمجرّد الاحتياط وتحسّباً لاحتمال كونك لا تكذب، تحسّباً لكون إحدى الأمّيْن تُحْتَضَر حقّاً وترغب في أن ترى أسودها الصّغير أمامها قبل أن تلاقي خالقها سأعطيك التذكرة.

لم يسمع تشولّلي شيئاً من هذا؛ فالإهانات كانت جزءاً من مضايقات الحياة، كالقمل، وكان أكثر سعادة من أيّ وقت استشعر السّعادة فيه على الإطلاق، باستثناء ذلك الوقت الّذي التهم فيه البطيخ مع بلو. كان من المقرّر ألاَّ تغادر الحافلة المحطّة قبل أربع ساعات، وتثاقلت مضطربة دقائق تلك السّاعات مثل بعوض على ورق ذباب ـ لافظة أنفاسها على مهل، مثقلة بالقتال من أجل البقاء. خشي تشولّلي أن يتحرّك من موضعه حتّى ولو للتخلّص من فضلاته؛

twitter @baghdad_library

فالحافلة قد تنطلق أثناء غيابه. وفي النهاية استقلّ الحافلة إلى ميكون، متصلّباً من جرّاء الإمساك الّذي أصابه.

وجد مقعداً مجاوراً للنافذة في مؤخّرة الحافلة، شغله منفرداً، إلى أن احتجبت الشّمس عن العيون. وحتّى في الظّلام تاق للرؤية ولم يغفُ إلاّ بعد مقاومة ضارية استهدفت إبقاء عينيه مفتوحتين. وعندما استيقظ كان النّهار قد أوغل في مسيرته، وكانت سيِّدة سوداء بدينة تدفع إليه ببسكويت مدهوك بلحم الخنزير البارد. وفيما كان طعم لحم الخنزير عالقاً بأسنانه انطلقوا في طريق جانبي إلى ميكون.

كان بمقدوره أن يرى في نهاية الزّقاق الرّجال وقد تجمّعوا كحبّات العنب. انطلق صوت هادر فوق رؤوس الشّخوص المحنية، الشّخوص الجاثية، الشّخوص المنحنية، كلّها حريصة على الاقتراب من بقعة واحدة. وفيما هو يدنو اشتمّ رائحة رجوليّة حادّة تلطم الأنوف. كان الرّجال مجتمعين، تماماً كما قال الرّجل الموجود في القاعة ذات المسبح، حول المال والنّرد ومن أجلهما. كان كلّ شخص مزيّناً على شكل من الأشكال بقليل من أوراق النّقد الخضراء. قسّم بعضهم نقوده أقساماً، فطوى أوراقاً نقديّة حول أصابعه، وأطبق الأصابع بصورة قبضتين، بحيث أنّ الأطراف المرتّبة برزت بمزيج من البهاء والعنف. وآخرون جمعوا نقودهم في صورة رزم، وطووها من المنتصف، وأمسكوا بها كأنّهم يوشكون على التّعامل مع أوراق اللّعب. بينما ترك بعضهم الآخر نقودهم في صورة لفائف مجعّدة بشكل مفكّك. وبرزت النّقود من تحت غطاء رأس أحدهم، ومضى آخر يداعب النّقود بإبهامه وسبّابته. كانت هناك أموال في تلك الأيدي السّوداء أكثر ممّا شاهده تشولّلي من قبل.

شاركهم انفعالهم، وترقّب لقاء أبيه بحلق جافّ ما لبث أن فسح الطّريق لدفق من اللّعاب أثاره الانفعال. ألقى نظرات عجلى على الوجوه، باحثاً عمّن يمكن أن يكون أباه. كيف سيعرفه؟ هل سيبدو على شاكلته وإن كان أكبر سنّاً؟ في تلك اللّحظة لم يستطع تشولّلي تذكّر كيف يبدو مظهره. كلّ ما كان يعرفه هو أنّه أسود في الرّابعة عشرة من عمره، وقد بلغ طوله بالفعل ستّ أقدام. تمعّن في الوجوه، ولم يرَ إلاّ العيون، عيوناً ضارعة، عيوناً باردة، عيوناً سطّحها الخبث، وأخرى سطّحها الخوف ـ وكلّها تركّزت حول حركة زوج من النّرد كان رجل يلقيه، وينتزعه عالياً، ويلقيه مجدّداً. ردّد بصوت منغّم نوعاً من الابتهال استجاب له الآخرون، وحكّ زوج النّرد، كأنّما هما قطعتا فحم متوهّجتان، وهمس محدّثاً إيّاهما، ثمّ بصيحة مدوّية طارا من يده وسط جوقة من صيحات التّعجب وخيبة الأمل، ثمّ جمع ملقي النّرد المال، وصاح أحدهم: «خذه وازحف، يا كلب الماء، وهذه أفضل شتيمة أعرفها» تردّد بعض الضّحك، وحدث انفراج ملحوظ للتوتّر، تبادل خلاله بعض الرّجال النّقود.

ربّت تشولّلي على ظهر رجل عجوز، أشيب الشعر:

ـ هل يمكنك إخباري بما إذا كان سامسون فولر قريباً من هنا؟

ـ فولر؟

كان الاسم مألوفاً على لسان الرّجال، أشار قائلاً:

ـ لست أدري، إنّه في مكان ما هاهنا. ها هو. إنّه يرتدي السّترة البنّيّة.

وقف رجل يرتدي سترة بنّيّة فاتحة عند الطّرف البعيد للمجموعة. كان يومئ بشكل مفعم بالانفعال والرّغبة في الشّجار مع رجل آخر،

twitter @baghdad_library

وقد اربدّ وجهاهما غضباً، دار تشولّلي حول حافة الحلقة إلى حيث كانا غير مصدِّق أنّه في نهاية رحلته. هوذا أبوه، رجل كأيّ رجل آخر. ولكن هنالك حقّاً لاح عيناه وفمه ورأسه كلّه. استترت كتفاه تحت تلك السّترة، وصوته ويداه ـ كلّ ذلك حقيقي. كلّه موجود، موجود حقّاً، في مكان ما. هاهنا. فكّر تشولّلي على الدّوام في أبيه باعتباره رجلاً عملاقاً، ولذا فإنّه عندما دنا منه للغاية صدم إذ اكتشف أنّه أطول من أبيه. وفي حقيقة الأمر فإنّه كان يحدّق في بقعة دَبَّ إليها الصّلع من رأس أبيه، أراد فجأة أن يلطمها. وبينما فتنته على هذا النّحو تلك البقعة النّظيفة المثيرة للرثاء الّتي تحفّها قبضات من الشّعر الشّبيه بالصوف، حوّل الرّجل وجهاً قاسياً مربّد الملامح نحوه:

ـ ما الّذي تريده يا فتى؟!

ـ أوه. أقصد. هل أنت سامسون فولر؟

ـ من الّذي بعث بك؟

ـ هه؟

ـ هل أنت ابن ملبا؟

ـ لا يا سيّدي، إنّني.

نظر تشولّلي بعينين طارفتين. فلم يستطع تذكّر اسم أمّه. هل عرف هذا الاسم قطّ؟ ما الّذي يستطيع قوله؟ ابن من هو؟ لم يستطع القول: «إنّني ابنك» فقد بدا وقعه موحياً بعدم الاحترام.

قال الرّجل بصبر نافد:

ـ ما الّذي أصاب يافوخك؟ من الّذي قال لك أن تأتي في طلبي؟

ـ لا أحد.

قالها تشولّلي وقد تعرّقت يداه؛ فقد أخافته عينا الرّجل، أضاف:

ـ كلّ ما هنالك أنّني حسبت. أقصد، كنت أتجوّل في المنطقة، وأوه، اسمي تشولّلي.

ولكنّ فولر كان قد عاد إلى اللّعبة الّتي كانت على وشك البدء من جديد. انحنى ليضع ورقة ماليّة على الأرض، وانتظر إلقاء النّرد. عندما ضاعت الورقة هباء، انبعث واقفاً، وبصوت شكس مفعم بالتذمّر صاح بتشولّلي:

ـ قل لتلك الكلبة إنّها تحصل على نقودها. والآن غُرْ من وجهي!

أمضى تشولّلي وقتاً طويلاً في انتزاع قدمه من الأرض. كان يحاول استجماع شتات نفسه والمُضيّ بعيداً. وبجهد فائق فحسب استطاع دفع العضلة الأولى للتعاون. وعندما استجابت سار عائداً في الزّقاق، خارجاً من ظلّه، نحو ضياء الشّارع الوهّاج. ولدى مواجهته للشمس أحسّ بشيء في ساقيه يتداعى. كان هناك صندوق للشحن البحري برتقاليّ اللّون، ألصقت على جانبه صورة يدين متشابكتين وقد قُلِب رأساً على عقب على الرّصيف. اقتعده تشولّلي. هوى ألق الشّمس كالشهد على رأسه. مرّت عربة نقل فاكهة يجرّها حصان، وسائقها يغنّي: «طازج من الكرمة، حلو كالعسل، أحمر كالنبيذ».

بدا أنّ الضّوضاء تزداد دويّاً. وَقْعُ كعوب أحذية النّساء، وضحك رجال كسالى عند الأعتاب. كانت هناك عربة ترام في مكانٍ ما. واصل تشولّلي جلسته. كان يعرف أنّه إذا لزم السّكون التّام فإنّه سيغدو على ما يرام، ولكن اجتاحت عندئذٍ لمحة من الألم حافة عينيه، واضطرّ لتكريس كلّ طاقاته لإبعادها. وحدّث نفسه بأنّه إذا

twitter @baghdad_library

لزم السّكون التّام وركّز عينيه على ذلك الشيء فإنّ الدّموع لن تنهلّ. وهكذا جلس تحت المشهد المتهاوي من الشّمس مكرِّساً كلّ عصب وعضلة لمنع انهمار الدّمع من عينيه. وبينما هو يجالد على هذا النّحو مركِّزاً كلّ ذرة من طاقته على عينيه، تقبّضت أحشاؤه منفتحة، وقبل أن يدرك ما كان يعلمه تحدّر براز سائل على ساقيه. لقد لوّث نفسه بفضلاته مثل طفل وليد، عند مدخل الزّقاق الّذي وقف فيه أبوه، وذلك خلال جلوسه على صندوق شحن بحري برتقالي، تحت الشّمس، وفي شارع يعجّ بالرجال والنّساء.

راح يتساءل مذعوراً عمّا إذا كان عليه أن ينتظر هنالك دون أن يتحرّك من موضعه إلى أن يُقْبِل اللّيل؟ لا من المؤكّد أنّ أباه سيخرج من الزّقاق ويراه ويضحك. أوه، يا إلَهي، لسوف يضحك. الجميع سيضحكون. هناك شيء واحد يجب القيام به.

انطلق تشولّلي يُعْبرُ الطّريق عَدْواً، دونما وعي بشيء إلاَّ الصّمت. راحت أفواه النّاس تتحرّك، أقدامهم تتحرّك، انطلقت سيّارة بقوّة مارّة به ـ ولكن دونما صوت. صفق باب في غياب تام للصوت. لم تُحْدِث قدماه صوتاً. بدا أنّ الهواء يخنقه، يحتجزه. كان يندفع عبر عالم من نسغ الصنوبر يتهدّده بالاختناق. ومع ذلك واصل العدو، دون أن يرى إلاَّ أشياء صامتة تتحرّك، إلى أن وصل إلى نهاية البنايات، وبداية منطقة خاوية ممتدّة، ولمح نهر أوكمولجي يتدفّق. انطلق مسرعاً يهبط منحدراً يغطّيه الحصى إلى رصيف ممتدّ فوق الماء الضّحل. وإذ عثر على أعمق بقعة ظلٍّ تحت الرّصيف جثم فيها وراء إحدى الدّعامات. وظلّ هناك ملتفّاً حول نفسه في وضع جنيني، متجمّداً، وقبضتاه تغطّيان عينيه، وقتاً طويلاً. لا صوت، ولا صورة،

وإنّما ظلام وحَرّ فحسب، وضغط ببَراجِمه على جفنيه، بل لقد نسي سرواله الملوّث.

حلّ المساء. ولفّ الظّلام والدفءْ والهدوء تشولّلي مثلما يحمي جلد ثمر البلسان ولبّه بذرته.

انتفض تشولّلي. كان كلّ ما أحسّ به هو الألم في رأسه. سريعاً، ومثلما شظايا زجاج، قطعت أحداث ذلك الأصيل أعماقه غائرة فيها. لم يَرَ في البداية إلاّ المال في الأصابع السّوداء، ثمّ ظنّ أنّه جالس على مقعد غير مريح، ولكنه عندما ألقى نظرة تبيّن أنّه جالس على رأس رجل، رأس ذي بقعة صلعاء في حجم برتقالة. عندما تداخلت هذه الجزئيّات في نهاية المطاف متحوِّلة إلى ذكرى متكاملة، بدأت رائحة تشولّلي تتناهى إليه. نهض واقفاً، وألفى نفسه خائر القوى، مرتجفاً، مصاباً بدوار. انحنى للحظة مستنداً على دعامة الرّصيف، ثمّ نزع سرواله وملابسه التّحتانيّة وجوربه وحذاءه. مسح ملء قبضات من الوسخ عن حذائه، ثمّ تقدّم على مهل وبضعف نحو حافة النّهر. اضطرّ إلى تلمّس بداية الماء بيديه؛ إذ لم يستطع رؤيتها بوضوح. أخذ يدوِّم على مهل ملابسه في الماء ويفركها إلى أن غلب على ظنّه أنّها أصبحت نظيفة. عاد إلى قرب دعامة الرّصيف ونزع قميصه، ولفّه حول خصره، ثمّ نشر سرواله وملابسه التّحتانيّة على الأرض. أقعى وراح يجذب نثاراً من خشب الدّعامة المتحلّل. فكّر على حين غرّة في خالته جيمي، وحافظة حلتيتها، وأسنانها الذّهبية الأربع والخرقة الأرجوانيّة الّتي كانت تتخذها عصابة تشدّ بها رأسها. وبحنين أوشك أن يشقّه شقّاً راح يفكّر في الكيفيّة الّتي كانت تقدّم إليه بها قطعة من لحم العرقوب المدخَّن التقطتها من طبقها. تذكّر

twitter @baghdad_library

كيف أنّها كانت تمسكها على نحو مرتبك، بثلاث أصابع، ولكنْ بكثير من المحبّة. في صمت، مجرّد أن تلتقط قطعة من اللّحم وتمدّها إليه، وعندئذٍ اندفعت الدّموع منسابة على وجنتيه، لتصنع باقة تحت ذقنه.

تطلّ ثلاث نسوة من نافذتين. يَرَيْنَ الجيد الأتلع النّظيف لفتى لا عهد لهنّ به، وينادينه، يمضي إلى حيث هنّ. في الدّاخل تسود العتمة والدّفء، يقدّمن له شراب اللّيمون في وعاء زجاجي. وفيما هو يشرب اللّيمون تحلّق عيونهنّ إليه عبر قاع الوعاء وخلال الماء المسكَّر الزّلق. يعدن إليه رجولته، الّتي يأخذها دونما هدف.

ما كان يمكن لجزيئات حياة تشولّلي أن تغدو متماسكة إلاّ في ذهن مؤلّف موسيقى أو عازفها؛ فوحدهم أولئك الّذي يقولون ما لديهم من خلال ذهب المعدن المقوَّس، أو في تماسّ مع مستطيلات تجمع بين اللّونين الأبيض والأسود وجلود مشدودة وأوتار ينبعث صداها من الأروقة الخشبيّة، كان بإمكانهم إضفاء الإطار الحقيقي على حياته. كان حرياً بهم وحدهم أن يعرفوا كيف يربطون قلب البطيخة الحمراء بحافظة الحلتيت بالعنب المسكي بضوء المصباح على مؤخّرته بقبضات النّقود بشراب اللّيمون في الوعاء الزّجاجي برجل يدعى بلو، ويخرجون بما يعنيه هذا كلّه في النّشوة، في الألم، في الغضب، في الحبّ، ويخلعون عليه وجعه النّهائي الشّامل، وجع الحرّيّة. المؤلّف والعازف الموسيقي وحده هو الّذي من شأنه أن يشعر ويحسّ، حتّى دون أن يعرف أنّه قد أحاط علماً، بأنّ تشولّلي كان حُرّاً. حُرٌّ على نحو خطر. حُرٌّ في أن يشعر بأيّ شيء يحسّه ـ

الخوف، الذّنب، الخجل، الحبّ، الحزن، الشّفقة. حُرٌّ في أن يكون رقيقاً أو عنيفاً، أن يصفّر ابتهاجاً أو يبكي. حُرٌّ في النّوم في مداخل البيوت أو وسط الملاءات البيضاء لامرأة تغنّي. حُرٌّ في الالتحاق بعمل، حُرٌّ في تركه. بمقدوره دخول السّجن دون أن يشعر بأنّه سجين؛ لأنّه لمح بالفعل المكر والاختلاس في عينيْ سجّانه، حُرٌّ في أن يقول «لا، وليكن ما يكون!» ويبتسم؛ لأنّه قتل بالفعل ثلاثة من الرّجال البيض. حُرٌّ في احتمال الإهانات الّتي تكيلها امرأة؛ لأنّه وضع ذلك الرّأس بين ذراعيه كأنّه في مهد. حُرٌّ في أن يكون رقيقاً لدى مرضها، أو ينظّف أرضيّتها بالممسحة؛ لأنّها كانت تعلم ما الّذي كانت عليه رجولته وأين كانت. لقد كان حُرّاً في أن يعكف على الشّراب إلى أن يصل إلى حدّ العجز الأخرق؛ لأنّه كان راقصاً لا يشقّ له غبار، وسجن ثلاثين يوماً مع فريق من السّجناء مشدود الوثاق إلى سلسلة واحدة، وانتزع من ربلته رصاصة أطلقتها عليه امرأة. كان حُرّاً في أن يعيش تصوّراته الخياليّة، وحُرّاً حتّى في أن يموت موتاً لم يكن موعده ولا كيفيّته يثيران اهتمامه. في تلك الأيّام كان تشولّلي حُرّاً حقّاً. وإذ تمّ التخلّي عنه من جانب أمّه في كومة من النّفاية، ونبذه أبوه ليفرغ لمقامرة وضيعة، فلم يكن هناك ما هو أكثر من ذلك ليخسره. كان وحيداً مع مداركه وشهواته وقد كانت هي وحدها الّتي تثير اهتمامه.

في هذه الوضعيّة الأثيريّة التقى بولين وليامز. وقد كانت بولين، أو بالأحرى الزّواج منها، هو ما فعل به ما لم يفعله ضوء المصباح، فقد دفعته الاستمراريّة واللّاتغاير ووَقْر بقاء كلّ شيء على حاله إلى اليأس، وجمّد خياله. فأن يطلب منه أن يرقد مع المرأة ذاتها إلى الأبد كانت فكرة غريبة وغير طبيعيّة بالنسبة إليه، أن يتوقّع منه أن

twitter @baghdad_library

يراكم ألوان الحماس لأفعال قديمة وحيل مكرورة أمر دعاه للاندهاش حيال غرور الأنثى وصلفها. عندما التقى بولين في كنتاكي كانت منحنية على سياج تهرش نفسها بقدم مشوَّهة. جعله التألّق والجاذبية والنّشوة الّتي أيقظها فيها يرغب في الاستقرار في عشّ واحد معها. كان مايزال يتعيّن عليه أن يكتشف ما الّذي قضى على تلك الرّغبة. ولكنّه لم يُطِل التّفكير في ذلك، وإنّما فكّر بالأحرى فيما حدث لذلك الفضول الّذي اعتاد أن يستشعره. لا شيء، لا شيء أصبح يثير اهتمامه الآن، لا هو نفسه ولا النّاس أيضاً. في الشّراب وحده كان هناك بعض الرّاحة، بعض الضّوء الغامر، وعندما يحتجب ذلك يسود النّسيان.

ولكن الجانب الّذي أذهله وأصابه بالشّلل التّام من جوانب الحياة الزّوجيّة كان ظهور الأطفال. وإذ لم تكن لديه أدنى فكرة عن تربيتهم، وإذ لم يرقب قطّ أبوين وهما يربّيانه، فإنّه لم يستطع حتّى مجرّد فهم ما ينبغي أن تكون عليه مثل هذه العلاقة. ولو أنّه كان مهتّماً بمراكمة الأشياء لكان بإمكانه النّظر إليهم باعتبارهم ورثته من النّاحية المادّيّة، ولو أنّه كان بحاجة إلى أن يبرهن على جدارته لـ «آخرين» بلا أسماء، لكان أرادهم أن يتفوّقوا في صورته ومن أجله. ولو أنّه لم يكن وحيداً في الدّنيا منذ كان في الثّالثة عشرة من عمره، وعرف امرأة محتضرة فحسب كانت تشعر بأنّها مسؤولة عنه وإن كان جنسها وعمرها واهتماماتها بعيدة عنه تماماً فلربّما أحسّ بصلة مستقرّة تربطه بالأطفال. ولكن، والحال هو ما كان عليه، فإنّه أبدى ردود فعله نحوهم، وكانت ردوداً قائمة على أساس ما يحسّه في لحظة ردّ الفعل.

وهكذا فإنّه في أصيل يوم من أيّام السّبت، في الضّوء الرّبيعي الواهن، دلف إلى الدّار وقد تعتعه السُّكْر، ورأى ابنته في المطبخ.

كانت تغسل الأطباق، وقد انحنى ظهرها الصّغير على الحوض. رآها على نحوٍ غائم، ولم يستطع تحديد ما رآه أو ما أحسّه، ثمّ غدا مدركاً لشعوره بعدم الارتياح، وعقب ذلك أحسّ بعدم ارتياحه ينحلّ إلى لذّة. كان تعاقب انفعالاته هو الاشمئزاز، الذّنب، الإشفاق، ثمّ الحبّ. وكان اشمئزازه ردّ فعل لحضورها الصّغير، العاجز، العاجز، انحنى ظهرها بتلك الطّريقة، وقد مال رأسها إلى جانب وكأنّها جاثمة من جرّاء لطمة دائمة لم تخفّ حدّتها. لماذا يتعيّن عليها أن تبدو كأنّما ضربت بالسياط هكذا؟ كانت طفلة ـ لم تثقل الأعباء كاهلها ـ لماذا لم تكن سعيدة؟ كان الإعلان الواضح عن بؤسها اتّهاماً. أراد أن يكسر رقبتها ـ ولكن برفق. تصاعد الذّنب والعجز في لحن ثنائي متشائم. ما الّذي كان بمقدوره أن يفعله من أجلها ـ في أيّ يوم من الأيام؟ ما الّذي استطاع أن يمنحها إيّاه؟ ما الّذي تمكّن من قوله لها؟ ما الّذي كان يمكن أن يقوله رجل أسود بلون الفحم للظهر المنحني لابنته البالغة أحد عشر عاماً من عمرها؟ لو أنّه نظر إلى محيّاها لرأى هاتين العينين المفعمتين بالحبّ والهواجس، ولضايقه ذلك الامتلاء بالهواجس. وأمّا الحبّ فمن شأنه أن يدفعه إلى الغضب العاصف. كيف تجرؤ على أن تحبّه؟ أليس لديها عقل على الإطلاق؟ ما الّذي كان يفترض فيه أن يفعله حيال ذلك؟ يبادلها حبّاً بحبّ؟ كيف؟ ما الّذي يمكن أن تأتيه يداه الخشنتان ليدفعها إلى الابتسام؟ ما الّذي يمكن أن يكون نافعاً لها في معرفته بأمور الدّنيا والحياة؟ ما الّذي يمكن أن تنجزه ذراعاه الثّقيلتان وذهنه المخبّل بالمسكرات ليكتسب

twitter @baghdad_library

احترامه لنفسه ويسمح له بدوره بتقبّل حبّها؟ تصاعد مقته رجراجاً في معدته مهدّداً بالتحوُّل إلى قيء، ولكن قبل أن ينتقل التهوُّع من التوقُّع إلى التحقُّق مباشرة، نقلت وزنها، ووقفت على قدم واحدة، وهي تهرش ظهر ربلتها بإصبع قدمها. كانت حركة هادئة ومثيرة للإشفاق. كانت يداها تدوران، وتدوران في وعاء للقلي، وهي تحيل بقع السّواد الصّغيرة إلى ماء غسيل بارد، مثقل بالشحم. الملمح الخجول والملموم لإصبع القدم القائم بالهرش ـ كان ذلك هو ما عكفت بولين على القيام به في المرّة الأولى الّتي رآها فيها في كنتاكي. كانت منحنية على سياج تحدّق في لا شيء على وجه التّحديد. الإصبع الحليبي لقدمها الحافية، وهي تهرش ساقاً مخمليّة. كانت حركة صغيرة وبسيطة، ولكنَّها أفعمته حينذاك برقّة موغلة في الاندهاش. لا الاشتهاء المألوف لمباعدة السّاقين بساقه، وإنّما رقّة، ونزعة للحماية، رغبة في تغطية قدمها بيده وإبعاد الدّغدغة الّتي استدعت الهرش عن ربلتها بأسنانه. وقد فعل ذلك حينذاك، ودفع بولين إلى الضّحك، وها هوذا يفعل ذلك الآن.

تصاعدت الرقّة في أعماقه، فجثا على ركبتيه، وعيناه على قدم ابنته، زحف على أربع نحوها، ورفع يده وأمسك القدم في انقضاضة باتّجاه الأعلى. اختلّ توازن بيكولا، وأوشكت على أن تميل ساقطة على الأرض. رفع تشولّلي يده الأخرى إلى وركيها لإنقاذها من السّقوط، أراح رأسه وراح يخمش برفق ساقها بأسنانه. ارتجف فمه حيال العذوبة المتماسة للحم. أغمض عينيه، تاركاً أصابعه تغوص في خصرها. كان تصلّب جسمها المصدوم، وصمت حلقها الجافّ من فرط الذّهول خيراً ممّا كان ضحك بولين المسترسل. أثاره

المزيج المرتبك من ذكرياته عن بولين وإتيان شيء وحشيّ محرَّم، وانقضّت صاعقة من الرّغبة في عضوه مانحة إيّاه الانتصاب ومندِّية حلقة استه. أحاط بكلّ هذه الشّهوة سور من الكياسة، فقد أراد أن يضاجعها ـ برقّة. لكنّ الرقّة لم يستقم أمرها؛ فقد كان ضيق مهبلها أكثر ممّا أمكنه احتماله. بدا أنّ روحه تنزلق إلى أمعائه وتندفع محلِّقة إليها، واستثارت الدّفعة الهائلة الّتي أوغل عبرها فيها، عندئذٍ، الصّوت الوحيد الّذي ندّ عنها ـ استيافاً أجوف للهواء في مؤخّرة حلقها، مثلما الانسراب السّريع للهواء من بالون سيرك.

عقب انحلال ـ تداعي ـ الرّغبة الجنسيّة، أصبح واعياً بيديها المبلّلتين، المكسوّتين بالصابون على رسغيه، وقد تشنّجت الأصابع، ولكنّه لم يستطع أن يحدّد ما إذا كانت قبضتها نابعة من استماتة يائسة، ولكنّها عنيدة، للتحرّر منه، أو من انفعال آخر.

كانت إزاحة نفسه عنها مؤلمة للغاية بالنسبة إليها إلى حدّ أنّه اختصرها، وانتزع عضوه من مدخل مهبلها الجافّ. بدا أنّها قد فقدت وعيها. انتصب واقفاً، ولم يستطع إلاَّ رؤية سروالها الضّارب للون الرّمادي، وقد بدا محزناً وبائساً للغاية حول كاحليها. ومن جديد امتزج الكره بالرقّة. ولم يدعه الكره يرفعها من رقدتها، وأجبرته الرقّة على أن يغطّيها.

وهكذا فإنّ الطّفلة عندما استعادت وعيها، كانت راقدة على أرضيّة المطبخ تحت لحاف ثقيل، محاولة الرّبط بين الألم فيما بين ساقيها ووجه أمّها المطلّ عليها.

twitter @baghdad_library

أنظروااإليالكلبانهينطلقفيالنباحأتريداللعبمعجين

أتريداللعبمعجنانظرواإليلكلبوهويعدويع

كان هناك يوماً ما عجوز أحبّ الأشياء؛ فقد كان أهون اتّصال بالناس يثير فيه شعوراً واهناً ولكنّه ملحّ بالغثيان. ولم يستطع تذكّر متى بدأ هذا النّفور، كما أنّه لم يتمكّن من تذكّر ما إذا كان قد تحرّر منه يوماً. وفي يفاعته أثار هذا الاشمئزاز اضطرابه إلى حدّ بعيد، وهو اشمئزاز لم يَبْدُ أنّ الآخرين يشاركونه فيه، ولكنّه بعد أن تلقّى تعليماً راقياً عرف، ضمن أمور أخرى كلمتيْ «كاره للبشر». وقد امدّته معرفة لقبه بالارتياح والشّجاعة معاً، فقد اعتقد أنّ تسمية شرٍّ ما هي تحييد له إن لم تكن قضاءً عليه، ثمّ إنّه قرأ كذلك كثيراً من الكتب وعرف كثيراً من الكارهين الكبار للبشر في كلّ العصور، وكانت صحبتهم الرّوحيّة تهدّئ من روعه وتمدّه بمقاييس معياريّة لقياس نزعاته، وميوله وصنوف كراهيّته. وفضلاً عن ذلك فقد وجد كره البشر وسيلة ممتازة لتنمية شخصيّته، فعندما كان يقهر اشمئزازه ويلمس بين الحين والآخر أحدهم أو يساعده أو يعزّيه أو يصادقه، فإنّه كان قادراً على النّظر إلى سلوكه باعتباره سلوكاً كريماً، ومقاصده بحسبانها نبيلة. وعندما كان يشعر بالغضب العارم من جرّاء جهد بشري، أو قصور بشري، فإنّه كان بوسعه اعتبار نفسه مميِّزاً بين الأمور، ومدقِّقاً، ومليئاً بالوساوس.

وكما في حالة الكثير من كارهي البشر فإنّ نفوره من النّاس أفضى به إلى مهنة قصد بها خدمتهم. فقد انغمس في نوعيّة من العمل تعتمد بشكل حصري على قدرته على اكتساب ثقة الآخرين، وتمسّ الحاجة معها إلى أكثر العلاقات قرباً وحميميّة. وبعد أن داعبته فكرة العمل كقسّ في إطار الكنيسة الإنجليكانيّة تخلّى عنها ليصبح باحثاً اجتماعيّاً، غير أنّ الزّمن وسوء الطّالع تآمرا عليه، وفي نهاية المطاف استقرّ في مهنة جلبت له الحرّيّة والشّعور بالرضا. «قارئ ومستشار ومفسِّر أحلام». كانت مهنة مناسبة له تماماً. كان وقته ملكه، والمنافسة محدودة، والعملاء مقتنعون بما يقوم به بالفعل، وبالتالي فإنّه يسهل التّعامل معهم، وأتيحت له فرص عديدة ليقف شاهداً على جمق البشر دون أن يشارك فيه، أو يُستدرَج إليه، وليغذّي صلابته بالنظر إلى التحلّل العضوي. وعلى الرغم من أنّ دخله كان صغيراً، فإنّه لم يكن ممّن يتذوّقون الرّفاهية ـ وقد قوّت تجربته في الدّير نزوعه الطّبيعي إلى التقشّف، بينما طوّرت إيثاره للعزلة. كانت العزوبيّة مرفأ أمان، والصّمت مِجَنّاً.

كان مولعاً طوال حياته بالأشياء، لا باحتياز الثّروة أو الأشياء الجميلة، وإنّما حبّ حقيقي للأشياء البالية: دلّة قهوة كانت لأمّه، حصيرة لجلوس الضّيوف كانت تحتلّ مكانها في مدخل الدّار الّتي كان يستأجر فيها مسكناً ذات يوم، لحاف من مزاد لجيش الخلاص. بدا الأمر كما لو أنّ نفوره من الاحتكاك بالبشر قد حوّل ذاته إلى توق للأشياء الّتي لمسها البشر. كان أثر الرّوح الإنسانيّة المرتسم على أشياء ثابتة هو كلّ ما استطاع احتماله من البشريّة، على سبيل المثال تأمّل أثر خطى النّاس على الحصير ـ اشتمام رائحة اللّحاف،

twitter @baghdad_library

والانغماس في اليقين العذب من أنّ كثيراً من الأجسام قد تعرّقت، ورقدت، وحلمت، وتضاجعت، ومرضت، بل وماتت تحته. وحيثما مضى كان يصحب معه أشياءه، وكان على الدّوام يبحث عن غيرها. وأفضى به هذا الظّمأ إلى الأشياء البالية إلى عمليّات فحص عابرة ولكنَّها معتادة لبراميل النّفاية في الأزقّة وسلال المهملات في الأماكن العامّة.

وبالإجمال فقد كانت شخصيّته عربسة: متداخلة، متعادلة، متوازنة، ومحكمة البناء ـ عدا عيب واحد. فقد كان التّصميم المعتنى به تشوبه بين الحين والآخر نوبات شوق جنسي عارم.

كان يمكن أن يكون شاذّاً جنسيّاً من النّوع الفعّال، ولكنّه افتقر إلى شجاعة إتيان ذلك، ولم تخطر له مضاجعة الحيوان على بال، ولم يكن هناك مجال للواط، ذلك أنّه لم يعايش حالات انتصاب تدوم طويلاً في تماسكها، ولم يستطع تحمّل فكرة انتصاب شخص آخر عليه. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الشيء الوحيد الّذي أثار اشمئزازه أكثر من ولوج امرأة وملاطفتها هو ملاطفة رجل أو التعرّض لملاطفة من جانب رجل. وعلى أيّ حال فإنّ حالات الشّوق الجنسي الّتي انتابته لم تكن على الرّغم من حدّتها تجعل الاتّصال العضوي شيئاً محلّ ابتهاج؛ فقد استفظع ركوب اللّحم للحم. وكانت رائحة الجسم ورائحة النَّفَس ممّا يأخذ بخناقه. وقد أثار انزعاجَه مشهدُ الغماض في ركن العين أو السنّ المنخورة أو السّاقطة، وشمع الأذن، والرّؤوس السّوداء، والشّامات، والبثرات، وتقشّرات الجلد، وكلّ الفضلات وألوان الحماية الّتي كان الجسم كفيلاً بإفرازها. ومن هنا فقد استقرّت اهتماماته تدريجيّاً على أولئك البشر الّذين كانت أجسامهم

أقلّ إثارة للإزعاج ـ الأطفال. وإذ كان أكثر تشتّتاً من أن يواجه الجنسيّة المثليّة، ولما كان الصّبية الصّغار وقِحين ومليئين بالخدوش والنّدوب، وعلى قسط كبير من العناد، فقد قصر اهتماماته على الفتيات الصّغيرات، إذ كان من اليسير عادةً تدبّر أمرهنّ، وكنّ في الغالب جذّابات، إلى حدّ الإغواء. وكان نشاطه الجنسي أبعد ما يكون عن الغلمة، وفاضت رعايته للفتيات الصّغيرات بالبراءة، وارتبطت في ذهنه بالنظافة. كان مَنْ يمكن أن يصفه المرء بأنّه رجل عجوز شديدَ النّظافة.

كان من هنود جزر الهند الغربيّة ذوي العيون البنّيّة كالقرفة والبشرة البنّيّة الفاتحة.

وعلى الرّغم من أنّ اسمه كان مطبوعاً على لافتة في نافذة مطبخه وبطاقات عمله، فإنّ أبناء البلدة كانوا يدعونه «سوبهيد تشيرش» وما من أحد يدري من أين جاء الجزء المتعلّق بـ «تشيرش» أو الكنيسة ـ وربّما كان عائداً لتذكّر أحدهم لأيّامه كواعظ زائر ـ أولئك الآباء الّذين يتمّ استدعاؤهم ولكنّهم ليست لهم رعيّة أو أبرشيّة، وكانوا يزورون بصورة دائبة الكنائس الأخرى، فيجلسون على المذبح مع القسّ المستضاف. ولكن الجميع كان يعلم ما الّذي يعنيه «سوبهيد» فقد قصد به الشّعر الجعد المشدود الّذي اكتسب بريقاً وتموّجاً واحتفظ بهما لدى دهنه برغوة الصّابون، وهو نوع من العمليّات البدائيّة.

نشأ في عائلة تباهي بإنجازاتها الأكاديميّة ودمها الخلاسي ـ وفي حقيقة الأمر فقد كانوا يعتقدون أنّ الجزء الأوّل قائم على أساس الجزء الثّاني. وقد أدخل سير وايتكوم، وهو نبيل إنجليزي متحلّل،

twitter @baghdad_library

اختار أن يقضي أواخر أيّامه تحت شمس أكثر استرخاء من شمس انجلترا ـ أدخل الفرع الأبيض إلى شجرة العائلة في أوائل القرن التّاسع عشر. ونظراً لكونه رجلاً نبيلاً بأمر من الملك، فقد فعل الشيء الحضاري بالنسبة لابنه الخلاسي غير الشّرعي ـ إمداده بثلاثمائة جنيه استرليني الأمر الّذي أثار اغتباط الأم الّتي أنجبت الابن غير الشّرعي، والّتي شعرت بأنّ القدر قد ابتسم لها. وشعر الابن غير الشرعي بالامتنان كذلك، واعتبر أنّ هدف حياته هو زيادة نسل هذا الفرع الأبيض، فمنح خدماته في هذا المجال لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها تنحدر من أبوين على الشّاكلة ذاتها. وقد تعلّمت، باعتبارها تقليداً فيكتوريّاً جيّداً، من زوجها كلّ ما هو جدير بالتعلّم ـ أن تفصل نفسها جسماً وعقلاً وروحاً عن كلّ ما يوحي بإفريقيا، وأن تراعي العادات والأذواق والتّفصيلات الّتي كان يمكن أن يوافق عليها حموها الغائب وحماتها الحمقاء.

وقد نقلا هذا الولع بكلّ ما هو إنجليزي إلى ستّة أطفال وستّة عشر حفيداً، وباستثناء متمرّد عَرَضيّ، لا يمكن أن يقام له وزن، تزوّج من امرأة سوداء حرون، فإنّهم تزوّجوا، صاعدين في مدارج إضفاء لون أكثر بياضاً على بشرة العائلة، وجَعْلِ ملامحها أقلّ غِلَظاً.

وبالثقة المتولّدة عن الامتناع بالتفوّق برزوا في دراستهم بالمدارس؛ فقد كانوا مجتهدين ومنظَّمين وعلى جانب كبير من النّشاط يعلّقون الآمال على أن يثبتوا، بما يتجاوز أيّ شكّ، صحّة افتراض دي جوبينو أنّ: «كلّ الحضارات مستمدَّة من العرق الأبيض، وأنّه ما من حضارة يمكن أن توجد بدون مساعدته، وأنّ المجتمع لا يكون عظيماً وذكيّاً إلاّ بقدر ما يحافظ على دم الجماعة النّبيلة الّتي

أبدعته». وهكذا فنادراً ما تجاهلهم المدرّسون الّذين يوصون بالطلاّب الواعدين لإتاحة المجال أمامهم للدراسة في الخارج. وقد درس الرّجال الطّب والقانون واللاّهوت، وبرزوا على نحو متكرِّر في المناصب الحكوميّة الّتي لا سلطة لشاغليها، والمتاحة للسكّان المحلّيّين. وأمّا كونهم فاسدين في الممارسة العامّة والخاصّة وفاسقين وداعرين فقد اعتبر حقّاً من حقوق نبالتهم، وهو أمر استمتع به إلى أبعد حدّ معظم من هم أقلّ موهبة من السكّان.

مع مرور الأيّام، وبسبب إهمال بعض الإخوة وايتكوم، أصبح من المتعذّر الحفاظُ على بياضهم، وتزاوج بعض الأقارب البعيدين وغير البعيدين تماماً فيما بينهم. ولم تُرْصَد تأثيرات سيّئة كنتيجة لهذه الزّيجات الّتي ينقصها التّوفيق، ولكن وجود خادمة عجوز أو اثنتين، أو بستاني، أشار إلى ضعف في القدرات واستعداد للاتِّجاه إلى غرابة الأطوار في حالة بعض الأطفال، ورصدت عند بعضهم عيوب خارج النّطاق المعتاد، إدمان الكحول والفسق. غير أنّهم ردّوا العيب إلى الزّواج فيما بين أبناء العائلة الواحدة، لا إلى جينات اللّورد المتحلّل الأصليّة. وعلى أيّ حال فقد كانت هناك رميات من غير رامٍ. ومن المؤكّد أنّها لم تكن أكثر ممّا هو موجود في أيّ عائلة أخرى، ولكنَّها أكثر جدّيّة لأنّها أكثر قوّة. وكان من بين من يشكِّلون هذه الحالات أحد المتعصّبين دينيّاً، وقد أسّس نِحْلة سرّيّة، وأنجب أربعة أبناء أصبح أحدهم مدرِّساً معروفاً بتحرّيه العدل وبكبح جماح عُنْفه. وتزوّج هذا المدرّس من فتاة عذبة، كسول، نصف صينيّة، كان إعياء إنجاب ابن بالنسبة إليها أكثر ممّا تطيق، وقد ماتت بعد وقت قصير من الولادة. وأتاح ابنها الّذي دُعي إلياهو ميكا وايتكوم للمدرِّس

twitter @baghdad_library

فرصة مناسبة لتطبيق نظريّاته في التربية والانضباط والحياة الخيّرة. وتعلّم إلياهو الصّغير كلّ ما يحتاج إلى معرفته جيّداً، وبصفة خاصّة الفنّ الرّفيع المتمثّل في خداع النّفس. وقد قرأ بنهم، ولكنّه اختار ما فهمه، منتقياً نثار أفكار الآخرين الّذي يؤيّد فيهم الميل الّذي يتبنّاه في لحظة القيام بذلك. وهكذا فقد اختار أن يتذكّر هجاء هاملت لأوفيليا، ولم يتذكّر حبّ المسيح لمريم المجدليّة. تذكّر سياسة هاملت المتقلّبة، ولكنّه لم يتذكّر فوضويّة المسيح الجادّة. ورصد المقاطع اللاّذعة عند جيبون، ولكنّه لم يرصد تسامحه، ورصد حبّ عطيل لديدمونة الجميلة، ولم يرصد حبّ إياجو المرتكس لعطيل. وكانت الأعمال الّتي يعجب بها أكثر من غيرها هي أعمال دانتي، والأعمال الّتي يزدريها أكثر من غيرها هي أعمال دستويفسكي. وعلى الرّغم من كلّ احتكاكه بأفضل عقول العالم الغربي فلم يسمح إلاّ بأضيق التّفسيرات بأن تمسّه. وقد ردّ على عنف أبيه المكبوح بتطوير عادات قاسية وخيال ليّن العريكة. ومقت لأيّ إشارة للفوضى أو التحلّل، وكذلك افتتان بهما.

غير أنّه في السّابعة عشرة من عمره التقى ببياتريس حياته، وكانت تكبره بثلاث سنوات، وهي فتاة جميلة، ضحوك، ضخمة السّاقين، كانت تعمل كاتبة في متجر صيني. كانت تدعى ڤيلما. كان حبّها للحياة وحماسها لها من القوّة بحيث أنّها لم تستبعد إلياهو النّاحل الواهن منها. وقد وجدت صلابته وافتقاره الكامل للمرح شيئاً مؤثّراً، وتاقت إلى أن تعرّفه بفكرة البهجة. وقد قاوم هذا التّعريف، ولكنّها تزوّجته على أيّ حال، لا لشيء إلاّ لتكتشف أنّه يعاني من حالة من الانقباضيّة لا شفاء منها، ويستمتع بهذه الحالة. وعندما علمت بعد

شهرين من الزّواج بمدى أهمّية حالة الانقباضيّة بالنسبة إليه، وأنّه مهتمّ بتحويل فرحتها إلى المزيد من الكآبة الأكاديميّة، وأنّه يقرن المضاجعة بتناول القربان المقدّس والكأس المقدّسة، هجرته. فهي لم تعش على شاطئ البحر كلّ هاتيك السّنوات، ولم تصغِ إلى أغنيات عمّال الأرصفة كلّ ذلك الوقت لتنفق حياتها في كهف عقل إلياهو الخالي من أيّ صوت.

لم يتغلّب قطّ على هجرانها إيّاه؛ فقد كان يمكن أن تكون الردّ على سؤاله غير المطروح وغير المعترف به ـ أين تتصدّى الحياة للعدم المتربّص بها؟ كان يمكن لقيلما أن تنقذه من العدم الّذي تعلّمه على الجانب المسطّح من حزام أبيه. ولكنّه قاومها بحذق بالغ إلى حدّ أنّها في نهاية المطاف دُفعت إلى الهرب من الضّجر الحتميّ الّذي تُحْدِثه مثل هذه الحياة العسيرة الإرضاء.

جاء إنقاذ الشّاب إلياهو من تحطُّم جليّ على يد أبيه الرّاسخة الّتي ذكّرته بسمعة العائلة وبسمعة عائلة قيلما الّذي تدور حولها التساؤلات، وعندئذٍ واصل دراساته بقوّة تفوق ما كانت عليه من قبل، وقرّر في النهاية الالتحاق بعمل في إحدى الوزارات، وعندما قيل له إنّه لا توجد له وظيفة، ترك الجزيرة، وجاء إلى أمريكا لدراسة ميدان علم النّفس الّذي كان في ذلك الحين في مرحلة التبرعم. ولكن هذا الموضوع كان يقتضي الكثير من الصّدق والكثير من المواجهات، ويُقدّم دعماً شديد الضّآلة لذات متداعية، وانتقل إلى علم الاجتماع ثمّ إلى العلاج الطّبيعي. وقد استمرّت هذه الدّراسة المنوَّعة ستّ سنوات، وعندما رفض أبوه الاستمرار في الإنفاق عليه إلى أن «يجد» ذاته، وإذ لم يدرِ إلى أيّ اتّجاه يتطلّع، فقد وقع كلّ

twitter @baghdad_library

شيء على كاهله و«وجد» نفسه عاجزاً تماماً عن اكتساب المال، وبدأ يغوص إلى حالة مهترئة من ضيق ذات اليد تتخلّلها أعمال محدودة ممّا يتاح للمتعلّمين من السّود بغضّ النّظر عن عراقة أحوالهم في أمريكا: موظّف استقبال في فندق للملوّنين في شيكاغو، مندوب شركة تأمين، بائع متجوّل لحساب شركة أدوات تجميل تقدّم إنتاجها لتلبية احتياجات السّود. واستقرّ في نهاية المطاف في لورين بولاية أوهايو في ١٩٣٩، وجمّد نفسه بالتحوّل إلى قسّ، وأوقع الرّهبة في النّفوس بالطريقة الّتي يتحدّث بها اللّغة الإنجليزيّة. واكتشفت نسوة البلدة في وقت مبكّر عزوبيّته، وإذ عجزن عن فهم رفضه لهنّ، استنتجن أنّه فائق للطبيعة بأكثر ممّا هو غير طبيعيّ.

وما إن فهم ما استنتجنه حتّى سارع بالحَذْو حَذْوهنّ متقبّلاً اللّقب الّذي أُطلق عليه (سوبهيد تشيرش) والدّور الّذي أسندنه إليه، واستأجر نوعاً من الشّقق الواقعة في خلفيّة بناء من سيّدة عجوز شديدة التديّن تدعى بيرتا رييز. كانت نظيفة وهادئة وشديدة القرب من الصّمم التامّ. كان السّكن مثاليّاً من كلّ الوجوه ما عدا وجهاً واحداً؛ فقد كان لدى بيرتا رييز كلب عجوز، يُدعى بوب، لم يكن نظيفاً، على الرّغم من أنّه أصمّ وهادئ كصاحبته. وكان يقضي معظم أيّامه على الرّواق الخلفي الّذي كان مدخل مسكن إلياهو. وقد طال به العمر بحيث لم تكن له أيّ جدوى، ولم تحظ بيرتا رييز بالقوّة ولا بحضور الذّهن الكافيين لرعايته بشكل مناسب. كانت تطعمه، وتسقيه، وتدعه وشأنه. كان أجرب، يسيل من عينيه الكليلتين قذى يجمع بين لون البحر واللّون الأخضر، كان الذّباب يلتفّ حوله ويتناهشه. وكان سوبهيد يحسّ بالاشمئزاز من بوب، ويتمنى لو أنّه

تعجّل الأمر ومات مسرعاً. وقد نظر إلى أمنية موت الكلب هذه على أنّها أمنية إنسانيّة، إذ حدَّث نفسه بأنّه ليس بمقدوره أن يتحمّل أيّ شيء خلال تعرّضه للمعاناة والعذاب. ولم يخطر بباله أنّه في حقيقة الأمر معنيّ بمعاناته الشّخصيّة، لأنّ الكلب تأقلم مع هشاشته وتقدُّمه في العمر. وعزم سوبهيد في نهاية المطاف على أن يضع حدّاً لبؤس هذا الحيوان، وابتاع بعض السمّ للقيام بهذه المهمّة عن طريقه، ولم يمنعه إلاَّ استفظاع الدّنوّ منه من إكمال مهمّته. وراح ينتظر أن يقضي الطّاعون أو التّصريف المصحوب بالعمى عليه.

وإذ عاش هنالك وسط مقتنياته البالية، مستيقظاً في وقت مبكّر كلّ صباح من نوم خالٍ من الأحلام، فقد عكف على تقديم العلاج لمن ينشدونه لديه.

كان الفزع مهنته، فالناس يأتونه فزعين، ويهمسون في فزع، ويبكون ويتوسّلون في فزع، وكان الفزع هو ما يعالجه.

وحيدين كانوا يشقّون طريقهم إلى بابه، وقد التفّ كلّ منهم في رداء خِيط بالغضب، الحنين، الكبرياء، الانتقام، الوحدة، البؤس، الهزيمة، الجوع. كانوا يطلبون أبسط الأمور: الحبّ، الصّحّة، المال. اجعلْه يحبّني! خبّرني ما الّذي يعنيه هذا الحلم! ساعدني في التخلّص من هذه المرأة! اجعل أمّي تعيد إليّ ملابسي! أوقف يدي اليسرى عن الارتجاف! أبعد شبح وليدي عن الفرن! خلّصني من ورطة هذا الموضوع أو ذاك! وقد تصدّى لكلّ هذه الطّلبات. وكان علاجه هو القيام بما سئل ـ لا بأن يوحي إلى أحد بأنّه ربّما لم يكن الطّلب منصفاً أو أنّه خسيس أو لا أمل في تحقيقه.

ومع المصادفات، بين الفينة والأخرى، وقد غدت نادرة بصورة

twitter @baghdad_library

متزايدة، وبخاصّة بالفتيات الصّغيرات اللّواتي كان بمقدوره إقناعهنّ بأن يسرّي عنهنّ، عاش بسلام إلى حدّ بعيد، وسط مقتنياته، دونما إقرار بوجود ما يندم عليه. وقد كان يدرك، بالطبع، أنَّ هناك شيئاً منحرفاً في حياته، وفي كلّ الحيوات، ولكنّه وضع المشكلة في الموضوع الّذي تنتمي إليه، عند قدميْ خالق الحياة؛ فقد كان يعتقد أنّه بما أنَّ التحلّل والخطيئة والاختلال يشمل كلّ شيء فلابدّ أنّها تنتمي إلى طبيعة الأشياء؛ فقد وجد الشرّ لأنّ الرّب خلقه. وهو، أي الرّب، قد ارتكب خطأً شائناً ولا يغتفر في التّقدير، إذ صمّم كوناً لا يتّصف بالكمال، وقد برّر اللّاهوتيُّون وجود الفساد بأنّه سبيل من خلاله يكافح البشر ويعجم عودهم، ويحرزون الفوز، فوزالتألّق الكوني الباهر. ولكنّ هذا التألّق، تألّق دانتي، كان كامناً في التّقسيم والفصل المنتظمين لكلّ مستويات الشرّ والتحلّل. وأمَّا في العالم فإنّ الأمر ليس كذلك، فأروع النّساء جمالاً تقتعد المراحيض، وأكثرهنّ فظاعة في الشّكل، تراودهنّ أشواق نقيّة وعلويّة. الربّ لم يحسن صنعاً، وقد داخل سوبهيد الاعتقاد بأنّه هو نفسه كان يمكن أن ينجز ما هو أفضل. وكان أمراً مؤسفاً في الحقيقة أنّ الخالق لم يستشره.

كان سوبهيد عاكفاً في أواخر أصيل أحد الأيّام على تأمّل هذه الخواطر من جديد عندما سمع طرقة على بابه. وعندما فتحه رأى فتاة صغيرة، مجهولة تماماً بالنسبة إليه. كانت في حوالي الثّانية عشرة من عمرها أو نحو ذلك، يحسب اعتقاده، وبدت بعيدة عن الجاذبيّة على نحو يثير الإشفاق. وعندما سألها عمّا تريده لم تُحِرْ ردّاً، وإنّما مدّت نحوه إحدى بطاقات الدّعاية لمواهبه وخدماته: «إذا كنت غارقاً في المتاعب وأوضاع غير طبيعيّة فإنّ بمقدوري تخليصك منها.

تخليصك من الرّقى السحريّة، الحظّ السيّئ، والمؤثّرات الشّريرة. تذكّر أنّني أرواحيّ حقيقي، ومعالج نفساني، وُلِدْتُ مزوَّداً بالقوّة وسأساعدك. وفي زيارة واحدة تحصل على ما يرضيك. وخلال سنوات طويلة من العمل جمعت الكثيرين تحت مظلّة الزّواج، وحقّقت مجدّداً لقاء الكثيرين ممّن انفصلوا. إذا كنت تعيساً أو محبطاً أو شقيّاً فإنّ بوسعي مساعدتك. هل يبدو أنّ سوء الحظّ يلاحقك؟ هل تغيَّر من تحبّه؟ بمقدوري تعريفك بالسبب في ذلك، وسأحدّد لك أعداءك وأصدقاءك وما إذا كان من تحبّه مخلصاً أو مدَّعياً. إذا كنت مريضاً فإنّ بإمكاني أن أدلّك على طريق الصحّة. إنّني أحدّد موضع الأشياء المفقودة والمسروقة. تحقيق مطلبك مضمون».

طلب منها سوبهيد الدّخول.

ـ ما الّذي يمكنني القيام به من أجلك يا طفلتي!؟

وقفت هنالك، ويداها معقودتان على بطنها الّذي برز إلى الأمام قليلاً، رغم حجمها الصّغير، قالت:

ـ ربّما، ربّما، يمكنك تحقيق الأمر لي.

ـ تحقيق ماذا لك؟

ـ لم أعد أستطيع الذّهاب إلى المدرسة. وحسبت أنّك يمكنك مساعدتي.

ـ كيف يمكنني مساعدتك؟ خبّريني! لا تخافي!

ـ عيناي.

ـ ما بهما؟

ـ أريدهما زرقاوين.

قلب سوبهيد شفتيه، وترك لسانه يمسّ الغطاء الذّهبيّ لإحدى

twitter @baghdad_library

أسنانه. حدّث نفسه بأنّها أكثر الملتمسات إيغالاً في الخيال وقرباً من المنطق. هاهنا فتاة صغيرة قبيحة تسعى وراء الجمال. اكتسح أعماقه دفق من الحبّ والفهم، ولكنّه سارع بإحلال الحنق محلّه. حنق لأنّه عاجز عن مساعدتها. من بين كلّ الرّغبات الّتي جاء بها النّاس إليه ـ المال، الحبّ، الانتقام ـ بدت له هذه الرّغبة الأكثرَ إيلاماً واستحقاقاً للتلبية. فتاة سوداء صغيرة أرادت أن تنهض من عثرة سوادها، وأن ترى الدّنيا بعينين زرقاوين. ازداد حنقه وشعر به وكأنّه عنفوان. وللمرّة الأولى تمنّى صادقاً لو أنّ بمقدوره اجتراح المعجزات. لم يسبق له أن أراد من قبل قطّ أن تكون له القدرة الحقّة والمقدّسة ـ وإنّما كلّ ما أراده القدرة على جعل الآخرين يعتقدون أنّه يملك هذه القدرة. بدا له أمراً محزناً للغاية، مراوغاً تماماً أن يكون الفَنَاء وحده لا الاجتهاد، هو الّذي حال بينه وبينها.

رسم علامة الصّليب عليها بيد مرتعشة، وقد دبّ الخدر إلى لحمه. في تلك الغرفة الصّغيرة المعتمة الحارّة الّتي تضمّ المقتنات البالية، واخترقه الشّعور بالبرد.

ـ ليس بمقدوري أن أفعل لك شيئاً، يا طفلتي! فأنا لست ساحراً وإنّما عملي يتمّ من خلال الربّ، وهو يسخّرني في بعض الأحيان لمساعدة النّاس، وكلّ ما أستطيع القيام به هو أن أقدّم نفسي له باعتباري الأداة الّتي من خلالها تتمّ مشيئته، وإذا أراد تحقيق أمنيتك فسوف يحقّقها.

مضى سوبهيد إلى النّافذة، وقد أدار ظهره للفتاة، وانطلق ذهنه كأنّما في سباق، وتعثّر، وعاد إلى الانطلاق من جديد. كيف يضع الجملة التالية في إطارها؟ كيف يتشبّث بالشعور بامتلاك ناصية

القدرة. وقعت عيناه على بوب العجوز وهو راقد في الرّواق. قال:

ـ علينا التقدّم، آه، بأضحية من نوع ما، أي بعض الاتّصال بالطبيعة. ربّما يكون مخلوق بسيط هو الّذي سيتحدّث الربّ من خلاله، دعينا نتأمّل!

انحنى عند النّافذة، وحرّك شفتيه، وبعدما بدا أنّه وقت مناسب، انتصب واقفاً، ومضى إلى الثلاّجة الموجودة قرب النّافذة الأخرى، وأخرج منها لفافة صغيرة ذات غلاف من الورق الضّارب إلى اللّون الأحمر الوردي ممّا يستخدمه الجزّارون. وأخذ من فوق أحد الرّفوف زجاجة بنّيّة صغيرة ونثر بعض محتوياتها على المادّة الموجودة في الورقة، ووضع اللّفافة الّتي فتح أحد جوانبها على المائدة.

ـ خذي هذا الطّعام وأعطيه للمخلوق النّائم في الرّواق، تأكّدي من أنّه سيأكله، وارصدي الكيفيّة الّتي سيتصرّف بها، فإن لم يقع شيء فسوف تعلمين أنّ الربّ رفض طلبك. أمّا إذا تصرّف الكلب على نحو غريب فإنّ أمنيتك ستتحقّق في الغد.

التقطت الفتاة اللّفافة، جعلتها رائحة اللّحم القاتم، اللّزج، ترغب في التّقيُّؤ. وضعت يداً على بطنها.

أومأت موافقة، وابتلعت ريقها على نحوٍ ظاهر، محتجزة القيء. فتح سوبهيد الباب، فخطت متجاوزة العتبة.

ـ إلى اللّقاء. وليباركْكِ الربّ!

قالها، وسارع بإغلاق الباب. وعند النّافذة وقف يرقبها، وقد تضامّ حاجباه فيما يشبه موجات من الحنوّ، ولسانه يداعب الذّهب البالي في فكّه الأعلى. رأى الفتاة وقد انحنت على الكلب النّائم

twitter @baghdad_library

الّذي فتح لدى لمسها إيّاه عينيه السّائلتين المنطفئتين عند الأركان بما بدا أنّه يشبه غراء أخضر. مدّت يدها، ولمست رأس الكلب، ومسّدته برقّة. وضعت اللّحم على أرضيّة الرواق، قرّب أنفه. أثارته الرّائحة، فرفع رأسه، ونهض ليتشمّمها على نحو أفضل، أكل اللّحم في ثلاث أو أربع قضمات، مسّدت الفتاة رأسه مجدّداً فتطلّع إليها بعينين لدنتين مثلّثتين. سعل فجأة، سعلة رجل عجوز يملأ البلغم حلقه، ونهض على قوائمه. وثبت الفتاة. تقيّأ الكلب، وراح فمه يستاف الهواء، وتهاوى في التوّ. حاول رفع نفسه، وعجز، وحاول مجدّداً، وأوشك على السّقوط على الدّرج. تحرّك مختنقاً ومتعثّراً، كلعبة محطّمة في أرجاء الفناء. فغرت الفتاة فاها دهشة، وظهر لسانها كَبَتَلَةٍ صغيرة. أشارت بإحدى يديها إشارة وحشيّة، مجرّدة من المعنى، ثمّ غطّت فمها بيديها كلتيهما. كانت تحاول ألاّ تتقيّأ. عاد الكلب إلى السّقوط، وقد راح التشنّج يهزّ بدنه هزّاً، ثمّ همد. تراجعت الفتاة، ويداها تغطيان فمها، بضع خطوات ثمّ استدارت، وانطلقت تعدو خارجة من الفِناء وعبر الممشى.

مضى سوبهيد تشيرش إلى المائدة، جلس عاقد الذّراعين، موازناً جبينه على طرفيْ إبهاميه، ثمّ انبعث واقفاً، ومضى إلى مائدة صغيرة لها جارور إلى جوار الفراش، التقط منها ورقة وقلم حبر. كانت زجاجة حبر على الرفّ ذاته الّذي اعتلاه السمّ. جلس إلى المائدة وقد وضع عليها هذه الأشياء. على مهل وبعناية، ومبتهجاً بتملّكه ناصية الإبداع في الكتابة سطّر الرّسالة التالية:

إلى: من أضفى بجلال النّبل على الطّبيعة البشرية بخلقها

الربّ العزيز

الهدف من هذه الرّسالة هو إطلاعك على الحقائق الّتي إمَّا أنّك لم تلحظها أو أنّك شئت تجاهلها.

في وقت من الأوقات أقمت في اليفاعة وصدر العمر على إحدى جزرك، وهي جزيرة من جزر الأرخبيل ـ في جنوبي الأطلسي بين أمريكا الشّماليّة وأمريكا الجنوبيّة ـ الّذي يطوِّق البحر الكاريبي وخليج المكسيك، والمقسَّم إلى جزر الأنتيل الصّغرى وجزر الأنتيل الكبرى وجزر البهاما، ليست من المستعمرات الجزريّة الواقعة باتِّجاه مهبّ الرّيح، ولكنَّها، بالطبع، في إطار جزيرتي الأنتيل الكبريين (بينما قد تكون كتابتي في بعض الأحيان مبالغة في التدقيق فإنّه من الضروري أن أعرّف نفسي لك بدقّة).

الآن.

إنّنا في هذه المستعمرة نعتبر أنّ أكثر خصائص سيّدنا الأبيض وضوحاً وتأثيراً، وهي بالطبع أسوأ الخصائص، هي خصائصنا الذّاتيّة. وفي غمرة تمسُّكنا بهويّة عرقنا فإنّنا تمسَّكنا أشدّ ما يكون التمسُّك بتلك الخصائص الأعظم إرضاءً في الحفاظ عليها والأقلّ إثارة للمتاعب في الإبقاء عليها، وبناء على هذا فإنّنا لم نكن ملكيّين، وإنّما نفّاجين، لسنا أرستقراطيّين وإنّما واعين بالوضع الطّبقي، وآمنّا بأنّ السّلطة هي القسوة على من هم أدنى منّا، وأنّ الثّقافة هي التردّد على المدرسة. وحسبنا العنف عاطفة والفسوق تسلية، وظننّا أنّ التسيّب حرِّيّة. وربّينا أطفالنا، وزرعنا محاصيلنا، وتركنا الصّغار يكبرون، والفقر يتنامى. وقسنا الرّجولة بالمقتنيات، وأنوثتنا بالإذعان، واستفظعنا عبق فاكهتك وعمل أيّامك.

صباح هذا اليوم، وقبل مجيء الفتاة الصغيرة السّوداء بكيت من

twitter @baghdad_library

أجل ڤيلما. أوه، لم أبكِ بصوت عالٍ. فليست هناك ريح يمكنها أن تحمل أو تتحمّل، أو حتّى ترفض أن تتحمّل صوتاً مثقلاً بالأسى على مثل هذا النّحو. ولكنّني بكيت بطريقتي الصّامتة المفعمة بالوحدة، من أجل ڤيلما. ويتعيّن عليك أن تُلِمَّ بأمر ڤيلما، لكي تتفهّم ما فعلته اليوم.

لقد هجرتني (ڤيلما) على نحو ما يغادر النّاس حجرة في فندق. والفندق مكان تنزل به عندما تفعل شيئاً آخر. وهو في حدّ ذاته ليس ممّا له أهميّة بالنسبة لمخطّط المرء الكبير. الغرفة في فندق هي شيء ملائم، ولكن ملاءمتها مقصورة على الوقت الّذي تحتاجها خلاله بينما أنت في هذه المدينة بعينها لقضاء هذا العمل بذاته، وتأمل في أن تكون مريحة، ولكنّك بالأحرى تفضّل أن تكون غير ذي شخصيّة مميّزة، فهي في نهاية المطاف ليست المكان الّذي «تحيا» فيه.

عندما لا تعود لك بها حاجة فإنّك تدفع مقابلاً لاستخدامها، وتقول: «شكراً لك، يا سيّدي» وعندما ينتهي عملك في تلك البلدة فإنّك ترحل عن تلك الغرفة. هل يأسف أحد على مغادرة غرفة في فندق؟ يمكنك أن تحبّ أو تزدري «الحياة» الّتي عشتها في تلك الغرفة فحسب. ولكن الغرفة نفسها؟ لكنّك قد تأخذ هدية تذكاريّة، لا لتتذكّر، أوه، لا لتتذكّر الغرفة، وإنّما بالأحرى لتتذكّر زمان العمل الّذي قمت به، مغامرتك، ومكانهما. ما الّذي يمكن أن يشعر به أيّ إنسان حيال غرفة في فندق؟ إنّ المرء لا يحسّ نحو غرفة في فندق بأكثر ممّا يتوقّع أن تحسّ به هذه الغرفة نحو شاغلها.

تلك، أيّها الأبّ السّماوي، السّماوي، كانت الكيفيّة الّتي هجرتني بها، أو بالأخرى هي لم تهجرني قطّ؛ لأنّها لم تكن هناك أبداً.

لعلّك تذكر ممّ جُبلنا وعلى أيّ شاكلة؟ دعني أحدّثك الآن عن نهود الفتيات الصّغيرات. إنّني أعتذر عن عدم ملاءمة (أهذه هي الكلمات المناسبة؟) واختلال مضاجعتهنَّ في أوقات غير مناسبة من النّهار وفي أماكن غير مناسبة وغياب الذّوق في مضاجعة اللّواتي ينتمين إلى عائلتي. ترى هل يتعيّن عليّ الاعتذار عن مضاجعة الغريبات؟

ولكنَّك متورّط هاهنا بدورك، أيّها الربّ. كيف ولِمَ سمحتَ لذلك بأن يقع؟ كيف تأتّى أن يكون بمقدوري أن أرفع عينيَّ عن تأمّل جسمك وأسقط بعمق في تأمّل أجسامهنّ؟ يا لتلك البراعم! يا لتلك البراعم على بعض هاتيك الشجيرات! كنَّ وضيعات، كما تعلم، وضيعات، وبضّات، براعم وضيعة صغيرة تقاوم التجمّش، وتتقافز كالمطّاط، ولكنّها عدوانيّة، تتحدّاني أن أمسّها، وتأمرني بأن أمسّها، دون أن يخالجها أدنى خجل، كما لعلّك خمّنت. يلتصقن بي، أوه، نعم، بي. يا لتلك الحبيبات الصغيرات النّاهدات البارزات الحلمات كالإصبع. هل رأيتهنَّ أبداً أيّها الربّ؟! أقصد هل رأيتهنَّ بصورة حقيقيّة؟ كان بمقدور المرء ألاَّ يراهنّ وألاَّ يحبّهنّ. ولابدّ أنّك أنت، يا من خلقتهنّ، قد حسبتهنّ جميلات حتّى كفكرة ـ كم هو أكثر إيغالاً في الجمال تجلّي تلك الفكرة! لم يكن بمقدوري، كما لعلّك تذكر، أن أبعد عنهن يديَّ وفمي. حامض حلو. مثل ثمار الفراولة الّتي لم تنضج تمام النّضج، مكسوّة بالعرق المالح قليلاً والنّاجم عن أيّام من العَدْوِ وساعات من التّقافز والمراوغة والتّواثب.

لم يكن عشقهنّ ـ لمسهنّ، تذوّقهنّ، تحسّسهنّ ـ مجرّد خطيئة يسيرة، مترفة، وإنّما كنّ هنَّ أنفسهنَّ تلك الخطيئة بالنسبة إليّ. شيئاً

twitter @baghdad_library

يؤتى كبديل، كبديل عن أبي، كبديل عن الملابس، كبديل عن ڤيلما، وقد «اخترت» ألاَّ أستغني عنهنّ. ولكنَّني لم أتردّد على الكنيسة، على الأقلّ لم أفعل ذلك. وفيما يتعلّق بما فعلته؟ لقد حدّثت النّاس بأنّني أعرف كلّ شيء عنك، وأنّني قد وهبت قدراتك. لم تكن «كذبة» كاملة، ولكنّها كانت كذبة «كاملة». وأقرّ بأنّني كان ينبغي عليّ ألاَّ أقترفها أبداً. كان ينبغي ألاَّ آخذ مالهم لقاء أكاذيب أحسنت صياغتها، وأجيد توجيهها، وأحسن زخرفتها. ولكنَّني، وينبغي أن تلاحظ هذا، كرهت اقتراف ذلك، ولم أحبّ للحظة واحدة الأكاذيب ولا المال.

ولكن ضع في الاعتبار: المرأة الّتي غادرت غرفة الفندق!

ضع في الاعتبار: وقت الإيقاع، وقت الظهيرة في الأرخبيل!

ضع في الاعتبار: عيونهنَّ المترعة بالأمل الّتي لم تفقها إلاَّ نهودهنَّ المتقافزة!

ضع في الاعتبار: كيف أنّني كنت بحاجة إلى شرّ مريح لمنعي من معرفة ما كان يتعذّر عليّ أن أطيق معرفته!

ضع في الاعتبار: كيف أنّني كرهت المال وازدريته!

والآن، ضع في الاعتبار: ليس وفقاً لاستحقاقاتي العادلة، وإنّما وفقاً لرحمتي، هذه الفتاة السّوداء الصّغيرة الّتي أقبلت إليّ اليوم بسذاجتها. خبّرني، أيّها الربّ، كيف أمكنك أن تدع بنتاً صغيرة وجيّدة كلّ هذا الوقت الطّويل إلى حدّ أنّه كان بمقدورها أن تشقّ طريقها إليّ؟ كيف أمكنك ذلك؟ إنّني أبكي رثاء لك أيّها الربّ! ولأنّني أبكي رثاء لك كان عليّ أن أقوم بعملك من أجلك.

أتعلم لِمَ جاءت؟ جاءت من أجل عينين زرقاوين. عينان زرقاوان

جديدتان، حسبما قالت. كأنّها تشتري حذاء. «أريد زوجاً من العيون الزّرق الجديدة». لابدّ أنّها طلبتهما منك وقتاً طويلاً، ولم تستجب. (كان بمقدوري أن أقول لها إنّها عادة، عادة قديمة قطعتها من أجل أيوب ـ لكنَّك لن تقطعها مرّة أخرى) جاءت «إليّ» تطلبهما. كانت لديها إحدى بطاقاتي (في طيّه بطاقة). وبالمناسبة فقد أضفت اسم ميكا، ولكنَّني أُدعى سوبهيد تشيرش. وليس بمقدوري أن أتذكّر على أيّ نحو ولا السّبب في حصولي على هذا اللّقب. ما الّذي يجعل اسماً ما أكثر دلالة على الشّخص من غيره؟ وهل الاسم هو الشيء الحقيقي إذن؟ وهل الشّخص هو ما يشير إليه اسمه فحسب؟ أهذا هو السرّ في أنّك رددت أكثر الأسئلة بساطة ومودة، وقد طرحه عليك موسى «ما اسمك؟»، بالامتناع عن الإجابة وقولك بدلاً منها «أنا مَنْ أنا» مثلما يقول بوباي البحّار؟ أنا مَنْ أنا؟ هل كنت خائفاً من الإفصاح عن اسمك؟ هل كنت خائفاً من أنّهم سيعرفون اسمك ومن ثَمّ سيعرفونك؟ ثمّ لن يخشوك؟ لابأس. لا تَضِقْ بالأمر ذرعاً! فلست أقصد إساءة، وإنّما أتفهّم الأمر. فقد كنتُ إنساناً سيّئاً بدوري، وتعساً كذلك، ولكنّني في يوم من الأيّام سأموت. لقد كنتُ على الدّوام طيّباً للغاية، فلم يتعيّن عليّ أن أموت؟ الفتيات الصّغيرات. الفتيات الصّغيرات هنَّ الأمر الوحيد الّذي سأفتقده. أتعلّم أنّني كنت عندما أخمش نهودهنَّ الصّغيرة وأعضّها ـ قليلاً فحسب ـ أحسّ أنّني مخلوق ودود؟ لم أرد تقبيل أفواههنَّ أو مضاجعتهنَّ أو اتّخاذ طفلة عروساً لي. أحسست بأنّني عابث وودود. وليس كما قالت الصّحف، وليس كما تهامس النّاس، وهنّ لم يكترثن على الإطلاق. على الإطلاق. أتذكّر كيف أنّ الكثيرات قد عدن مرّة أخرى؟ لم يحاول أحد مجرّد تفهّم ذلك. ولو أنّني كنت ألحق بهنَّ الأذى فهل

twitter @baghdad_library

كنّ يَعُدْنَ إليّ مرّة أخرى. عادت اثنتان منهما معاً، هما دورين وشوجر بيبي. منحتهما النّعناع والنّقود. كانتا تلتهمان الآيس كريم وقد فرجتا سيقانهما بينما أنا أعبث معهما. كان الأمر كما لو كنّا نقيم حفلاً. ولم تكن هناك خسّة، ولم تكن هناك قذارة، ولم تكن هناك أيّ رائحة نفّاذة، ولم يكن هناك أنين ـ مجرّد ضحك خفيف أبيض صادر عن الفتاتين وعنّي. ولم تكن هناك أيّ نظرة، أيّ نظرة طويلة غريبة، أيّ نظرة طويلة غريبة من نظرات ڤيلما فيما بعد. ما من نظرة تجعلك تشعر بالقذارة فيما بعد، نظرة تجعلك ترغب في أن تلقى حتفك. كلّ شيء مع الفتيات الصّغيرات نظيف وجيّد وودود.

عليك أن تتفهّم ذلك، أيّها الربّ! لقد قلت: «لا ترغموا الصّغار على القدوم إليّ، ولا تلحقوا الأذى بهم» أنسيت؟ أنسيت أمر الأطفال؟ نعم، لقد نسيت. لقد تركتهم يمضون وقد استبدّ بهم العوز، يجلسون على قاعة الطّريق، يبكون إلى جوار أمّهاتهم الميتات. ولقد رأيتهم محترقين يعرجون، متجمّدين في مواضعهم. لقد نسيتَ، أيّها الربّ! نسيتَ كيف تكون ربّاً ومتى تكونه.

ذلك هو السّبب في أنّني غيّرت عيْنَي الفتاة السّوداء الصّغيرة من أجلها، ولم أمسّها، لم أمدّ إليها إصبعاً، ولكنّني منحتها هاتين العينين الزّرقاوين اللّتين أرادتهما، لا من أجل اللّذّة ولا من أجل المال. لقد قمت بما لم تقم به أنت، بما لم تستطع القيام به، بما لن تقوم به. تطلّعت إلى تلك الفتاة الصّغيرة السّوداء القبيحة وأحببتها. لعبتُ دوركَ. وكان عرضاً جيّداً للغاية.

لقد، لقد اجترحت معجزة. منحتها العينين، أعطيتها العينين

الزّرقاوين، الزّرقاوين، الاثنتين. زرقة الكوبالت. لمسة منها نابعة مباشرة من سمائك الزّرقاء. لن يرى أحد آخر عينيها الزّرقاوين. ولكنّها ستراهما. وستحيا سعيدة حتّى النّهاية. لقد، لقد وجدت ذلك مناسباً ومن الصّواب القيام به.

ها أنت تغار الآن. ها أنت تغار منّي.

أتفهم؟ لقد خلقت بدوري. لا بشكل بدائي مثلك، ولكن الخلق خمر مُسْكِرة، أُعِدَّت للذوّاقة لا للمخمِّر.

وهكذا فإنّني بعد أن شربت نخباً من نكتار لستُ أخافك، ولا أخاف الموت، بل ولا أخاف الحياة، ولا بأس فيما يتعلّق بڤيلما، ولا بأس فيما يتعلّق بأبي، ولا بأس فيما يتعلّق بجزر الأنتيل الصّغرى وجزر الأنتيل الكبرى، كلّ شيء على ما يرام، على ما يرام.

مع أطيب التحيّات.

ميكا إلياهو وايتكوم

طوى سوبهيد تشيرش الصّفحات ثلاثة أثلاث متساوية، ودسّها في مظروف. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن لديه خاتم، فقد تاقت نفسه إلى شمع ختم الرّسائل. أخرج صندوق سيجار من أسفل الفراش، وبحث فيه، كان فيه بعض من أثمن مقتنياته: قطعة متألّقة من اليشب سقطت من زرّ معدني في فندق شيكاغو. قرط ذهبي على شكل حرف Y مع قطعة من المرجان متّصلة بها كان لأمّه الّتي لم يُقدَّر له أن يعرفها قطّ، وأربعة مشابك شعر ضخمة تركتها ڤيلما على حافة مغسلة الحمّام، شريط في لون ذرور أزرق من رأس فتاة صغيرة، تدعى يريشوس جيول، رأس صنبور مسودّ من مغسلة في زنزانة

twitter @baghdad_library

سجن في سنسناتي، قطعتان من الرّخام عثر عليهما تحت أريكة في مورنيننج سايد بارك في يوم من أجمل أيّام الرّبيع، كُتيّب «لاكي هارت» قديم ماتزال تنبعث منه رائحة ذرور بلون الجوز والقهوة وكريم تلميع باللّيمون. شتَّتت أشياؤه انتباهَه، فنسي ما كان يبحث عنه، وكان الجهد المبذول للتذكّر أكبر من أن يبذله، وكان هناك طنين في رأسه، وغلبه دفق من الشّعور بالإعياء. أغلق صندوقه، واسترخى على الفراش، وانزلق إلى رقاد عاجيّ لم يكن بمقدوره وهو في غمرته أن يسمع صيحات سيّدة عجوز خرجت من متجر حلواها ووجدت جثّة كلب عجوز يُدعى بوب هامدة.

الصيف

twitter @baghdad_library

ما عليَّ إلاَّ أن أقضم طزاجة ثمرة فراولة حتّى يتراءى لي الصّيف بغباره وسماواته الخفيضة. وهو يظلّ بالنسبة إليّ فصلاً حافلاً بالعواصف. الأيام الظّمأى واللّيالي الدّبقة لا تتمايز في ذهني، ولكن العواصف، العواصف العنيفة المفاجئة كانت تخيفني وتفقدني الحماس معاً. لكن ذاكرتي يغيب عنها اليقين القاطع، ؛ إذ أتذكّر عاصفة صيفيّة في البلدة الّتي أقمنا بها وأتخيّل صيفاً شهدته أمّي في العام ١٩٢٩ قالت إنّه كان هناك إعصار في ذلك العام أطاح بنصف بلدة لورين، وأنا أخلط بين صيفها وصيفي. وعندما أقضم الفراولة وأفكّر في العواصف تتراءى لي أمّي. فتاة صغيرة رشيقة في ثوب أحمر ورديّ من قماش الكريب. إحدى يديها على ردفها والأخرى تتراخى حول فخذها ـ منتظرة. تقتلعها الرّيح عالياً فوق الدّور، ولكنَّها تظلّ واقفة ويدها على ردفها، وهي تبتسم. والتوقّع والوعد في يدها المتراخية لا تغيّرها المحرقة. وفي صيف ١٩٢٩ لا يكسف نورٌ يَدَ أمّي. إنَّها قويّة ومبتسمة ومسترخية، بينما العالم يتداعى من حولها. إلى هذا الحدّ تمتدّ الذّكرى، وتصبح الحقيقة العامّة واقعاً خاصّاً، وتغدو مواسم بلدة في الغرب الأوسط أسطورة حيواتنا الصّغيرة.

كان الصّيف قد ضرب أطنابه بالفعل عندما تلقّيت مع فريدا

twitter @baghdad_library

بذورنا. وقد انتظرنا منذ نيسان (إبريل) قدوم اللّفافة السحريّة الّتي تتضمّن كثيراً من أكياس البذور الّتي كان علينا أن نبيعها لقاء خمسة سنتات لكلّ كيس، الأمر الّذي كان من شأنه أن يجعل من حقّنا الحصول على درّاجة جديدة. وقد اعتقدنا بإمكانيّة حدوث ذلك، وقضينا وقتاً كبيراً من كلّ يوم نجوب أرجاء المدينة لبيعها. وعلى الرّغم من أنّ أمّي أمرتنا بأن نقتصر على بيوت معارفها أو الأحياء المألوفة لدينا، فقد طرقنا كلّ الأبواب، ودخلنا وخرجنا من كلّ دار فتحت بابها لنا: دور ذات اثنتي عشرة حجرة تضمّ ستّ أُسر وتفوح منها رائحة الشّحم والبول، دور صغيرة خشبيّة ذات أربع حجرات ملاصقة لأجمات الشّجر قرب السّكك الحديديّة، والأماكن العلوية ـ الشّقق الّتي تعلو أسواق السّمك، وحوانيت الجزّارين، ومخازن الأثاث، والحانات، والمطاعم، ودور أنيقة مبنيّة بالطوب ذات سجاجيد زهريّة، وأوعية زجاجيّة ذات حوافّ تشبه حوافّ النّاي.

خلال صيف بيع البذور ذاك كنا نفكّر في المال، وفي البذور، ونسمع دونما تركيز ما يقوله النّاس. وكان يطلب منّا في بيوت من يعرفوننا الدّخول والجلوس، ويُقدَّم لنا الماء البارد أو شراب اللّيمون، وإذ نجلس هناك وتُقدّم لنا المرطبات، فقد كان النّاس يواصلون أحاديثهم أو يواصلون القيام بمهامّهم. وشيئاً فشيئاً بدأنا نستكمل قطعة فأخرى معالم قصّة، قصّة سرّيّة، رهيبة، فظيعة. وبعد حوارين أو ثلاثة على هذه الشّاكلة تمّ الاستماع إليها خلسة وعلى نحوٍ غامض أدركنا أنّ القصّة تدور حول بيكولا ولدى وضع أطراف الحديث في موضعها الصّحيح فإنّها تمضي على هذا النّحو:

ـ هل سمعت ما يقال عن الفتاة؟
ـ ماذا؟ إنّها حامل؟
ـ نعم، ولكن خمّن من الّذي يقف وراء ذلك!؟
ـ من؟ لست أعرف كلّ أولئك الفتية الصّغار.
ـ ذلك هو الموضوع. فهو ليس فتى صغيراً. وإنّما يقولون إنّه تشولّلي.
ـ تشولّلي؟ أبوها؟
ـ أهه.
ـ يا إلّهي! الرّحمة! ذلك الزّنجي القذر.
ـ هل تذكر تلك المرّة الّتي حاول فيها إحراقهم؟ عرفت وقتذاك يقيناً أنّه مجنون.
ـ ماذا ستسوّي؟ الأمّ؟
ـ تستمرّ على حالها، حسب ظنّي، فهو قد هرب.
ـ وهل ستتركها سلطات المقاطعة تحتفظ بذلك الوليد، هل ستفعل ذلك؟
ـ لا أعرف.
ـ على أيّ حال لم يَبْدُ أنّ أحداً من عائلة بريدلوف هو في تمام عقله؛ فالفتى يهرب بعيداً في كلّ لحظة، والفتاة كانت على الدّوام حمقاء.
ـ لا أحد يعرف عنهم شيئاً على أيّ حال، من أين جاءوا أو أيّ شيء. ولم يَبْدُ أنّ لهم أقارب.
ـ ما الّذي بحسب ظنّك جعله يأتي شيئاً من ذلك القبيل؟
ـ اللّعنة عليّ لو كنت أدري. ربّما لمجرّد أنّه مخلوق كريه.

twitter @baghdad_library

ـ طيّب. ينبغي أن يطردوها من المدرسة.
ـ ينبغي عليهم ذلك، فهي تتحمّل جانباً من المسؤوليّة.
ـ أو، رويدك، إنّها ليست إلاّ طفلة في الثّانية عشرة أو نحو ذلك.
ـ نعم، ولكن المرء لا يستطيع القطع في الأمر. كيف حدث أنّها لم تقاومه؟

ـ ربّما قاومته بالفعل.
ـ نعم؟ المرء لا يمكنه أن يعرف الحقيقة على وجه القطع.

ـ طيّب. ربّما لم تُقَدَّر الحياة للوليد، فهم يقولون إنّه بالطريقة الّتي تضربها أمّها بها ستكون محظوظة لو أنّها كتبت لها الحياة.
ـ ستكون محظوظة إذا لم تكتب الحياة للوليد. فمن المحتمّ أنّه سيكون أقبح مخلوق يسير على قدمين.
ـ لا يمكن إلاّ أن يكون كذلك. فالأمر ينبغي أن يكون قانوناً: شخصان قبيحان يلتقيان على ذلك النّحو لإيجاد المزيد من القبح. الموت خير له.
ـ طيّب، لن يقلقني الأمر، فسوف تكون معجزة لو أنّه عاش.

لم يطل الأمر بدهشتنا؛ فسرعان ما فسحت الطّريق لنوع غريب من الخجل أقرب ما يكون إلى الدّفاع عن النّفس، فقد شعرنا بالحرج نيابة عنها، وبالألم من أجلها، وفي نهاية المطاف شعرنا بالأسف عليها. وطرد أسفنا كلّ الخواطر الّتي دارت حول الدرّاجة الجديدة، وأحسب أنّ أسفنا كان أشدّ احتداماً لأنّه بدا أنّه ما من أحد غيرنا يشاركنا فيه. كانوا يشعرون بالاشمئزاز، أو بطرافة الموقف، أو بالصدمة، أو بالحنق، أو حتّى بالانفعال إزاء القصّة. ولكنّنا أصخنا

السّمع انتظاراً لسماع من يقول: «يا للفتاة الصغيرة المسكينة!» أو «يا للوليد المسكين!» ولكن كان هناك هزّ للرأس فحسب حيث كان ينبغي أن تكون هذه الكلمات. وبحثنا عن عين جعّدها القلق، ولكنّنا لم نَرَ إلاَّ أقنعة.

فكّرت في الوليد الّذي يرغب الجميع في موته، ورأيته بوضوح بالغ. كان مبتلاًّ في مكان مظلم، ورأسه مكسوّ بحلقات كبيرة من الصّوف، الوجه الأسود الّذي يحتوي عينين سوداوين نظيفتين كأنّهما قطعتان من ذوات الخمسة سنتات، وأنفاً أفطس، وشفتين غليظتين، والحرير الحيّ المتنفِّس الّذي تتجسّد فيه البشرة السّوداء. لا أطراف غرّة شقراء متشابكة تتدلّى على عينين زرقاوين مرمريّتين، ولا أنفٌ ملموم، ولا فمٌ دقيقٌ كالقوس. أحسست على نحو يفوق ولعي ببيكولا بالحاجة إلى من يرغب في أن يحيا الوليد الأسود ـ لمجرّد التصدّي للحبّ الشّامل للدمى المصنوعة على شكل أطفال بيض صغار، شيرلي تمبلز ومورين بيلز. ولابدّ أنّ فريدا قد أحسّت بالشيء عينه. لم نفكّر في الحقيقة القائلة بأنّ بيكولا لم تكن متزوّجة، فالكثير من الفتيات اللّواتي لم يتزوَّجن كان لهنّ أطفال. ولم نتوقّف كثيراً عند الحقيقة القائلة بأنّ والد الطّفل هو والد بيكولا أيضاً، فعمليّة إنجاب طفل من ظهر أيّ ذكر كانت مستعصية على الفهم بالنسبة إلينا ـ إنّها على الأقل كانت تعرف أباها. لم نفكّر إلاَّ في هذا الكره الجائح للجنين الّذي لم يَرَ النّور، وتذكّرنا السيّدة بريدلوف وهي تُلقي بيكولا أرضاً، وتكفكف الدّموع الحمراء الورديّة للطفلة الدمية المتجمّدة الّتي تردّد صوتها وكأنّه صوت باب ثلاّجتنا. تذكّرنا عيون التّلاميذ المذعنة تحت النّظرات المحدّقة من عينيْ ميرنج باي

twitter @baghdad_library

وعيون هؤلاء الأطفال أنفسهم عندما كانوا ينظرون إلى بيكولا أو لعلّنا لم نتذكّر، ربّما كنّا نعرف. لقد دافعنا عن أنفسنا، منذ وعينا، ضدّ كلّ شيء وفي مواجهة الجميع، واعتبرنا كلّ حديث نظاماً سرّيّاً للتخاطب علينا أن نفضّ أسراره، وكلَّ الإيماءات موضعاً للتحليل الدّقيق، أصبحنا جموحتين، مفعمتين بالتحدّي، ومتغطرستين. لم يكترث أحدٌ بنا فاكترثنا أشدّ الاكتراث بأنفسنا. ولم تكن ضروب قصورنا معروفة لنا، على الأقلّ ليس حينذاك. وكانت عَقَبتنا الوحيدة هي حجمنا، فالنّاس يصدرون لنا الأوامر لأنّهم أكبر منّا وأقوى. وهكذا فإنّنا قرّرنا بثقة تدعمها الشّفقة والكبرياء أن نغيّر مجرى الأحداث وأن نبدّل حياة بشرية.

ـ ما الّذي سنفعله يا فريدا؟!

ـ ما الّذي يمكننا القيام به؟ لقد قالت الآنسة جونسون إنّها ستكون معجزة لو أنّ الوليد عاش.

ـ إذن دعينا نجعلها معجزة!

ـ نعم، ولكن كيف؟

ـ يمكننا أن نصلّي.

ـ ذلك لا يكفي. أتذكرين المرّة الأخيرة الّتي صلّينا فيها من أجل العصفور؟

ـ كان ذلك أمراً مختلفاً، فقد كان شبه مُحْتَضَر عندما عثرنا عليه.

ـ لا يعنيني ذلك؛ فمازلت أعتقد أنَّ علينا أن نقوم هذه المرّة بأداء شيء قويّ حقّاً.

ـ دعينا نطلب من الربّ أن يدع وليد بيكولا يعيش، ونعد بأن نكون طيّبتين لمدّة شهر كامل!

ـ لِيَكُنْ. ولكن من الخير لنا أن نتخلّى عن شيء حتّى يعلم الربّ أنّنا جادّتان حقّاً هذه المرّة.

ـ نتخلّى عمّاذا؟ ليس لدينا شيء. لا شيء إلاَّ نقود البذور، أيْ دولارين.

ـ يمكننا التخلّي عن ذلك المبلغ. أو، أتعلمين؟ يمكننا التخلّي عن الدرّاجة، ندفن النّقود و. نغرس البذور.

ـ النّقود كلّها؟

ـ كلوديا، هل تريدين القيام بذلك أم لا؟

ـ لِيَكُنْ، كلّ ما هنالك أنّني فكّرت.. لِيَكُنْ!

ـ الآن ينبغي علينا إنجاز الأمر «على الوجه الصّحيح». لسوف ندفن النّقود هنالك بجوار بيتها، حتّى لا يمكننا العودة واستردادها، ولسوف نغرس البذور وراء بيتنا، لكي نتمكّن من مراقبتها. وعندما تنمو سنعرف أنّ كلّ شيء على ما يرام. اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا. دعيني فقط أغنّي هذه المرّة، وردّدي الكلمات السحّريّة!

twitter @baghdad_library

أنظروانظرواهاهيصديقتقبللسوفتلعبمعجين
لسوفتلعبانلعبتلطيفتالعبيباجينللعب
ـ كم مرّة في كلّ دقيقة ستنظرين في ذلك الشيء القديم؟
ـ لم أنظر لبرهة طويلة.
ـ بل نظرت.
ـ وماذا في ذلك؟ يمكنني النّظر إذا أردت.
ـ لم أقل إنّه لا يمكنك. كلّ ما هنالك أنّني لست أدري لماذا يتعيّن أن تنظري في كلّ دقيقة. إنّهما لن تمضيا إلى أيّ مكان.
ـ أعرف ذلك، كلّ ما هنالك أنّني أحبّ النّظر.
ـ أتخشين أنّهما قد تختفيان؟
ـ كلاّ، بالطبع، كيف يمكن أن تختفيا؟
ـ لقد اختفت الأُخريان.
ـ لم تختفيا، وإنما تغيّرتا.
ـ اختفتا، تغيّرتا، ما الفرق؟
ـ فرق كبير. لقد قال السيّد سوبهيد إنّهما ستدومان للأبد.
ـ لأبد الآبدين، آمين؟
ـ نعم، إذا أردت أن تعرفي.
ـ ليس عليك أن تكوني حاذقة على هذا النّحو عندما تتحدّثين معي.

ـ لست أحاول أن أكون حاذقة، وإنّما أنت بدأت هذا كلّه.

ـ كلّ ما هنالك أنّني أحبّ القيام بشيء آخر بخلاف مراقبتك، وأنت تحدّقين في تلك المرآة.

ـ إنّك تشعرين بالغَيْرة.

ـ لست كذلك.

ـ بل كذلك. وتتمنَّيْنَ لو أنّهما كانتا لك.

ـ ها! وكيف أبدو ولي عينان زرقاوان؟

ـ لن تقف الدّنيا على قدمها من أجلك.

ـ إذا واصلت هذا فربّما تعيّن عليّ الانصراف من تلقاء نفسي.

ـ لا لا تنصرفي! ما الّذي تريدين القيام به؟

ـ أحسب أنّ بمقدورنا الخروج واللّعب.

ـ لكنّ الجو حارّ أكثر ممّا ينبغي.

ـ يمكنك أخذ مرآتك القديمة معك. ضعيها في جيب معطفك ويمكنك التطلّع إلى نفسك على امتداد الشّارع.

ـ معقول! لم يخطر ببالي أنّك ستكونين على مثل هذا القدر من الغَيْرة.

ـ أوه. دعي عنك هذا.

ـ إنّك كذلك.

ـ ماذا تعنين بكذلك.

ـ غَيْرى.

ـ لِيَكُنْ، إنّني غَيْرى.

ـ لقد قلت لك ذلك.

ـ لا، بل أنا الّتي قلته لك.

twitter @baghdad_library

ـ هل هما لطيفتان حقّاً؟
ـ نعم. لطيفتان للغاية.
ـ مجرّد «لطيفتان للغاية»؟
ـ حقّاً وصدقاً لطيفتان للغاية.
ـ حقّاً وصدقاً، وزرقة، لطيفتان؟
ـ أوه، يا إلّهي! إنّك مجنونة.
ـ لست كذلك!
ـ لم أقصد قولها بتلك الطّريقة.
ـ طيّب. ماذا تقصدين؟
ـ هلمّي! الجوّ حارّ للغاية هنا.
ـ انتظري لحظة! فليس بمقدوري العثور على حذائي.
ـ ها هو.
ـ أوه. شكراً.
ـ هل حملت مرآتك معك؟
ـ نعم، يا عزيزتي. . !
ـ طيّب. دعينا نذهب إذن. أوه!
ـ ماذا هناك؟
ـ الشّمس ساطعة للغاية، وتؤلم عينيّ.
ـ إنّها لا تؤلم عينيّ، بل إنّني لا أطرفهما. انظري! بمقدوري النّظر إلى الشّمس مباشرة.
ـ لا تفعلي ذلك!
ـ ولِمَ لا؟ إنّه لا يؤلمني، بل ليس عليّ أن أغمض عينيّ.
ـ طيّب. أغمضيهما على أيّ حال! إنّك تجعلينني أشعر

بالاستغراب حين تُحدّقين في الشّمس على هذا النّحو.

ـ كيف تشعرين بالاستغراب؟

ـ لست أدري.

ـ نعم، تدرين. كيف تشعرين بالاستغراب؟

ـ قلت لك إنّني لست أدري.

ـ لِمَ لا تنظرين نحوي عندما تقولين ذلك؟ إنّك تنظرين منكَّسة العينين كالسيّدة بريدلوف.

ـ السيّدة بريدلوف تنظر إليك بعينين منكَّستين؟

ـ نعم. إنّها تفعل ذلك الآن. ومنذ صارت لي عينان زرقاوان، تشيح عنّي طوال الوقت. أتحسبين أنّها غَيْرى بدورها؟

ـ إنّها يمكن أن تكون كذلك؛ فهما جميلتان، كما تعلمين.

ـ أعلم ذلك. لقد أنجز مهمّة طيّبة. الكلّ يُحسّ بالغَيْرة. في كلّ مرّة أنظر إلى أحدهم ينظر بعيداً.

ـ ألهذا لم يقل لك أحدٌ كم هما جميلتان؟

ـ من المؤكّد أنّ هذا هو السّبب. هل يمكنك تصوُّر ذلك؟ شيء كهذا يحدث لشخص، وما من أحد يتفوّه بكلمة عن الأمر؟ إنّهم جميعاً يحاولون التّظاهر بأنّهم لا يروونني. أليس ذلك طريفاً؟

قلت: أليس ذلك طريفاً؟

ـ بلى.

ـ إنّك الوحيدة الّتي تقول لي كم هما جميلتان.

ـ نعم.

ـ إنّك صديقة حقيقيّة. وأنا آسفة لمضايقتي لك في السّابق، أقصد قولي إنّك غَيْرى وما إلى ذلك.

twitter @baghdad_library

ـ لا بأس.

ـ لا، حقّاً، إنّك أفضل صديقة لي. لماذا لم أعرفك عن قرب من قبل.

ـ لم تكوني بحاجة إليّ من قبل.

ـ لم أكن بحاجة إليك؟

ـ أعني أنّك كنت في السّابق تعيسة للغاية. وأحسب أنّك لم تلحظيني من قبل.

ـ أعتقد أنّك على صواب. وقد كنت وحيدة للغاية وأتوق إلى الصّديقات. وكنت على حقّ في ذلك. على حقّ أمام عينيّ.

ـ لا، يا عزيزتي، بل على حقّ وراء عينيك.

ـ ماذا؟

ـ ما رأى مورين في عينيك؟

ـ إنّها لا تقول أيّ شيء عنهما. هل قالت لك أيّ شيء عنهما؟

ـ لا لا شيء.

ـ هل تحبّين مورين؟

ـ أوه. لا بأس بها. أقصد لا بأس بها بالنسبة إلى فتاة نصف بيضاء.

ـ أعرف ما تقصدين. ولكن هل تودّين أن تكوني صديقة لها؟ أعني هل تودّين التنزّه معها أو أيّ شيء من هذا النّوع؟

ـ لا

ـ وأنا كذلك. ولكنّها بالتأكيد ذات شعبيّة.

ـ ومن تلك الّتي ترغب في أن تكون ذات شعبيّة؟

ـ لست منهنّ.

ـ ولا أنا كذلك.

ـ ولكنّك لم تستطيعي على أيّ حال اكتساب هذه الشّعبيّة، بل إنّك لا تذهبين إلى المدرسة.

ـ وأنت لا تذهبين إليها أيضاً.

ـ أعرف. ولكنَّني كنت معتادة على الذّهاب إليها.

ـ وما الّذي أوقفك.

ـ أجبروني على ذلك.

ـ من الّذي أجبرك؟

ـ لست أدري. بعد اليوم الأوّل في المدرسة بعد أن أصبحت لي عينان زرقاوان. طيّب، في اليوم التّالي دفعوا السيّدة بريدلوف إلى القدوم إلى المدرسة، والآن لم أعد أذهب إليها. ولكنّني لا أهتمّ بذلك.

ـ لا تهتمّين؟

ـ لا لست أهتمّ بذلك. إنّهم متحاملون، ذلك هو كلّ ما هناك.

ـ نعم، هم بالتأكيد متحاملون.

ـ لا لشيء إلاَّ لأنّني أحظى بعينين زرقاوين، أكثر زرقة من عيونهم. إنّهم متحاملون.

ـ ذلك صحيح.

ـ إنّهما أكثر زرقة. أليستا كذلك؟

ـ أوه. نعم. أكثر زرقة بكثير.

ـ أكثر زرقة من عينيْ جوانا.

ـ أكثر زرقة بكثير من عينيْ جوانا.

ـ وأكثر زرقة من عينيّ ميتشلينا؟

twitter @baghdad_library

ـ أكثر زرقة بكثير من عينيْ ميتشلينا.
ـ ظننت ذلك. هل قالت ميتشلينا أيّ شيء عن عينيّ؟
ـ لا لا شيء.
ـ هل قلت لها شيئاً؟
ـ لا
ـ كيف ذلك؟
ـ كيف ماذا؟
ـ كيف حدث أنّك لا تحدّثين أحداً.
ـ إنّني أحدّثك.
ـ غَيْرى.
ـ لست أحبّ أحداً غيرك.
ـ أين تسكنين؟
ـ أخبرتك بذلك ذات مرّة.
ـ ما اسم أمّك؟
ـ لماذا تنهمكين على هذا النّحو في مضايقتي.
ـ إنّني أتساءل فحسب. فلست تحادثين أحداً، ولا تذهبين إلى المدرسة، وما من أحد يحادثك.
ـ من أين لك بمعرفة أنّه ما من أحد يحادثني؟
ـ إنّهم لا يحادثونك. وعندما تكونين في الدّار معي فإنّ السيّدة بريدلوف لا توجّه إليك الحديث، أبداً. بل إنّني في بعض الأحيان أتساءل عمّا إذا كانت تراك.
ـ ولِمَ لا تراني.
ـ لست أدري، إنّها تكاد تسير فوقك.

ـ ربّما تشعر أنّها ليست على ما يرام منذ رحيل تشولّلي.
ـ أوه، نعم. لابدّ أنّك على صواب.
ـ ربّما تفتقده.
ـ لست أدري لماذا تفتقده، فكلّ ما كان يفعله هو السُّكْر وضربها.
ـ طيّب. لعلّك تعلمين حال الكبار.
ـ تفتقده؟
ـ بالتأكيد. ولِمَ لا؟ على أيّ حال إن لم تكن تحبّه، فمن المؤكّد أنّها تركته يفعلها معها كثيراً.
ـ ذلك لا شيء.
ـ من أين لك معرفة ذلك؟
ـ كنت أراهما طوال الوقت، لم تكن تحبّ أن يفعلاها.
ـ إذن لماذا تركته يفعلها معها؟
ـ لأنّه أجبرها على ذلك.
ـ كيف يمكن أن يجبرك شخص على فعل شيء مثل هذا؟
ـ بلا عناء.
ـ أوه، نعم؟ كيف بلا عناء؟
ـ إنّهما يفعلانها فحسب، ذلك هو كلّ ما هنالك.
ـ أظنّ أنّك على صواب. وتشولّلي كان بمقدوره دفع أيّ شخص إلى فعل أيّ شيء.
ـ لم يكن ذلك بمقدوره؟
ـ لقد دفعك. ألم يفعل ذلك؟
ـ اخرسي!
ـ كنت أضايقك فحسب.

twitter @baghdad_library

ـ اخرسي!
ـ لِيَكُنْ. لِيَكُنْ.
ـ لقد حاول فحسب. أتفهمين؟ لم يفعل أيّ شيء. أتسمعينني؟
ـ إنّني خرست.
ـ خير لك أن تفعلي ذلك؛ فلست أحبّ ذلك النّوع من الحديث.
ـ قلت إنّني خرست.
ـ إنّك تتحدّثين دائماً حديثاً قذراً. من الّذي حدّثك عن هذا الأمر على أيّ حال؟
ـ نسيت من هو.
ـ سامي؟
ـ لا أنت حدّثتِني عن هذا الأمر.
ـ لم أحدّثك.
ـ بل حدّثتِني، وقلتِ إنّه حاول أن يفعلها بك عندما كنت نائمة على الأريكة.
ـ أترين! إنّك لست تعرفين عمّ تتحدّثين. حدث ذلك عندما كنت أغسل الأطباق.
ـ أوه. نعم. الأطباق.
ـ وحدي. في المطبخ.
ـ طيّب. يسعدني أنّك لم تتركيه يفعلها.
ـ نعم.
ـ هل تركتِه؟
ـ تركتُه ماذا؟
ـ يفعلها.

ـ الآن مَنِ المجنون مِنْ بيننا؟
ـ أعتقد أنّني المجنونة.
ـ من المؤكّد أنّك كذلك.
ـ ومع ذلك.
ـ طيّب. امضي قدماً! ومع ذلك ماذا؟
ـ أتساءل ما الّذي يمكن أن تكون عليه.
ـ فظيعة.
ـ حقّاً؟
ـ نعم. فظيعة.
ـ إذن لماذا لم تبلّغي السيّدة بريدلوف؟
ـ أبلغتها بالفعل!
ـ لست أقصد ما يتعلّق بالمرّة الأولى، وإنّما بالمرّة الثّانية، عندما كنت تنامين على الأريكة.
ـ لم أكن نائمة، وأنّما كنت أقرأ!
ـ لا حاجة بك إلى الصّياح.
ـ لست تفهمين أيّ شيء. هل تفهمين؟ إنّها حتّى لم تصدّقني مجرّد تصديق عندما أبلغتها.
ـ ولذلك لم تبلغيها بأمر المرّة الثّانية.
ـ ما كانت لتصدّقني عند ذلك أيضاً.
ـ إنّك على صواب، فلا جدوى من إبلاغها إن كانت لن تصدّقك.
ـ ذلك هو ما أحاول إدخاله في رأسك الغليظ.
ـ ليكن. الآن أتفهّم الأمر، أوشك على ذلك.
ـ ماذا تعنين بقولك توشكين على ذلك.

twitter @baghdad_library

ـ إنّك مزعجة اليوم بالتأكيد.

ـ وأنت تواصلين التفوّه بأشياء مزعجة وخبيثة. كنت أحسب أنّك صديقتي.

ـ أنا كذلك. أنا كذلك.

ـ إذن دعيني وشأني فيما يتعلّق بتشولّلي.

ـ لِيَكُنْ.

ـ لم يعد هناك المزيد ممّا يقال عنه، على أيّ حال، فقد مضى بعيداً، على أيّ حال.

ـ نعم. إنّه خير خلاص.

ـ نعم. خير خلاص.

ـ ورحل سامي أيضاً.

ـ ورحل سامي أيضاً.

ـ إذن فلا جدوى من الحديث عن الأمر، أعني من الحديث عنهما.

ـ لا، لا جدوى على الإطلاق.

ـ انتهى كلّ شيء الآن.

ـ نعم.

ـ ولم يعد بك خوف من أن يداهمك تشولّلي بعد الآن.

ـ لا

ـ كان ذلك فظيعاً. ألم يكن كذلك؟

ـ بلى.

ـ المرّة الثّانية أيضاً؟

ـ نعم.

ـ حقّاً، المرّة الثّانية أيضاً؟
ـ دعيني وشأني! خير لك أن تدعيني وشأني!
ـ ألا يمكنك احتمال نكتة؟ كنت أمزح ولا شيء غير ذلك.
ـ لست أحبّ الحديث عن الأمور القذرة.
ـ ولا أنا أيضاً. دعينا نتحدّث عن شيء آخر!
ـ عمّاذا؟ عمّاذا سنتحدّث؟
ـ عن عينيك.
ـ أوه، نعم. عيناي. عيناي الزّرقاوان. دعيني أنظر مرّة أخرى!
ـ انظري كم هما جميلتان!
ـ نعم، إنّهما تزدادان جمالاً في كلّ مرّة أنظر إليهما.
ـ إنّهما أجمل عينين رأيتهما.
ـ حقّاً؟
ـ أوه. نعم.
ـ أجمل من السّماء؟
ـ أوه. نعم. أجمل بكثير من السّماء.
ـ أجمل من العيون الموجودة في كتاب قصّة أليس وجيري؟
ـ أوه. نعم أجمل من عيون كتاب قصّة أليس وجيري.
ـ وأجمل من عينيْ جوانا؟
ـ أوه، نعم، وأكثر زرقة كذلك.
ـ أكثر زرقة من عينيْ ميتشلينا.
ـ نعم.
ـ أواثقة أنت؟
ـ واثقة، بالطبع.

twitter @baghdad_library

ـ لا يبدو أنّك واثقة..

ـ طيّب. إنّني واثقة ما لم.

ـ ما لم ماذا؟

ـ أوه، لا شيء. كلّ ما هنالك أنّني كنت أفكّر في سيّدة رأيتها بالأمس. وكانت عيناها بالتأكيد زرقاوين. ولكن لا، ليستا أكثر زرقة من عينيك.

ـ أواثقة أنت؟

ـ أجل، الآن أتذكّرهما. عيناك أكثر زرقة.

ـ إنّني سعيدة بذلك.

ـ وأنا كذلك. فقد كنت سأكره التّفكير في أنّ هناك أحداً في الجوار له عينان أجمل من عينيك. إنّني واثقة من أنّه لا وجود لمثل هذا الشّخص، في الجوار على الأقلّ.

ـ ولكنّك لا تعرفين. أليس كذلك، فأنت لم تَرَيْ كلّ النّاس. هل رأيتهم؟

ـ لا لم أرهم.

ـ وهكذا فإنّه يمكن أن يكون هناك من له عيون أجمل. أليس ذلك ممكناً؟

ـ ليس محتملاً إلاّ على وجه التّقريب.

ـ ولكن ربّما، ربّما. قلت: «في الجوار». لا أحد «في الجوار» قد تكون له عينان أكثر زرقة. وماذا عمّا في موضع آخر؟ حتّى إذا كانت عيناي أكثر زرقة من عينيْ جوانا، وأكثر زرقة من عينيْ ميتشلينا، وأكثر زرقة من عينيْ تلك السيّدة الّتي رأيتها، فلنفترض أنّ هناك أحداً على مبعدة في مكان ما بعينيْن أكثر زرقة من عينيَّ؟

ـ كُفّي عن هذا السّخف!

ـ يمكن أن يكون هناك مثل هذا الشخص. أليس كذلك؟

ـ ليس محتملاً.

ـ ولكن افترضي، افترضي أنّه في موضع جدّ بعيد، في سينسناتي، على سبيل المثال، هناك شخص عيناه أكثر زرقة من عينيّ؟ افترضي أنّ هناك شخصين لهما عيون أكثر زرقة.

ـ وماذا في ذلك؟ لقد طلبتُ عينيْن زرقاوين، وحصلتُ عليهما.

ـ كان ينبغي عليه أن يجعلهما أكثر زرقة.

ـ من؟

ـ السيّد سوبهيد.

ـ وهل حدّدت علي أيّ درجة من درجات اللّون الأزرق تريدينهما.

ـ لا لقد نسيت.

ـ أوه. طيّب.

ـ انظري! انظري هناك إلى تلك الفتاة، إلى عينيها، هل هما أكثر زرقة من عينيّ؟

ـ لا، لست أظنّ هذا.

ـ هل دقّقت النّظر حقّاً؟

ـ نعم.

ـ هوذا أحدهم يقبل. انظري إلى عينيه! تبيّني ما إذا كانتا أكثر زرقة!

ـ إنّك تتصرّفين على نحوٍ سخيف. لن أنظر إلى عيون الجميع.

twitter @baghdad_library

ـ يتعيّن عليك ذلك.

ـ لا ليس من المتعيّن عليَّ ذلك.

ـ أرجوك! إذا كان هنالك شخص له عينان أكثر زرقة من عينيّ، فربّما كان هناك إذن من له عينان هما أكثر العيون زرقة. أكثر العيون زرقة في العالم بأسره.

ـ ذلك أمر سيّئ للغاية. أليس ذلك؟

ـ أرجوك أن تساعديني في النّظر إلى العيون!

ـ لا

ـ ولكن هَبي أن عينيّ ليستا على قدر كافٍ من الزّرقة.

ـ على قدر كافٍ من الزّرقة من أجل ماذا؟

ـ على قدر كافٍ من الزّرقة من أجل. لست أدري. على قدر كافٍ من الزّرقة من أجل شيء ما. على قدر كافٍ من الزّرقة. من أجلك.

ـ لن ألعب معك بعد الآن.

ـ أوه. لا تتركيني!

ـ نعم، سأتركك.

ـ لِمَ؟ هل أنت غاضبة منّي؟

ـ نعم.

ـ لأنّ عينيّ ليستا على قدر كافٍ من الزّرقة؟ لأنّني ليست لي أكثر العيون زرقة؟

ـ لا، لأنّك تتصرّفين بشكل سخيف.

ـ لا تذهبي! لا تهجريني! هل ستعودين إذا ما حصلت عليهما؟

ـ حصلت علامَ؟

ـ أكثر العيون زرقة. هل ستعودين عندئذٍ؟
ـ بالطبع سأعود. كلّ ما هنالك أنّني سأبتعد لبعض الوقت.
ـ أتعدين؟
ـ بالتأكيد. سأعود، أمام عينيك ذاتهما.

هكذا كان الأمر.

فتاة سوداء، صغيرة، تتوق إلى العينين الزّرقاوين لفتاة بيضاء صغيرة. ولا يفوق الفظاعة الكامنة في قرار تَوْقها ذاك إلاَّ شرّ التحقُّق.

كنّا ـ أنا وفريدا ـ نراها في بعض الأحيان، بعد ولادة الطّفل، قبل موعده، وموته. بعد النّميمة وهزّ الرّؤوس وئيداً. كان مشهدها محزناً. أشاح الكبار عنها، وأمَّا الأطفال، الّذين لم تُخِفْهم، فقد ضحكوا منها عالياً.

كان الضّرر الّذي حاق بها شاملاً. أمضت أيّامها، أيّام جنونها وتداعيها، ماضية جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً، ورأسها يهتزّ على إيقاع طبّال جدّ بعيد بحيث أنّها وحدها كانت تسمعه. كانت تمضي بذراعيها، وقد ثنت المرفقين ووضعت اليدين على الكتفين، مثل طائر منهمك في جهد دائب ومُحْبَط على نحو غريب للطيران، يلطم الهواء، طائر له جناحان، ولكنّه لا يفارق الأرض، يتوق إلى الخواء الأزرق الّذي لم يستطع الوصول إليه ـ بل لم يستطع حتّى أن يراه ـ وإن كان يملأ أودية الذّهن.

twitter @baghdad_library

حاولنا أن نراها، دون أن نتطلّع إليها، ولم نقترب منها قطّ. ليس لأنّها كانت عبثيّة أو مثيرة للغثيان أو لأنّنا خفنا منها، وإنّما لأنّنا خذلناها؛ فزهورنا لم تَنْمُ قطّ. وكنت مقتنعة بأنّ فريدا على صواب، وأنّني غرست البذور على عمق أكثر ممّا ينبغي. كيف أمكن أن أكون متخلّفة على هذا النّحو؟ هكذا تجنّبنا بيكولا بريدلوف ـ إلى الأبد.

انطوت الأعوام كطيّ مناديل الجيب. غادر سامي البلدة منذ زمن بعيد. ومات تشولّلي في المعمل. وماتزال السيّدة بريدلوف تعمل بالخدمة في البيوت. وبيكولا في موضعٍ ما من تلك الدّار البنّيّة الصّغيرة الّتي انتقلت إليها هي وأمّها عند طَرف البلدة، حيث يمكنك أن تراها حتّى الآن مرّة كلّ فترة. تراجعت الإشارات الّتي تجعلها شبيهة بالطائر، إلى مجرّد قيامها بالالتقاط والقطف، بين حوافّ الإطارات وزهور عبّاد الشّمس، بين زجاجات الكوكاكولا وحشيشة اللّبن، بين كلّ نفاية وجمال في العالم ـ وهو ما كانته هي نفسها. كلّ نفايتنا الّتي ألقيناها عليها، والّتي امتصّتها، وكلّ جمالنا الّذي كان جمالها أوّلاً ثمّ منحتنا إيّاه. شعرنا جميعاً ـ نحن الّذين عرفناها ـ بأنّنا أصحّاء للغاية بعد أن طهرّنا أنفسنا فيها. كنّا في غاية البهاء ونحن نقف داهسين قبحها. وقد زيّنتنا بساطتها، وأضفى ذنبها القداسة علينا، وجعلنا ألمها نتوهّج بالصحّة، وجعلنا تخبُّطها نحسب أنّ لدينا حسّاً فكاهيّاً. وجعلنا عِيُّها نعتقد أنّنا فصحاء. وأبقى فقرها علينا كرماء، وحتّى أحلام يقظتها قمنا باستغلالها لإسكات كوابيسنا. وقد تركتنا نفعل هذا كلّه، ومن خلال هذا استحقّت ازدراءنا. اتّخذناها مشحذة نشحذ عليها ذواتنا، وحشونا شخصيّاتنا بتهافتها، وتثاءبنا في توهُّمنا لقوّتنا.

ووهماً كانت؛ ذلك أنّنا لم نكن أقوياء، وإنّما كنّا عدوانيّين فحسب، لم نكن أحراراً وإنّما أسأنا استخدام الحرّيّة، لم نكن رحماء، وإنّما كنّا كيّسين، لم نكن أخياراً، وإنّما كنّا منضبطي السّلوك. تودّدنا إلى الموت لنصف أنفسنا بأنّنا شجعان، واختبأنا كاللّصوص من الحياة. أحللنا التمكُّنَ من ناصية اللّغة محلَّ العقل، وبدّلنا العادات لنقلّد النّضج، أعدنا ترتيب الأكاذيب ودعونا بالحقيقة، ورأينا في النّمط الجديد لفكرة قديمة الإلهام والكلمة.

غير أنّها خطت متجاوزة إلى الجنون، جنونٍ حماها منّا؛ لأنّه أضجرنا في النهاية.

أوه، بعضنا «أحبّها». «خطّ ماجينو». وتشوللّي أحبّها، أنا على يقين من أنّه أحبّها، فهو على أيّ حال كان من أحبّها بما يكفي لكي يمسّها، ويحتويها ويمنحها شيئاً من ذاته. لكن لمسته كانت قاتلة، والشيء الّذي منحها إيّاه ملأ رَحِمَ عذابها بالموت؛ فالحبّ لا يكون أفضل من المحبّ. والأشرار يحبّون بصورة شرّيرة، والضّارون يحبّون بضراوة، والضّعفاء يحبّون بضعف، والبلهاء يحبّون ببلاهة. ولكنّ حبّ رجل حرّ ليس بالحبّ الآمن قطّ. فليست هناك هبة للمحبوبة. والمحبّ وحده يمتلك هبة الحبّ. والمحبوبة تُجَزّ وتُنحّى جانباً وتجمد في توهّج عين المحبّ المطلّة إلى داخله.

والآن عندما أراها تنقّب في النّفايات أتساءل ـ عمّ؟ عن الشيء الّذي اغتلناه؟ إنّني أتحدّث عن أنّني لم أغرس البذور أعمق ممّا ينبغي، وأنّ اللّوم يقع على كاهل التّربة، أرض بلدتنا. بل إنّني يخطر ببالي الآن أنّ أرض البلاد بكاملها كانت معادية لنبات القطيفة في

twitter @baghdad_library

ذلك العام. هذه التّربة سيّئة بالنسبة إلى أنواع معيّنة من الزّهور، وهي لن تغذّي بذوراً معيّنة، ولن تحمل أشجارها ثمار فاكهة بذاتها، وعندما تقتل الأرض من تلقاء ذاتها، فإنّنا نُذْعِن، ونقول إنّ الضحيّة ليس لها حقّ في العيش. ونحن مخطئون، بالطبع، ولكن لا أهميّة لذلك؛ فقد فات الأوان. فات الأوان كثيراً، على الأقلّ عند طرف بلدتي، وسط النّفاية وزهور عبّاد شمس هذه البلدة.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: - بيروت - لبنان

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

يبدو حوارهنّ كرقصة خبيثة، هادئة الإيقاع: الصَّوت يلتقي بالصَّوت، وكذا انحناءات التّوقير، وهزّات الأوراك والأكتاف، والتّراجعات. يدخل صوتُ الحلبةَ، ولكنّ صوتاً آخر يعلو عليه، يدور كلّ منهما حول الآخر ويتوقّف. وفي بعض الأحيان تتحرّك كلماتهنّ في دوائر لولبيّة متشامخة، وتتقافز في أحيان أخرى قفزات عملاقة، ويرقّشها جميعها ضحك دافئ النّبض مثل نبض قلب مصنوع من الهلام، وتبدو على الدّوام واضحة بالنسبة لي ولفريدا حافةُ انفعالاتهنّ وانعطافتها واندفاعة توغّلها. ولسنا نعرف معاني كلّ كلماتهنّ، فليس ذلك بمقدورنا، فنحن في التّاسعة والعاشرة من العمر؛ ولذا فإنّنا نرقب وجوههنّ وأيديهنّ وأقدامهنّ ونصغي لسماع الحقيقة في جرس أصواتهنّ.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت